تفسير سورة الأعراف

هى مكية إلا ثمان آيات ، وهى قوله : ﴿ **واسألهم عن القرية** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم** ﴾ .

وقد أخرج ابن الضريس والنحاس فى ناسخه وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس قال: سورة الأعراف نزلت بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله. وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة ، قال : آية من الأعراف مدنية وهى : ﴿ **واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر** ﴾ إلى آخر الآية . وسائرها مكية .

وقد ثبت أن النبى ﷺ كان يقرأ بها فى المغرب يفرقها فى الركعتين [١] . وآياتها مائتان وست آيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **الٓمٓصٓ (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧)** ﴾

قوله : ﴿ **المص** ﴾ قد تقدم فى فاتحة سورة البقرة ما يغنى عن الإعادة ، وهو إما مبتدأ وخبره ﴿ **كتاب** ﴾ ، أى ﴿ **المص** ﴾ حروف ﴿ **كتاب أُنزل إليك** ﴾ ، أو هو خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذا ﴿ **المص** ﴾ ، أى المسمى به ، وأما إذا كانت هذه الفواتح مسرودة على نمط التعديد فلا محل له ، و ﴿ **كتاب** ﴾ خبر المبتدأ على الوجه الأول، أو خبر مبتدأ محذوف على الثانى،أى هو كتاب . قال الكسائى : أى هذا كتاب ، و ﴿ **أنزل إليك** ﴾ صفة له. ﴿ **فلا يكن فى صدرك حرج منه** ﴾ الحرج : الضيق[٢] ، أى لا يكن فى صدرك ضيق منه من إبلاغه إلى الناس مخافة أن يكذبوك ويؤذوك، فإن الله حافظك وناصرك. وقيل: المراد: لا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لك [٣] ﴿ **فإنما عليك البلاغ** ﴾،وقال مجاهد وقتادة :

---

(١) النسائى فى الصلاة ٢/ ١٧٠ عن عائشة .

(٢) ومثله قوله : ﴿ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

(٣) وقد ورد فى صحيح مسلم ما يوافق ذلك عن عياض بن حمار المجاشعى فى الجنة (٢٨٦٥/٦٣) وقال فيه: «رب إذاً يثلغوا رأسى فيدعوه خبزة» ، والثلغ : الشرخ ، وقيل : هو ضربك الشىء الرطب بالشىء اليابس حتى ينشرخ .

الحرج هنا : الشك ، لأن الشاك ضيق الصدر ، أى لا تشك فى أنه منزل من عند الله ، وعلى هذا يكون النهى له ﷺ من باب التعريض ، والمراد : أمته ، أى لا يشك أحد منهم فى ذلك ، والضمير فى ﴿ **منه** ﴾ راجع إلى الكتاب ، فعلى الوجه الأول يكون على تقدير مضاف، أى من إبلاغه ، وعلى الثانى يكون التقدير من إنزاله ، والضمير فى ﴿**لتنذر به** ﴾ راجع إلى الكتاب ، أى لتنذر الناس بالكتاب الذى أنزلناه إليك، وهو متعلق بأنزل، أى أنزل إليك لإنذارك للناس به، أو متعلق بالنهى، لأن انتفاء الشك فى كونه منزلا من عند الله أو انتفاء الخوف من قومه يقوِّيه على الإنذار ويشجعه، لأن المتيقن يقدم على بصيرة ويباشر بقوة نفس .

قوله : ﴿ **وذكرى للمؤمنين** ﴾ الذكرى : التذكير . قال البصريون : الذكرى : فى محل رفع على إضمار مبتدأ . وقال الكسائى : هى فى محل رفع عطفا على كتاب ، ويجوز النصب على المصدر ، أى وذكر به ذكرى، قال البصريون :ويجوز الجر حملا على موضع ﴿ **لتنذر**﴾ ، أى للإنذار والذكرى ، وتخصيص الذكرى بالمؤمنين لأنهم الذين ينجع [١] فيهم ذلك . وفيه إشارة إلى تخصيص الإنذار بالكافرين .

قوله : ﴿**اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ يعنى : الكتاب، ومثله السنة لقوله : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر : ٧] ونحوها من الآيات ، وهو أمر للنبى ﷺ ولأمته . وقيل : هو أمر للأمة بعد أمره ﷺ بالتبليغ ، وهو منزل عليهم بواسطة إنزاله إلى النبى ﷺ ﴿ **ولا تتبعوا من دونه أولياء** ﴾ نهى للأمة عن أن يتبعوا أولياء من دون الله يعبدونهم ويجعلونهم شركاء لله ، فالضمير على هذا فى ﴿**من دونه** ﴾ يرجع إلى رب ، ويجوز أن يرجع إلى «ما» فى ﴿ **ما أنزل إليكم** ﴾ أى لا تتبعوا من دون كتاب الله أولياء تقلدونهم فى دينكم كما كان يفعله أهل الجاهلية من طاعة الرؤساء فيما يحللونه لهم ويحرمونه عليهم . قوله: ﴿ **قليلا ما تذكرون** ﴾ انتصاب ﴿ **قليلا** ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف للفعل المتأخر ، أى تذكرا قليلا ، و« ما » مزيدة للتوكيد أو هو منتصب على الحال من فاعل ﴿**لا تتبعوا** ﴾ ، و «ما» مصدرية ، أى لا تتبعوا من دونه أولياء قليلا تذكرهم ، قرئ : « تذكرون » بالتخفيف بحذف إحدى التاءين ، وقرئ بالتشديد على الإدغام .

قوله : ﴿ **وكم من قرية أهلكناها** ﴾ « كم » هى الخبرية المفيدة للتكثير وهى فى موضع رفع على الابتداء ، و﴿ **أهلكناها** ﴾ الخبر ﴿ **من قرية** ﴾ تمييز ، ويجوز أن تكون فى محل نصب بإضمار فعل بعدها لا قبلها ، لأن لها صدر الكلام ، ولولا اشتغال ﴿ **أهلكناها** ﴾ بالضمير لجاز انتصاب «كم» به ، والقرية : موضع اجتماع الناس ، أى كم من قرية من القرى الكبيرة أهلكناها نفسها بإهلاك أهلها ، أو أهلكنا أهلها ، والمراد : أردنا إهلاكها .

قوله : ﴿ **فجاءها بأسنا** ﴾ معطوف على أهلكنا بتقدير الإرادة كما مرَّ [٢] ؛ لأن ترتيب

---

(١) نجع : أى أثرَّ ، نجع الخطاب فيه أى أثر ونفع .

(٢) ومثله : قوله تعالى : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ [النحل : ٩٨].

مجيء البأس على الإهلاك لا يصح إلا بهذا التقدير ، إذ الإهلاك هو نفس مجيء البأس . وقال الفراء : إن الفاء بمعنى الواو فلا يلزم التقدير ، والمعنى : أهلكناها وجاءها بأسنا ، والواو لمطلق الجمع ، لا ترتيب فيها . وقيل : إن الإهلاك واقع لبعض أهل القرية ؛ فيكون المعنى : وكم من قرية أهلكنا بعض أهلها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع . وقيل : المعنى : وكم من قرية حكمنا بإهلاكها فجاءها بأسنا . وقيل : أهلكناها بإرسال ملائكة العذاب إليها فجاءها بأسنا ، والبأس هو العذاب . وحكى عن الفراء أنه إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت فيكون المعنى : وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها ، مثل : دنا فقرب وقرب فدنا . ﴿ **بياتاً** ﴾ أى ليلا ، لأنه يبات فيه ، ويقال : بات يبيت بيتا وبياتا ، وهو مصدر واقع موقع الحال ، أى بائتين .

قوله : ﴿ **أوهم قائلون** ﴾ معطوف على ﴿ **بياتا** ﴾ أى بائتين أو قائلين ، وجاءت الجملة الحالية بدون واو استثقالا لاجتماع الواوين ، واو العطف ، وواو الحال ، هكذا قال الفراء . واعترضه الزجاج فقال : هذا خطأ بل لا يحتاج إلى الواو ، تقول : جاءنى زيد راكبا أو هو ماش ؛ لأن فى الجملة ضميرا قد عاد إلى الأول ، و « أو » فى هذا الموضع للتفصيل لا للشك . والقيلولة : هى نوم نصف النهار . وقيل : هى مجرد الاستراحة فى ذلك الوقت لشدة الحر من دون نوم ، وخصَّ الوقتين لأنهما وقت السكون والدعة فمجيء العذاب فيهما أشد وأفظع .

قوله : ﴿ **فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين** ﴾ الدعوى : الدعاء ، أى فما كان دعاؤهم ربهم عند نزول العذاب إلا اعترافهم بالظلم على أنفسهم ومثله ﴿ وآخر دعواهم ﴾ [يونس : ١٠] أى آخر دعائهم . وقيل : الدعوى هنا بمعنى : الادعاء ، والمعنى : ما كان يدعونه لدينهم وينتحلونه إلا اعترافهم ببطلانه وفساده ، واسم كان : ﴿ **إلا أن قالوا** ﴾ . وخبرها : ﴿ **دعواهم** ﴾ ويجوز العكس ، والمعنى : ما كان دعواهم إلا قولهم إنا كنا ظالمين .

قوله : ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم** ﴾ هذا وعيد شديد ، والسؤال للقوم الذين أرسل إليهم الرسل من الأمم السالفة للتقريع والتوبيخ ، واللام لام القسم ، أى لنسألنهم عما أجابوا به رسلهم عن دعوتهم ، والفاء لترتيب الأحوال الأخروية على الأحوال الدنيوية ﴿ **ولنسألن المرسلين** ﴾ أى الأنبياء الذين بعثهم الله ، أى نسألهم عما أجاب به أممهم عليهم ، ومن أطاع منهم ومن عصى [1] . وقيل : المعنى : فلنسألنَّ الذين أرسل إليهم ، يعنى : الأنبياء ، ولنسألن المرسلين ، يعنى : الملائكة ، ولا يعارض هذا قول الله سبحانه : ﴿ ولا يسأل عن

---

(١) وقيل : سؤال الرسل سؤال استشهاد بهم وإفصاح ، أى عن جواب القوم ، وهو معنى قوله : ﴿ **ليسأل الصادقين عن صدقهم** ﴾ [الأحزاب : ٨] .

ذنوبهم المجرمون ﴾ [القصص: ٧٨] لما قدمنا غير مرة أن الآخرة مواطن، ففى موطن يسألون ، وفى موطن لا يسألون ، وهكذا سائر ما ورد مما ظاهره التعارض بأن أُثبت تارة ، ونفى أخرى بالنسبة إلى يوم القيامة ، فإنه محمول على تعدد المواقف مع طول ذلك اليوم طولا عظيما ﴿ **فلنقصن عليهم بعلم** ﴾ أى على الرسل والمرسل إليهم ما وقع بينهم عند الدعوة منهم بعلم لا بجهل، أى عالمين بما يسرون وما يعلنون ﴿ **وما كنا غائبين** ﴾ عنهم فى حال من الأحوال حتى يخفى علينا شىء مما وقع بينهم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، وابن النجار فى تاريخه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **المص** ﴾ قال : أنا الله أفصل[١] . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير مثله[٢] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس؛ أن هذا ونحوه من فواتح السور قسم أقسم الله به، وهى من أسماء الله [٣] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **المص** ﴾ قال : هو المصور [٤] . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى فى قوله : ﴿ **المص** ﴾ قال : الألف من الله والميم من الرحمن والصاد من الصمد . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال معناه: أنا الله الصادق ، ولا يخفى عليك أن هذا كله قول بالظن وتفسير بالحدس ، ولا حجة فى شىء من ذلك ، والحق ما قدمنا فى فاتحة سورة البقرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **فلا يكن فى صدرك حرج منه** ﴾ قال: الشك ، وقال الأعرابى : ما الحرج فيكم ؟ قال : اللبس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : ضيق . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود: ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم ، ثم قرأ : ﴿ **فما كان دعواهم** ﴾ الآية . وأخرجه ابن جرير عنه مرفوعا [٥] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين** ﴾ قال : نسأل الناس عما أجابوا المرسلين ونسأل المرسلين عما بلغوا ، ﴿ **فلنقصن عليهم بعلم** ﴾ قال: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون [٦] . وأخرج عبد بن حميد عن فرقد فى الآية قال : أحدهما الأنبياء ، وأحدهما الملائكة . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : نسأل عن قول لا إله إلا الله ونسأل جبريل .

﴿ **والْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ** ﴾

(١ ـ ٤) ابن جرير ٨/ ٨٥ .

(٥، ٦) المصدر السابق ٨/ ٨٩ .

اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **والوزن يومئذ الحق** ﴾ الوزن مبتدأ وخبره الحق ، أى الوزن فى هذا اليوم العدلُ الذى لا جور فيه،أو الخبر يومئذ، والحق وصف للمبتدأ ،أى الوزن العدل كائن فى هذا اليوم . وقيل : إن الحق خبر مبتدأ محذوف واختلف أهل العلم فى كيفية هذا الوزن الكائن فى هذا اليوم، فقيل : المراد به وزن صحائف أعمال العباد بالميزان وزنا حقيقياً ، وهذا هو الصحيح ، وهو الذى قامت عليه الأدلة . وقيل : توزن نفس الأعمال وإن كانت أعراضا فإن الله يقلبها يوم القيامة أجساما كما جاء فى الخبر الصحيح : « إن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فِرْقان من طير صوافّ» (١) . وكذلك ثبت فى الصحيح أنه يأتى القرآن فى صورة شاب شاحب اللون ونحو ذلك (٢) . وقيل : الميزان : الكتاب الذى فيه أعمال الخلق . وقيل : الوزن والميزان بمعنى : العدل والقضاء ، وذكرهما من باب ضرب المثل كما تقول هذا الكلام فى وزن هذا . قال الزجاج : هذا سائغ من جهة اللسان ، والأولى أن نتبع ما جاء فى الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان . قال القشيرى : وقد أحسن الزجاج فيما قال ، إذ لو حمل [الميزان على هذا ، فليُحْمَل] (٣) الصراط على الدين الحق ، والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد، والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة والملائكة على القوى المحمودة ، ثم قال : وقد أجمعت الأمة فى الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل وإذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظاهر وصارت هذه الظواهر نصوصا . انتهى . والحق هو القول الأول .

وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فما يأتون باستبعادهم بشىء من الشرع يرجع إليه ، بل غاية ماتشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية ، وليس فى ذلك حجة على أحد ، فهذا إذا لم تقبله عقولهم فقد قبلته عقول قوم هى أقوى من عقولهم من الصحابة والتابعين

---

(١) الحديث عن بريدة بن الخصيب ، أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٨ ومسلم فى صلاة المسافرين (٤٠٨ / ٢٥٢) والدارمى ٢/ ٤٥٠ .

(٢) الحديث عن بريدة أخرجه ابن ماجة فى الأدب (٣٧٨١) وقال فى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات»، وهو جزء من الحديث السابق عند أحمد والدارمى .

(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل ، والصواب إثباته كما فى القرطبى ٤/ ٢٦٠١ .

وتابعيهم حتى جاءت البدع كالليل المظلم وقال كلٌ ما شاء ، وتركوا الشرع خلف ظهورهم وليتهم جاؤوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها ، ويتحد قبولهم لها ، بل كل فريق يدعى على العقل ما يطابق هواه، ويوافق ما يذهب إليه هو أو من هو تابع له ، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم ، يعرف هذا كل منصف ومن أنكره فليصفّ فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح لعينيه .

وقد ورد ذكر الوزن والموازين فى مواضع من القرآن كقوله : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ [الأنبياء : ٤٧]، وقوله : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ [المؤمنون : ١٠١]، وقوله: ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون﴾ [المؤمنون : ١٠٢ ، ١٠٣] ،وقوله: ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ [النساء: ٤٠] ،وقوله: ﴿ فأما من ثقلت موازينه. فهو فى عيشة راضية . وأما من خفت موازينه . فأمه هاوية ﴾ [القارعة : ٦ ـ ٩] .

والفاء فى ﴿ **فمن ثقلت موازينه** ﴾ للتفصيل ، والموازين :جمع ميزان ، وأصله : موزان ، قلبت الواو ياء لكسر ما قبلها ، وثقل الموازين هذا يكون بثقل ما وضع فيها من صحائف الأعمال. وقيل : إن الموازين جمع موزون، أى فمن رجحت أعماله الموزونة ، والأول أولى . وظاهر جمع الموازين المضافة إلى العامل أن لكل واحد من العاملين موازين يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله . وقيل : هو ميزان واحد عبر عنه بلفظ الجمع كما يقال : خرج فلان إلى مكة على البغال، والإشارة بقوله : ﴿ **فأولئك** ﴾ إلى « من » ، والجمع باعتبار معناه كما رجع إليه ضمير ﴿ **موازينه** ﴾ باعتبار لفظه وهو مبتدأ خبره ﴿ **هم المفلحون** ﴾ ، والكلام فى قوله : ﴿ **ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم** ﴾ مثله ، والباء فى ﴿ **بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾ سببية ، و « ما » مصدرية . ومعنى ﴿ **يظلمون** ﴾ : يكذبون .

قوله : ﴿ **ولقد مكناكم فى الأرض** ﴾ أى جعلنا لكم فيها مكانا وهيأنا لكم فيها أسباب المعايش ، والمعايش : جمع معيشة ، أى ما يتعايش به من المطعوم والمشروب وما تكون به الحياة ، يقال : عاش يعيش عيشا ومعاشا ومعيشا . قال الزجاج : المعيشة : ما يتوصلون به إلى العيش ، والمعيشة عند الأخفش وكثير من النحويين مفعلة . وقرأ الأعرج : « معائش » بالهمز ، وكذا روى خارجة بن مصعب عن نافع ، قال النحاس : والهمز لحن لا يجوز ، لأن الواحدة معيشة والياء أصلية كمدينة ومداين ، وصحيفة وصحايف . قوله : ﴿ **قليلا ما تشكرون** ﴾ الكلام فيه كالكلام فيما تقدم قريبا من قوله تعالى : ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ [الأعراف : ٣] .

قوله : ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** ﴾ هذا ذكر نعمة أخرى من نعم الله على عبيده ، والمعنى : خلقناكم نطفا ثم صورناكم بعد ذلك ، وقيل : المعنى : خلقنا آدم من تراب ثم

صوركم فى ظهره . وقيل : ﴿ **ولقد خلقناكم** ﴾ يعنى : آدم، ذكر بلفظ الجمع ، لأنه أبو البشر ﴿ **ثم صورناكم** ﴾ راجع إليه ، ويدل عليه ﴿ **ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ فإن ترتيب هذا القول على الخلق والتصوير يفيد أن المخلوق المصور آدم عليه السلام . وقال الأخفش: إن « ثم » فى ﴿ **ثم صورناكم** ﴾ بمعنى الواو . وقيل :المعنى: خلقناكم من ظهر آدم ، ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق . قال النحاس : وهذا أحسن الأقوال . وقيل : المعنى : ولقد خلقنا الأرواح أولا ، ثم صورنا الأشباح ، ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، أى أمرناهم بذلك فامتثلوا الأمر ، وفعلوا السجود بعد الأمر ﴿ **إلا إبليس** ﴾ قيل : الاستثناء متصل بتغليب الملائكة على إبليس لأنه كان منفرداً بينهم ، أو كما قيل : لأن من الملائكة جنسا يقال لهم الجن . وقيل غير ذلك ، وقد تقدم تحقيقه فى البقرة [(١)]. قوله: ﴿ **لم يكن من الساجدين** ﴾ جملة مبينة لما فهم من معنى الاستثناء ، ومن جعل الاستثناء منقطعا قال : معناه : لكن إبليس لم يكن من الساجدين .

وجملة : ﴿ **قال ما منعك ألا تسجد** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فماذا قال له الله ؟ و « لا » فى ﴿ **ألا تسجد** ﴾ زائدة للتوكيد بدليل قوله تعالى فى سورة ص :﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ [ص : ٧٥][(٢)]. وقيل : إن «منع » بمعنى : قال ، والتقدير : من قال لك أن لا تسجد . وقيل :« منع » بمعنى : دعا ، أى ما دعاك إلى أن لا تسجد . وقيل : فى الكلام حذف ، والتقدير : ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى أن لا تسجد ﴿ **إذ أمرتك** ﴾ أى وقت أمرتك ، وقد استدل بـه على أن الأمر للفور ، والبحث مقرر فى علم الأصول ، والاستفهام فى ﴿ **ما منعك** ﴾ للتقريع والتوبيخ ، وإلا فهو سبحانه عالم بذلك ، وجملة : ﴿ **قال أنا خير منه** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فما قال إبليس ؟ وإنما قال فى الجواب : ﴿ **أنا خير منه** ﴾ ولم يقل منعنى كذا ، لأن فى هذه الجملة التى جاء بها مستأنفة ما يدل على المانع وهو اعتقاده أنه أفضل منه ، والفاضل لا يفعل مثل ذلك للمفضول مع ما تفيده هذه الجملة من إنكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله . ثم علل ما ادعاه من الخيرية بقوله : ﴿ **خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ اعتقاداً منه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين ، وقد أخطأ عدو الله فإن عنصر الطين أفضل من عنصر النار من جهة رزانته وسكونه ، وطول بقائه ، وهى حقيقة مضطربة سريعة

---

(١) راجع تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾ [البقرة : ٣٤] .

(٢) مثله قوله تعالى : ﴿ **لئلا يعلم أهل الكتاب** ﴾ [الحديد : ٢٩] . قال ابن قتيبة : وقد تزاد لا فى الكلام والمعنى: طرحها لإباء فى الكلام أوجحد كهذه الآية وإنما زاد « لا » لأنه لم يسجد ومثله : ﴿ **أنها إذاجاءت لا يؤمنون**﴾ [الأنعام : ١٠٩] على قراءة من فتح « أنها » فزاد « لا » لأنهم لم يؤمنوا ، ومثله ﴿ **وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون** ﴾ [الأنبياء : ٩٥] .

النفاذ ، ومع هذا فهو موجود فى الجنة دونها [١] ، وهى عذاب دونه ، وهى محتاجة إليه لتتحيز فيه، وهو مسجد وطهور[٢]، ولولا سبق شقاوته وصدق كلمة الله عليه لكان له بالملائكة المطيعين لهذا الأمر أسوة وقدوة ، فعنصرهم النورى أشرف من عنصره النارى .

وجملة : ﴿ **قال فاهبط** ﴾ استئنافية كالتى قبلها ، والفاء لترتيب الأمر بالهبوط على مخالفته للأمر ، أى اهبط من السماء التى هى محل المطيعين من الملائكة الذين لا يعصون الله فيما أمرهم إلى الأرض التى هى مقر من يعصى ويطيع ، فإن السماء لا تصلح لمن يتكبر ويعصى أمر ربه مثلك ، ولهذا قال : ﴿ **فما يكون لك أن تتكبر فيها** ﴾ . ومن التفاسير الباطلة ما قيل : إن معنى ﴿ **اهبط منها** ﴾ أى اخرج من صورتك النارية التى افتخرت بها صورة مشوهة مظلمة. وقيل : المراد : هبوطه من الجنة . وقيل : من زمرة الملائكة ، وجملة : ﴿ **فاخرج** ﴾ لتأكيد الأمر بالهبوط ، وجملة : ﴿ **إنك من الصاغرين** ﴾ تعليل للأمر ، أى إنك من أهل الصغار والهوان على الله ، وعلى صالحى عباده ، وهكذا كل من تردّى برداء الاستكبار عوقب بلبس رداء الهوان والصغار ، ومن لبس رداء التواضع ألبسه الله رداء الترفع .

وجملة : ﴿ **قال أنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾ استئنافية كما تقدم فى الجمل السابقة ، أى أمهلنى إلى يوم البعث ، وكأنه طلب أن لا يموت ، لأن يوم البعث لا موت بعده والضمير فى ﴿ **يبعثون** ﴾ لآدم وذريته ، فأجابه الله بقوله : ﴿ **إنك من المنظرين** ﴾ أى الممهلين إلى ذلك اليوم، ثم تعاقب بما قضاه الله لك ، وأنزله بك فى دركات النار . قيل : الحكمة فى إنظاره ابتلاء العباد ليعرف من يطيعه ممن يعصيه .

وجملة : ﴿ **قال فبما أغويتنى** ﴾ مستأنفة كالجمل السابقة واردة جواباً لسؤال مقدر ، والباء فى « فبما » للسببية والفاء لترتيب الجملة على ما قبلها . وقيل : الباء للقسم كقوله :﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ [ص : ٨٢] أى فبإغوائك إياى ﴿ **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** ﴾ والإغواء : الإيقاع فى الغى . وقيل : الباء بمعنى اللام . وقيل : بمعنى مع . والمعنى: فمع إغوائك إياى . وقيل : « ما » فى ﴿ **فبما أغويتنى** ﴾ للاستفهام . والمعنى : فبأى شىء أغويتنى ؟ والأول أولى. ومراده بهذا الإغواء الذى جعله سبباً لما سيفعله مع العباد هو ترك السجود منه وأن ذلك كان بإغواء الله له ، حتى اختار الضلالة على الهدى . وقيل : أراد به اللعنة التى لعنه الله ، أى فبما لعنتنى فأهلكتنى لأقعدنّ لهم ، ومنه : ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ [مريم : ٥٩] أى هلاكا . وقال ابن الأعرابى : يقال : غَوِى الرجل يَغْوِى غيا ، إذا فسد عليه أمره أو فسد هو فى نفسه، ومنه:﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ [طه : ١٢١] أى فسد عيشه

---

(١) كما جاء فى الخبر: « وتراب الجنة مسك أذفر » أخرجه أحمد ٥/ ١٤٤ عن أبى بن كعب وسئله فى البخارى فى الصلاة (٣٤٩) عن أبى ذر، وفى الأنبياء (٣٣٤٢) والدارمى ٢/ ٣٣٣ عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) قال الرسول ﷺ : « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » وهو فى البخارى فى الصلاة (٤٣٨) ، والنار تخويف وعذاب قال تعالى : ﴿ **ذلك يخوف الله به عباده** ﴾ [الزمر : ١٦] .

فى الجنة ﴿ **لأقعدن لهم** ﴾ أى لأجهدنّ فى إغوائهم حتى يفسدوا بسببى كما فسدت بسبب تركى السجود لأبيهم. والصراط المستقيم: هو الطريق الموصل إلى الجنة . وانتصابه على الظرفية ، أى فى صراطك المستقيم كما حكى سيبويه: ضرب زيد الظهر والبطن ، واللام فى ﴿ **لأقعدن** ﴾ لام القسم، والباء فى ﴿ **فبما أغويتنى** ﴾ متعلقة بفعل القسم المحذوف، أى فبما أغويتنى أقسم لأقعدن.

قوله : ﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم** ﴾ ذكر الجهات الأربع لأنها هى التى يأتى منها العدو عدوّه ، ولهذا ترك ذكر جهة الفوق والتحت ، وعدى الفعل إلى الجهتين الأوليين بـ « من » وإلى الأخريين بـ « عن » ، لأن الغالب فيمن يأتى من قدام وخلف أن يكون متوجها إلى ما يأتيه بكلية بدنه ، والغالب فيمن يأتى من جهة اليمين والشمال أن يكون منحرفا ، فناسب فى الأوليين التعدية بحرف الابتداء ، وفى الأخريين التعدية بحرف المجاوزة ، وهو تمثيل لوسوسته وتسويله بمن يأتى حقيقة ؛ وقيل : المراد : ﴿ **من بين أيديهم** ﴾ من دنياهم، ﴿ **ومن خلفهم** ﴾ من آخرتهم، ﴿ **وعن أيمانهم** ﴾ من جهة حسناتهم ﴿ **وعن شمائلهم** ﴾ من جهة سيئاتهم ، واستحسنه النحاس. قوله : ﴿ **ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ أى وعند أن أفعل ذلك لا تجد أكثرهم شاكرين ؛ لتأثير وسوستى فيهم وإغوائى لهم ، و هذا قاله على الظن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه ﴾ [سبأ : ٢٠] . قيل : إنه سمع ذلك من الملائكة فقاله ، وعبر بالشكر عن الطاعة أو على حقيقته وأنهم لم يشكروا الله بسبب الإغواء .

وجملة : ﴿ **قال اخرج منها** ﴾ استئناف كالجمل التى قبلها ، أى من السماء أو الجنة أو من بين الملائكة كما تقدم ﴿ **مذؤوماً** ﴾ أى مذموما من ذأمه إذا ذمَّه [1] يقال : ذأمته وذممته بمعنى ، وقرأ الأعمش: « مذموما » ، وقرأ الزهرى: « مذوما » بغير همزة . وقيل : المذؤوم : المنفى ، والمدحور : المطرود . قوله ﴿ **لمن تبعك منهم** ﴾ قرأ الجمهور بفتح اللام على أنها لام القسم، وجوابه : ﴿ **لأملأن جهنم منكم أجمعين** ﴾ وقيل : اللام فى ﴿ **لمن تبعك** ﴾ للتوكيد ، وفى ﴿ **لأملأن** ﴾ لام القسم والأول أولى ، وجواب القسم سدّ مسدّ جواب الشرط لأن مَنْ شرطية ، وفى هذا الجواب من التهديد ما لا يقادر قدره ، وقرأ عاصم فى رواية عنه : « **لمن** تبعك » بكسر اللام وأنكره بعض النحويين . قال النحاس : وتقديره والله أعلم : من أجل من اتبعك كما يقال: أكرمت فلانا لك . وقيل : هو علة لاخرج ، وضمير ﴿ **منكم** ﴾ له ولمن اتبعه ، وغلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة ، والأصل منك ومنهم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله: ﴿ **والوزن يومئذ الحق** ﴾ قال : العدل ﴿ **فمن ثقلت موازينه** ﴾ قال: حسناته ﴿ **ومن خفت موازينه** ﴾ قال :

---

(١) فى المطبوعة : « زمه » بالزاى ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

حسناته . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى: توزن الأعمال. وقد ورد فى كيفية الميزان والوزن والموزون أحاديث كثيرة .

وقد أخرج أحمد والترمذى وابن ماجة وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ : « يُصاح برجل من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل[١] منها مد البصر فيقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : أفلك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل ، فيقول : لا يارب ، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فيقول : يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » وقد صححه أيضا الترمذى، وإسناد أحمد حسن [٢].

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** ﴾ قال : خلقوا فى أصلاب الرجال وصوّروا فى أرحام النساء [٣] . وأخرج الفريابى عنه أنه قال : خلقوا فى ظهر آدم ثم صُوروا فى الأرحام . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : أما ﴿ **خلقناكم** ﴾ فآدم ، وأما ﴿ **ثم صورناكم** ﴾ فذريته .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال : خلق إبليس من نار العزة . وقد ثبت فى الصحيح من حديث عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم»[٤]. وأخرج ابن جرير عن الحسن قال: أول من قاس إبليس فى قوله: ﴿ **خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ وإسناده صحيح إلى الحسن . وأخرج أبو نعيم فى الحلية ، والديلمى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس قال الله له: اسجد لآدم ، فقال: ﴿ **أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾» . قال جعفر : فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله يوم القيامة بإبليس لأنه اتبعه بالقياس . وينبغى أن ينظر فى إسناد هذا الحديث فما أظنه يصح رفعه وهو لا يشبه كلام النبوة [٥] .

---

(١) السجل : هو الكتاب الكبير .

(٢) أحمد ٢/ ٢١٣ والترمذى فى الإيمان (٢٦٣٩) وقال : « حسن غريب » وابن ماجة فى الزهد (٤٣٠٠) وصححه ابن حبان (٢٢٤) والحاكم ١/ ٥٢٩ ووافقه الذهبى .

(٣) ابن جرير ٨/ ٩٤ ، وصححه الحاكم ٢/ ٣١٩ على شرطيهما ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (١٠٦) وإسناده صحيح .

(٤) مسلم فى الزهد (٢٩٩٦ / ٦٠) وأحمد ٦/ ١٦٨ .

(٥) أبو نعيم فى الحلية ٣/ ١٩٧ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ **فبما أغويتنى** ﴾ أضللتنى . وأخرج عبد بن حميد فى قوله : ﴿ **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** ﴾ قال : طريق مكة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن مسعود مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم** ﴾ قال: أشككهم فى آخرتهم ﴿ **ومن خلفهم** ﴾ قال : أرغبهم فى دنياهم ﴿ **وعن أيمانهم** ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿ **وعن شمائلهم** ﴾ قال : أسنّ لهم المعاصى وأحق عليهم الباطل ﴿ **ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ قال : موحدين .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه ﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم** ﴾ يقول : من حيث يبصرون ﴿ **ومن خلفهم** ﴾ من حيث لا يبصرون ﴿ **وعن أيمانهم** ﴾ من حيث يبصرون ﴿ **وعن شمائلهم** ﴾ من حيث لا يبصرون. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : لم يستطع أن يقول من فوقهم . وفى لفظ علم أن الرحمة تنزل من فوقهم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **مذؤوما** ﴾ قال : ملوما ، ﴿ **مدحورا** ﴾ قال :مقيتا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **مذؤوما** ﴾ قال : منفيا ﴿ **مدحورا** ﴾ قال : مطرودا .

﴿ **وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)** ﴾ .

قوله : ﴿ **ويا آدم** ﴾ هو على تقدير القول ، أى وقلنا يا آدم ، قال له هذا القول بعد إخراج إبليس من الجنة أو من السماء ،أو من بين الملائكة كما تقدم.وقد تقدم معنى الإسكان ، ومعنى ﴿ **ولا تقربا** [1] **هذه الشجرة** ﴾ فى البقرة ومعنى ﴿ **من حيث شئتما** ﴾ : من أى نوع من

(١) فى المخطوطة : « لا تقربا » بدون الواو .

أنواع الجنة شئتما أكله، ومثله ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وكلا منها رغدا حيث شئتما﴾ [البقرة: ٣٥] وحذف النون من ﴿ **فتكونا** ﴾ لكونه معطوفا على المجزوم، أو منصوبا على أنه جواب النهى.

قوله : ﴿ **فوسوس لهما الشيطان** ﴾ الوسوسة: الصوت الخفى ، والوسوسة: حديث النفس ، يقال : وسوست إليه نفسه وسوسة ووسواسا بكسر الواو ، والوسوسة بالفتح الاسم ، مثل : الزلزلة والزلزال ، ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحلى : وسواس . قال الأعشى :

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت [1]

والوسواس : اسم الشيطان . ومعنى وسوس له : وسوس إليه أو فعل الوسوسة لأجله . قوله : ﴿ **ليبدى لهما** ﴾ أى ليظهر لهما ، واللام للعاقبة كما فى قوله : ﴿ ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾ [القصص : ٨] . وقيل : هى لام كى ، أى فعل ذلك ليتعقبه الإيذاء ، أو لكى يقع الإيذاء . قوله : ﴿ **ماووري** ﴾ أى ما ستر وغطى ﴿**عنهما من سوآتهما**﴾ سمى الفرج سوءة ، لأن ظهوره يسوء صاحبه ، أراد الشيطان أن يسوءهما بظهور ما كان مستورا عنهما من عوراتهما فإنهما كانا لا يريان عورة أنفسهما ولا يراها أحدهما من الآخر ، وإنما لم تقلب الواو فى ﴿ **ووري** ﴾ همزة لأن الثانية مدة . قيل : إنما بدت عورتهما لهما لا لغيرهما ، وكان عليهما نور يمنع من رؤيتها ﴿ **وقال** ﴾ أى الشيطان لهما ﴿ **ما نهاكما ربكما عن**﴾ أكل هذه الشجرة ﴿ **إلا أن تكونا ملكين** ﴾ « أن » فى موضع نصب ، وفى الكلام مضاف محذوف تقديره: ولا كراهة أن تكونا ملكين هكذا قال البصريون . وقال الكوفيون : التقدير : لئلا تكونا ملكين ﴿ **أو تكونا من الخالدين** ﴾ فى الجنة أو من الذين لا يموتون . قال النحاس: فضل الله الملائكة على جميع الخلق فى غير موضع فى القرآن ، فمنها هذا ، ومنها : ﴿ ولا أقول إنى ملك﴾ [الأنعام : ٥٠] ومنها : ﴿ ولا الملائكة المقربون ﴾ [النساء: ١٧٢] . قال ابن فورك : لا حجة فى هذه الآية ؛ لأنه يحتمل أن يريد ملكين فى أن لا يكون لهما شهوة فى الطعام . وقد اختلف الناس فى هذه المسألة اختلافا كثيرا وأطالوا الكلام فى غير طائل وليست هذه المسألة مما كلفنا الله بعلمه ، فالكلام فيها لا يعنينا . وقرأ ابن عباس ويحيى بن أبى كثير والضحاك : « ملِكين » بكسر اللام ، وأنكر أبو عمرو بن العلاء هذه القراءة وقال : لم يكن قبل آدم ملك فيصيرا ملكين . وقد احتج من قرأ بالكسر بقوله تعالى : ﴿ هل أدلك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى ﴾ [طه: ١٢٠]. قال أبو عبيد: هذه حجة بينة لقراءة الكسر ولكن الناس على تركها فلهذا تركناها. قال النحاس: هى قراءة شاذة، وأنكر على أبى عبيد هذا الكلام وجعله من الخطأ الفاحش. قال: وهل يجوز أن يتوهم على آدم عليه السلام أن يصل إلى أكثر من ملك الجنة وهى غاية

---

(١) وعجز البيت :

كما استعان بريح عشرق زَجِل

والعشرق : كزبرج : وهو شجر له حب صغار إذا جف صوت بمر الريح .

الطالبين ؟ وإنما معنى ﴿ وملك لا يبلى ﴾ : المقام فى ملك الجنة والخلود فيه .

قوله : ﴿ **وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين** ﴾ أى حلف لهما فقال : أقسم قساما ، أى حلف ، ومنه قول الشاعر :

وقاسمهما بالله جهدا لأنتما ألذّ من السلوى إذا ما نشورها (١)

وصيغة المفاعلة وإن كانت فى الأصل تدلّ على المشاركة فقد جاءت كثيرا لغير ذلك ، وقد قدمنا تحقيق هذا فى المائدة، والمراد بها هنا :المبالغة فى صدور الإقسام لهما من إبليس . وقيل : إنهما أقسما له بالقبول كما أقسم لهما على المناصحة . قوله : ﴿ **فدلاهما بغرور** ﴾ التدلية والإدلاء : إرسال الشىء من أعلى إلى أسفل ، يقال : أدلى دلوه : أرسلها ، والمعنى : أنه أهبطهما بذلك من الرتبة العلية إلى الأكل من الشجرة. وقيل : معناه : أوقعهما فى الهلاك . وقيل: خدعهما وأنشد لفطويه :

إن الكريم إذا تشاء خدعته وترى اللئيم مجربا لا يخدع (٢)

وقيل : معنى ﴿ **دلاهما** ﴾ : دللهما من الدالة ، وهى الجرأة ، أى جرأهما على المعصية فخرجا من الجنة . قوله: ﴿ **فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما** ﴾ أى لما طعماها ظهرت لهما عوراتهما بسبب زوال ما كان ساتراً لهما وهو تقلص النور الذى كان عليها،وقد تقدم فى البقرة. قوله : ﴿ **وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾ طفق يفعل كذا ، بمعنى شرع يفعل كذا . وحكى الأخفش : طفق يطفق مثل ضرب يضرب ، أى شرعا أو جعلا يخصفان عليهما . قرأ الحسن : «يخصفان » بكسر الخاء وتشديد الصاد ، والأصل يختصفان فأدغم وكسرت الخاء لالتقاء الساكنين . وقرأ ابن بريدة ويعقوب بفتح الخاء . وقرأ الزهرى :« يخصفان » من أخصف . وقرأ الجمهور : ﴿ **يخصفان** ﴾ من خصف . والمعنى : أنهما أخذا يقطعان الورق ويلزقانه بعورتهما ليستراها ، من خصف النعل : إذا جعله طبقة فوق طبقة ﴿ **وناداهما ربهما** ﴾ قائلا لهما : ﴿ **ألم أنهكما عن تلكما الشجرة** ﴾ التى نهيتكما عن أكلها ، وهذا عتاب من الله لهما وتوبيخ حيث لم يحذرا ما حذرهما منه ﴿ **وأقل لكما** ﴾ معطوف على ﴿ **أنهكما**﴾ ﴿ **إن الشيطان لكما عدو مبين** ﴾ أى مظهر للعداوة .

قوله : ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا** ﴾ جملة استئنافية مبنية على تقدير سؤال كأنه قيل : فماذا

(١) السلوى : العسل ، وشار العسل : اجتناه وأخذه من موضعه ، والبيت ذكره القرطبى غير منسوب . وذكره صاحب اللسان فى: « سلا » منسوبا إلى خالد بن زهير ، قال الزجاج : « أخطأ خالد ، إنما السلوى : طائر». قال الفارسى : « السلوى : كل ما سلاك » ، وقيل : العسل سلوى لأنه يسليك بحلاوته وتأتيه عن غيره مما تلحقك فيه مؤنة الطبخ وغيره من أنواع الصناعة ». يرد بذلك على أبى إسحاق الزجاج .

(٢) البيت كما قال المصنف لفطويه وهو : إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدى . راجع : الفهرست لابن النديم، ومعجم الأدباء ووفيات الأعيان ١/ ١١ ولسان الميزان ١/ ١٠٩ وفيه : « نفطويه على وزن سيبويه » وتاريخ بغداد ٦/ ١٥٩ .

قالا؟ وهذا منهما اعتراف بالذنب وأنهما ظلما أنفسهما مما وقع منهما من المخالفة، ثم قالا: ﴿**وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾ .

وجملة : ﴿**قال اهبطوا**﴾ استئناف كالتى قبلها ، والخطاب لآدم وحواء وذريتهما ، أو لهما ولإبليس ، وجملة : ﴿**بعضكم لبعض عدو**﴾ فى محل نصب على الحال ﴿**ولكم فى الأرض مستقر**﴾ أى موضع استقرار ولكم ﴿**متاع**﴾ تتمتعون به فى الدنيا وتنتفعون به من المطعم والمشرب ونحوهما ﴿**إلى حين**﴾ أى إلى وقت ، وهو وقت موتكم .

وجملة : ﴿**قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون**﴾ استئنافية كالتى قبلها ، أى فى الأرض تحيون ، وفيها يأتيكم الموت ، ومنها تخرجون إلى دار الآخرة ، ومثله قوله تعالى : ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ [طه : ٥٥] . واعلم أنه قد سبق شرح هذه القصة مستوفى فى البقرة فارجع إليه .

وقد أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن وهب بن منبه فى قوله : ﴿**ليبدى لهما ما ووارى عنهما من سوآتهما**﴾ قال : كان على كل واحد منهما نور لا يبصر كل واحد منهما سوءة صاحبه ، فلما أصابا الخطيئة نزع عنهما[١] . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : أتاهما إبليس فقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين مثله ، يعنى مثل الله عز وجل ، فلم يصدقاه حتى دخل فى جوف الحية فكلمهما . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية ﴿**إلا أن تكونا ملكين**﴾ فإن أخطأكما أن تكونا ملكين لم يخطئكما أن تكونا خالدين فلا تموتان فيها أبدا ﴿**وقاسمهما**﴾ قال : حلف لهما ﴿**إنى لكما لمن الناصحين**﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب فى قوله : ﴿**فدلاهما بغرور**﴾ قال : منّاهما بغرور . وأخرج ابن المنذر وابن أبى شيبة عن عكرمة قال : لباس كل دابة منها ، ولباس الإنسان الظفر ، فأدركت آدم التوبة عند ظفره . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان لباس آدم وحواء كالظفر ، فلما أكلا من الشجرة لم يبق عليهما إلا مثل الظفر ﴿**وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة**﴾ قال: ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوآتهما [٢] . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالا من الظفر ، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال فبقى فى أطراف أصابعه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه نحوه من طريق أخرى [٣] . وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس بن مالك قال : كان لباس آدم فى الجنة الياقوت ، فلما عصى قلص فصار الظفر .

(١) ابن جرير ٨/ ١٠٤ .
(٢) المرجع السابق ٨/ ١٠٥
(٣) المرجع السابق ٨/ ١٠٦ .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وطفقا يخصفان** ﴾ قال : يرقعان كهيئة الثوب . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى ﴿ **وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة** ﴾ قال آدم : رب إنه حلف لى بك ولم أكن أعلم أن أحداً من خلقك يحلف بك إلا صادقا . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا** ﴾ الآية قال : هى الكلمات التى تلقى آدم من ربه . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك مثله .

﴿ **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)** ﴾

عبر سبحانه بالإنزال عن الخلق ، أى خلقنا لكم لباسا يوارى سوآتكم التى أظهرها إبليس من أبويكم ، والسوأة : العورة كما سلف ، والكلام فى قدرها وما يجب ستره منها مبين فى كتب الفروع . قوله : ﴿ **وريشا** ﴾ قرأ الحسن وعاصم من رواية المفضل الضبى وأبو عمرو من رواية الحسن بن على الجُعفى : « ورياشا » وقرأ الباقون : ﴿ **وريشا** ﴾ ، والرياش : جمع ريش : وهو اللباس . قال الفراء : ريش ورياش كما يقال : لبس ولباس ، وريش الطائر : ما ستره الله به . وقيل : المراد بالريش هنا : الخصب ورفاهية العيش . قال القرطبى : والذى عليه أكثر أهل اللغة : أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة [١] . وحكى أبو حاتم عن أبى عبيدة : وهبت له دابة وريشها ، أى وما عليها من اللباس . وقيل : المراد بالريش هنا : لباس الزينة لذكره بعد قوله : ﴿ **قد أنزلنا عليكم لباسا** ﴾ وعطفه عليه .

قوله : ﴿ **ولباس التقوى** ﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائى بنصب لباس . وقرأ الباقون بالرفع ؛ فالنصب على أنه معطوف على لباس الأول ، والرفع على أنه مبتدأ ، وجملة ﴿ **ذلك خير** ﴾ : خبره ، والمراد بلباس التقوى : لباس الورع واتقاء معاصى الله ، وهو الورع نفسه والخشية من الله فذلك خير لباس وأجمل زينة . وقيل : لباس التقوى : الحياء . وقيل : العمل الصالح . وقيل : هو لباس الصوف والخشن من الثياب لما فيه من التواضع لله . وقيل : هو الدرع والمغفر الذى يلبسه من يجاهد فى سبيل الله ، والأول أولى . وهو يصدق على كل ما فيه تقوى لله فيندرج تحته جميع ما ذكر من الأقوال ، ومثل هذه الاستعارة كثيرة الوقوع فى كلام العرب ومنه :

---

(١) القرطبى ٤/ ٢٦٢٠ .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا وإن كان كاسيا [١]

ومثله :

تغط بأثواب السخاء فإننى أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

والإشارة بقوله. ﴿ **ذلك** ﴾ إلى لباس التقوى ،أى هو خير لباس،وقرأ الأعمش : « ولباس التقوى خير » والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك من آيات الله** ﴾ إلى الإنزال المدلول عليه بأنزلنا ، أى ذلك الإنزال من آيات الله الدالة على أن له خالقا. ثم كرر الله سبحانه النداء لبنى آدم تحذيرا لهم من الشيطان ، فقال : ﴿ **يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان** ﴾ أى لا يوقعنكم فى الفتنة ، فالنهى وإن كان للشيطان فهو فى الحقيقة لبنى آدم بأن لا يفتنوا بفتنته ويتأثروا لذلك ، والكاف فى ﴿ **كما أخرج** ﴾ نعت مصدر محذوف ، أى لا يفتننكم فتنة مثل إخراج أبويكم من الجنة ، وجملة ﴿ **ينزع عنهما لباسهما** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وقد تقدم تفسيره ، واللام فى ﴿ **ليريهما سوآتهما** ﴾ لام كى ، أى لكى يريهما ، وقد تقدم تفسيره أيضا . قوله : ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها مع ما تتضمنه من المبالغة فى تحذيرهم منه ، لأن من كان بهذه المثابة يرى بنى آدم من حيث لا يرونه ، كان عظيم الكيد ، وكان حقيقا بأن يحترس منه أبلغ احتراس ﴿ **وقبيله** ﴾ أعوانه من الشياطين وجنوده .

وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشياطين غير ممكنة ، وليس فى الآية ما يدل على ذلك، وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لا نراه ، وليس فيها أنا لا نراه أبداً ، فإن انتفاء الرؤية منا له فى وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقاً ، ثم أخبر الله سبحانه بأنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون من عباده وهم الكفار .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم** ﴾ قال : كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة ، وفى قوله ﴿ **وريشا** ﴾ قال : المال. وأخرج ابن جرير عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ **لباسا يوارى سوآتكم** ﴾ قال : الثياب ﴿ **وريشا** ﴾ قال : المال ﴿ **ولباس التقوى** ﴾ قال: خشية الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن على فى قوله : ﴿ **لباسا يوارى سوآتكم** ﴾ قال: لباس العامة ﴿ **وريشا** ﴾ قال: لباس الزينة ﴿ **ولباس التقوى** ﴾ قال :الإسلام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وريشا** ﴾ قال : المال واللباس والعيش والنعيم ، وفى قوله : ﴿ **ولباس التقوى** ﴾ قال : الإيمان والعمل الصالح ﴿ **ذلك خير** ﴾ قال : الإيمان والعمل خير من الريش واللباس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله: « ورياشا » يقول: المال. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن

---

(١) وبعد هذا البيت :

وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ينزع عنهما لباسهما** ﴾ قال : التقوى ، وفى قوله : ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله** ﴾ قال : الجن والشياطين .

﴿ **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)** ﴾ .

الفاحشة : ما تبالغ فى فحشه وقبحه من الذنوب . قال أكثر المفسرين : هى طواف المشركين بالبيت عراة . وقيل : هى الشرك ، والظاهر أنها تصدق على ما هو أعم من الأمرين جميعا ، والمعنى : أنهم إذا فعلوا ذنبا قبيحا متبالغا فى القبح اعتذروا عن ذلك بعذرين : الأول : أنهم فعلوا ذلك اقتداءً بآبائهم لما وجدوهم مستمرين على فعل تلك الفاحشة ، والثانى : أنهم مأمورون بذلك من جهة الله سبحانه . وكلا العذرين فى غاية البطلان والفساد ؛ لأن وجود آبائهم على القبح لا يسوغ لهم فعله ،والأمر من الله سبحانه لهم لم يكن بالفحشاء [1]، بل أمرهم باتباع الأنبياء والعمل بالكتب المنزلة ونهاهم عن مخالفتها ، ومما نهاهم عنه فعل الفواحش ، ولهذا رد الله سبحانه عليهم بأن أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم : ﴿ **إن الله لا يأمر بالفحشاء** ﴾ فكيف تدعون ذلك عليه سبحانه ، ثم أنكر عليهم ما أضافوه إليه ، فقال : ﴿ **أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾ وهو من تمام ما أمر النبى ﷺ بأن يقوله لهم ، وفيه من التقريع والتوبيخ أمر عظيم ، فإن القول بالجهل إذا كان قبيحا فى كل شىء فكيف إذا كان فى التقول على الله؟

وإن فى هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر وأبلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون آباءهم فى المذاهب المخالفة للحق ، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق ، فإنهم القائلون : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ [الزخرف : ٢٣] والقائلون : ﴿ **وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها** ﴾ والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب ، مع اعتقاده بأنه الذى أمر الله به ، وأنه الحق لم يبق عليه ، وهذه الخصلة هى التى بقى بها اليهودى على اليهودية ، والنصرانى على النصرانية ، والمبتدع على بدعته ، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم فى اليهودية والنصرانية أو البدعية ، وأحسنوا الظن بهم بأن ما هم عليه

---

(١) الفحش ، والفحشاء ، والفاحشة : ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ، وفحش فلان : صار فاحشا ، ومنه قول الشاعر :

عقيلة مال الفاحش المتشدد

يعنى به : العظيم القبح فى البخل ، والمتفحش : الذى يأتى بالفحش .

هو الحق الذى أمر الله به ولم ينظروا لأنفسهم ، ولا طلبوا الحق كما يجب وبحثوا عن دين الله كما ينبغى، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص ، فيا مَن نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية أنا لك النذير المبالغ فى التحذير من أن تقول هذه المقالة وتستمر على الضلالة، فقد اختلط الشر بالخير، والصحيح بالسقيم، وفاسد الرأى بصحيح الرواية، ولم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا نبياً واحداً أمرهم باتباعه ونهى عن مخالفته فقال: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر: ٧] ولو كان محض رأى أئمة المذاهب وأتباعهم حجة على العباد ، لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعددون بعدد أهل الرأى المكلفين للناس بمالم يكلفهم الله به. وإن من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق اختيار المقلدة لآراء الرجال مع وجود كتاب الله ، ووجود سنة رسوله ، ووجود من يأخذونهما عنه ، ووجود آلة الفهم لديهم وملَكة العقل عندهم .

قوله : ﴿ **قل أمر ربى بالقسط** ﴾ القسط : العدل ، وفيه أن الله سبحانه يأمر بالعدل لا كما زعموه من أن الله أمرهم بالفحشاء . وقيل : القسط هنا هو : لا إله إلا الله ، وفى الكلام حذف ، أى قل أمر ربى بالقسط فأطيعوه . قوله : ﴿ **وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد** ﴾ معطوف على المحذوف المقدر ، أى توجهوا إليه فى صلاتكم إلى القبلة فى أى مسجد كنتم ، أو فى كل وقت سجود ، أو فى كل مكان سجود ، على أن المراد بالسجود : الصلاة ﴿ **وادعوه مخلصين له الدين** ﴾ أى ادعوه أو اعبدوه حال كونكم مخلصين الدعاء أو العبادة له . وقيل : وحدوه ولا تشركوا به .

قوله : ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾ الكاف نعت مصدر محذوف . وقال الزجاج : هو متعلق بما قبله . والمعنى : كما أنشأكم فى ابتداء الخلق يعيدكم ، فيكون المقصود : الاحتجاج على منكرى البعث ، فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته . وقيل : كما أخرجكم من بطون أمهاتكم تعودون إليه كذلك ليس معكم شىء ، فيكون مثل قوله تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ [الأنعام : ٩٤] . وقيل : كما بدأكم من تراب تعودون إلى التراب ﴿ **فريقا هدى** ﴾ منتصب بفعل يفسره ما بعده . وقيل : منتصب على الحال من المضمر فى تعودون ، أى تعودون فريقين: سعداء وأشقياء ويقويه قراءة أُبى « فريقين فريقا هدى » ، والفريق الذين هداهم الله : هم المؤمنون بالله المتبعون لأنبيائه ، والفريق الذى حقت عليه الضلالة : هم الكفار [1] .

قوله : ﴿ **إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله** ﴾ تعليل لقوله : ﴿ **وفريقا حق عليهم الضلالة** ﴾ أى ذلك بسبب أنهم أطاعوا الشياطين فى معصية الله ، ومع هذا فإنهم

---

(١) قال القرطبى ٤ / ٢٦٢٤ : « وفى هذا ردٌ واضح على القدرية ومن تابعهم ، وقيل : ﴿ فريقاً ﴾ نصب بـ﴿ هدَى ﴾ ، و﴿ فريقاً ﴾ الثانى نصب بإضمار فعل أى: وأضل فريقاً . وأنشد سيبويه :

أصبحت لا أحمل السلاح ولا ... أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به ... وحدى وأخشى الرياح والمطرا

﴿ **يحسبون أنهم مهتدون** ﴾ ولم يعترفوا على أنفسهم بالضلالة ، وهذا أشد فى تمردهم وعنادهم.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة** ﴾[١] قال : كانوا يطوفون بالبيت عراة فنهوا عن ذلك [٢] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى مثله [٣] . وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب نحوه . وأخرج عبد ابن حميد عن قتادة فى الآية قال : والله ما أكرم الله عبدا قط على معصية ولا رضيها له ولا أمر بها ، ولكن رضى لكم بطاعته ونهاكم عن معصيته . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أمر ربى بالقسط** ﴾ قال : بالعدل ﴿ **وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد** ﴾ قال : إلى الكعبة حيث صليتم فى كنيسة أو غيرها ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾ قال : شقى وسعيد .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾ الآية قال : إن الله بدأ خلق بنى آدم مؤمناً وكافرا كما قال : ﴿ هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ [التغابن : ٢] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا [٤] . وأخرج ابن جرير ، عن جابر فى الآية قال : يبعثون على ما كانوا عليه : المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه [٥] . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه أنه ذكر القدرية فقال : قاتلهم الله أليس قد قال الله تعالى : ﴿ **كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى وفريقا حق عليهم الضلالة** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا فى الآية يقول : كما خلقناكم أول مرة كذلك تعودون .

﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)** ﴾ .

هذا خطاب لجميع بنى آدم وإن كان واردا على سبب خاص ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والزينة ما يتزين به الناس من الملبوس ، أمروا بالتزين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف . وقد استدلّ بالآية على وجوب ستر العورة فى الصلاة ، وإليه ذهب جمهور أهل العلم بل سترها واجب فى كل حال من الأحوال وإن كان الرجل خالياً كما دلت

(١) فى المخطوطة : « والذين إذا فعلوا فاحشة » . (٢ ، ٣) ابن جرير ٨/ ١٤.
(٤) المرجع السابق ٨/ ١١٥ ، ١١٦. (٥) المرجع السابق ٨/ ١١٦.

عليه الأحاديث الصحيحة [١] ، والكلام على العورة وما يجب ستره منها مفصل فى كتب الفروع .

قوله : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ أمر الله سبحانه عباده بالأكل والشرب ، ونهاهم عن الإسراف فلا زهد فى ترك مطعم ولا مشرب ، وتاركه بالمرة قاتل لنفسه ، وهو من أهل النار ، كما صح فى الأحاديث الصحيحة والمقلل منه على وجه يضعف به بدنه ، ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أو سعى على نفسه ، وعلى من يعول مخالفا لما أمر الله به وأرشد إليه ، والمسرف فى إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه والتبذير مخالف لما شرعه الله لعباده واقع فى النهى القرآنى ، وهكذا من حرم حلالاً أو حلل حراما فإنه يدخل فى المسرفين ويخرج عن المقتصدين ، ومن الإسراف : الأكل لا لحاجة وفى وقت شبع .

قوله : ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده** ﴾ الزينة : ما يتزين به الإنسان من ملبوس أو غيره من الأشياء المباحة كالمعادن التى لم يرد نهى عن التزين بها والجواهر ونحوها . وقيل : الملبوس خاصة ولا وجه له ، بل هو من جملة ما تشتمله الآية ، فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة إذا لم يكن مما حرمه الله ، ولا حرج على من تزين بشىء من الأشياء التى لها مدخل فى الزينة ولم يمنع منها مانع شرعى ، ومن زعم أن ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطاً بيناً . وقد قدمنا فى هذا ما يكفى ، وهكذا الطيبات من المطاعم والمشارب ونحوهما مما يأكله الناس فإنه لا زهد فى ترك الطيب منها ، ولهذا جاءت الآية هذه معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرّم ذلك على نفسه أوحرمه على غيره . وما أحسن ما قال ابن جرير الطبرى : ولقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود السبيل إليه من حله ، ومن أكل البقول والعدس ، واختاره على خبز البر ، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة . وقد قدمنا نقل مثل هذا عنه مطولا [٢] . والطيبات المستلذات من الطعام . وقيل : هو اسم عام لما طاب كسباً ومطعما .

قوله : ﴿ **قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا** ﴾ أى أنها لهم بالأصالة وإن شاركهم الكفار فيها ماداموا فى الحياة ﴿**خالصة يوم القيامة** ﴾ أى مختصة بهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها الكفار . وقرأ نافع : « خالصة » بالرفع ، وهى قراءة ابن عباس على أنها خبر بعد خبر ، وقرأ الباقون بالنصب على الحال . قال أبو على الفارسى : ولا يجوز الوقف على الدنيا لأن ما بعدها متعلق بقوله : ﴿ **للذين آمنوا** ﴾ حال منه بتقدير : قل هى ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا فى حال

---

(١) البيهقى ٢/ ٢٢٥ وقال : « أشار إليه البخارى فى الترجمة وهو عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده » وقال فيه : قال : أرأيت يا رسول الله إن كان أحدنا خاليا قال : « الله أحق أن يستحيا منه » .

(٢) يذكر أن الرشيد كان له طبيب نصرانى حاذق فقال لعلى بن الحسين : ليس فى كتابكم من علم الطب شىء ، والعلم علمان : علم الأديان ، وعلم الأبدان . فقال له على : قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابنا . فقال له : وما هى ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ [الأعراف : ٣١] .

خلوصها لهم يوم القيامة . قوله : ﴿ **كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ أى مثل هذا التفصيل نفصل الآيات المشتملة على التحليل والتحريم .

قوله ﴿ **قل إنما حرم ربى الفواحش** ﴾ جمع فاحشة . وقد تقدم تفسيرها ﴿ **ما ظهر منها وما بطن** ﴾ أى ما أعلن منها وما أسر . وقيل : هى خاصة بفواحش الزنا ولا وجه لذلك ، والإثم يتناول كل معصية يتسبب عنها الإثم ، وقيل : هى الخمر خاصة ، ومنه قول الشاعر :

شَرِبتُ الإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِى كَذَاكَ الإِثْمُ تَذْهَبُ بالعُقُولِ

ومثله قول الآخر :

يشرب الإثم بالصواع جهارا [1]

وقد أنكر جماعة من أهل العلم على من جعل الإثم خاصاً بالخمر . قال النحاس : فأما أن يكون الإثم الخمر فلا يعرف ذلك ، وحقيقته أنه جميع المعاصى ، كما قال الشاعر :

إنى وجدتُ الأمرَ أرشَدَهُ تَقْوَى الإله وشرُّه الإِثْمُ

قال الفراء : الإثم مادون الحق والاستطالة على الناس . انتهى . وليس فى إطلاق الإثم على الخمر ما يدل على اختصاصه به ، فهو أحد المعاصى التى يصدق عليها . قال فى الصحاح : وقد يسمى الخمر إثما ، وأنشد :

شربت الإثم . . . . . .

البيت . وكذا أنشده الهروى قبله فى غريبه . قوله : ﴿ **والبغى بغير الحق** ﴾ أى الظلم المجاوز للحد ، وأفرده بالذكر بعد دخوله فيما قبله لكونه ذنبا عظيما كقوله : ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ [النحل : ٩٠] ﴿ **وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا** ﴾ أى وأن تجعلوا لله شريكاً لم ينزل عليكم به حجة . والمراد : التهكم بالمشركين ، لأن الله لا ينزل برهاناً بأن يكون غيره شريكاً له ﴿ **وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ بحقيقته وأن الله قاله ، وهذا مثل ما كانوا ينسبون إلى الله سبحانه من التحليلات والتحريمات التى لم يأذن بها .

وقد أخرج ابن أبى شيبة ومسلم والنسائى وغيرهم عن ابن عباس ؛ أن النساء كُنَّ يَطُفْن عراة إلا أن تجعل المرأة على فرجها خرقة وتقول :

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلا أُحِلُّهُ

---

(١) الصواع : إناء يشرب فيه ، وعجز البيت :

وترى المسك بيننا مستعارا

ومعنى مستعار : متداول ، أى نتعاوره بأيدينا ، نشتمُّه .

فنزلت ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ [١] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى الآية قال : كان الرجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة . والزينة : اللباس وما يوارى السوأة وما سوى ذلك من جيد البرد والمتاع [٢] . وأخرج ابن عدى وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «خذوا زينة الصلاة» ، قالوا : وما زينة الصلاة؟ قال : « البسوا نعالكم فصلوا فيها » . وأخرج العقيلى وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أنس عن النبى ﷺ فى قول الله : ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ قال : « صلوا فى نعالكم » . والأحاديث فى مشروعية الصلاة فى النعل كثيرة جدا ، وأما كون ذلك هو تفسير الآية كما روى فى هذين الحديثين فلا أدرى كيف إسنادهما ، وقد ورد النهى عن أن يصلى الرجل فى الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شىء ، وهو فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة [٣] .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : أحلَّ الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة [٤] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **إنه لا يحب المسرفين** ﴾ قال : فى الطعام والشراب . وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن ماجة وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال : « كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا فى غير مخيلة ولا سرف ، فإن الله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » [٥] .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : كانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون ، فأنزل الله : ﴿ **قل مَنْ حرَّم زينة الله** ﴾ فأمروا بالثياب أن يلبسوها ﴿ **قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** ﴾ قال : ينتفعون بها فى الدنيا لا يتبعهم فيها مأثم يوم القيامة [٦] . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الضحاك ﴿ **قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا** ﴾ قال : المشركون يشاركون المؤمنين فى زهرة الدنيا وهى خالصة يوم القيامة للمؤمنين دون المشركين . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **والطيبات من الرزق** ﴾ قال : الودك [٧] واللحم والسمن . وأخرج ابن جرير وابن

---

(١) أخرجه ابن جرير ٨/ ١١٩ ، ١٢٠ ومسلم فى التفسير (٣٠٢٨/ ٢٥) والنسائى فى التفسير (٢٠٢) ووهم الحاكم فاستدركه ٢/ ٣١٩ ، ٣٢٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والحديث كما رأيت موجود فى صحيح مسلم بنفس السند والمتن .

(٢) فى المخطوطة : « من جيد البر والمتاع » والصحيح ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

(٣) البخارى فى الصلاة (٣٥٩ ، ٣٦٠) ومسلم فى الصلاة (٥١٦/ ٢٧٧) والبيهقى ٢/ ٢٢٤ .

(٤) ابن جرير ٨/ ١٢٠ والبيهقى فى الشعب (٦٥٧٢) ط : الكتب العلمية .

(٥) الترمذى فى الأدب (٢٨١٩) وقال : « حديث حسن » والنسائى ٥/ ٧٩ وابن ماجه فى اللباس (٣٦٠٥) والبيهقى فى الشعب (٦١٩٦) ط : الكتب العلمية .

(٦) الطبرانى (١٢٣٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٦ : « فيه يحيى الحمانى وهو ضعيف » .

(٧) الودك : دسم اللحم ودهنه الذى يستخرج منه .

المنذر وابن أبى حاتم عنه قال: كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء أحلها الله من الثياب وغيرها . وهو قول الله : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً ﴾ [يونس : ٥٩] . وهو [١] هذا ، فأنزل الله : ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا** ﴾ يعنى : شارك المسلمون الكفار فى الطيبات فى الحياة الدنيا ، فأكلوا من طيبات طعامها ، ولبسوا من جياد ثيابها،ونكحوا من صالحى نسائها . ثم يخلص الله الطيبات فى الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شىء [٢] .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ، قال : ما ظهر منها : العرية . وما بطن : الزنا . وكانوا يطوفون بالبيت عراة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى الآية ، قال : ما ظهر منها طواف الجاهلية عراة. وما بطن : الزنا . وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن السدى فى قوله: ﴿ **والإثم** ﴾ قال : المعصية ﴿ **والبغى** ﴾ قال : أن يبغى على الناس بغير حق .

﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)** ﴾ .

قوله : ﴿ **ولكل أمة أجل** ﴾ أى وقت معين محدود ينزل فيه عذابهم من الله أويميتهم فيه ، ويجوز أن تحمل الآية على ما هو أعم من الأمرين جميعاً . والضمير فى ﴿ **أجلهم** ﴾ لكل أمة، أى إذا جاء أجل كل أمة من الأمم كان ما قدره عليهم واقعاً فى ذلك الأجل لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون عنه ساعة . قال أبو السعود ما معناه : إن قوله : ﴿ **ولا يستقدمون** ﴾ عطف على ﴿ **يستأخرون** ﴾ لكن « لا » لبيان انتفاء التقدم مع إمكانه فى نفسه كالتأخر ، بل للمبالغة فى انتفاء التأخر بنظمه فى سلك المستحيل عقلاً . وقيل : المراد بالمجىء : الدنو بحيث يمكن التقدم فى الجملة ، كمجىء اليوم الذى ضرب لهلاكهم ساعة منه وليس بذاك . وقرأ ابن

---

(١) فى المخطوطة : « وهذا هذا » ، والصواب ما أثبتناه من ابن جرير ٨/ ١٢١ .

(٢) ابن جرير ٨/ ١٢١ .

سيرين : «آجالهم » بالجمع . وخص الساعة بالذكر لأنها أقل أسماء الأوقات ، وقد استدل بالآية الجمهور على أن كل ميت يموت بأجله وإن كان موته بالقتل أو التردى أو نحو ذلك . والبحث فى ذلك طويل جداً ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ [الحجر : ٥ ، المؤمنون : ٤٣] .

قوله : ﴿ **يا بنى آدم إما يأتينكم** ... ﴾ الآية : « إن » هى الشرطية ، و « ما » زائدة للتوكيد ، ولهذا لزمت الفعل النون المؤكدة . والقصص قد تقدم معناه ، والمعنى : إن أتاكم رسل كائنون منكم يخبرونكم بأحكامى ويبينونها لكم ﴿ **فمن اتقى وأصلح** ﴾ أى اتقى معاصى الله وأصلح حال نفسه باتباع الرسل وإجابتهم ﴿ **فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ وهذه الجملة الشرطية هى الجواب للشرط الأول . وقيل : جوابه ما دل عليه الكلام ، أى إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فأطيعوهم . والأول أولى ، وبه قال الزجاج . ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا** ﴾ التى يقصها عليهم رسلنا ﴿ **واستكبروا** ﴾ عن إجابتها والعمل بما فيها ﴿ **فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ لا يخرجون منها بسبب كفرهم بتكذيب الآيات والرسل . ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته** ﴾ أى لا أحد أظلم منه . وقد تقدم تحقيقه . والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المكذبين المستكبرين ﴿ **ينالهم نصيبهم من الكتاب** ﴾ أى مما كتب الله لهم من خير وشر . وقيل : ينالهم من العذاب بقدر كفرهم . وقيل : الكتاب هنا القرآن لأن عذاب الكفار مذكور فيه . وقيل : هو اللوح المحفوظ .

قوله : ﴿ **حتى إذا جاءتهم رسلنا** ﴾ أى إلى غاية هى هذه . وجملة : ﴿ **يتوفونهم** ﴾ فى محل نصب على الحال . والمراد بالرسل هنا : ملك الموت وأعوانه . وقيل : ﴿ **حتى** ﴾ هنا هى التى للابتداء . ولكن لا يخفى أن كونها لابتداء الكلام بعدها لا ينافى كونها غاية لما قبلها . والاستفهام فى قوله : ﴿ **أين ما كنتم تدعون من دون الله** ﴾ للتقريع والتوبيخ ، أى أين الآلهة التى كنتم تدعونها من دون الله وتعبدونها ؟ وجملة : ﴿ **قالوا ضلوا عنا** ﴾ استئنافية بتقدير سؤال وقعت هى جواباً عنه ، أى ذهبوا عنا وغابوا فلا ندرى أين هم ؟ ﴿ **وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** ﴾ أى أقروا بالكفر على أنفسهم .

قوله : ﴿ **قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم** ﴾ القائل : هو الله عز وجل . و « فى » بمعنى : « مع » ، أى مع أمم . وقيل : هى على بابها . والمعنى : ادخلوا فى جملتهم . وقيل : هو قول مالك خازن النار . والمراد بالأمم التى قد خلت من قبلهم من الجن والإنس : هم الكفار من الطائفتين من الأمم الماضية ﴿ **كلما دخلت أمة** ﴾ من الأمم الماضية ﴿ **لعنت أختها** ﴾ أى الأمة الأخرى التى سبقتها إلى النار ، وجعلت أختاً لها باعتبار الدين ، أو الضلالة ، أو الكون فى النار . ﴿ **حتى إذا اداركوا فيها** ﴾ أى تداركوا . والتدارك : التلاحق والتتابع والاجتماع فى النار . وقرأ الأعمش : « تداركوا » على الأصل من دون إدغام . وقرأ ابن مسعود : «حتى إذا ادركوا » أى أدرك بعضهم بعضا . وروى عن أبى عمرو أنه قرأ بقطع ألف

الوصل. فكأنه سكت على « إذا » للتذكر. فلما طال سكوته ، قطع ألف الوصل كالمبتدئ بها . وهو مثل قول الشاعر :

يا نفس صبراً كل حى لاقى وكل اثنين إلى افتــراق

﴿ **قالت أخراهم لأولاهم** ﴾ أى أخراهم دخولاً لأولاهم دخولاً . وقيل : ﴿ **أخراهم** ﴾ أى سفلتهم وأتباعهم ﴿ **لأولاهم** ﴾ لرؤسائهم وكبارهم . وهذا أولى[1] كما يدل عليه: ﴿ **ربنا هؤلاء أضلونا** ﴾ فإن المضلين هم الرؤساء . ويجوز أن يراد أنهم أضلوهم لأنهم تبعوهم واقتدوا بدينهم من بعدهم ، فيصح الوجه الأول ، لأن أخراهم تبعت دين أولاهم.

قوله : ﴿ **فآتهم عذابا ضعفا من النار** ﴾ الضعف : الزائد على مثله مرة أو مرات . ومثله قوله تعالى: ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾ [الأحزاب : ٦٨]. وقيل : الضعف هنا : الأفاعى والحيات . وجملة: ﴿ **قال لكل ضعف** ﴾ استئنافية جوابا لسؤال مقدر ، والمعنى : لكل طائفة منكم ضعف من العذاب ، أى الطائفة الأولى والطائفة الأخرى ﴿ **ولكن لا تعلمون** ﴾ بما لكل نوع من العذاب . ﴿ **وقالت أولاهم لأخراهم** ﴾ أى قال السابقون للاحقين ، أو المَتْبُوعُونَ للتابعين : ﴿ **فما كان لكم علينا من فضل** ﴾ بل نحن سواء فى الكفر بالله واستحقاق عذابه . ﴿ **فذوقوا** ﴾ عذاب النار كما ذقناه ﴿ **بما كنتم تكسبون** ﴾ من معاصى الله والكفر به .

وقد أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب وابن النجار عن أبى الدرداء قال : تذاكرنا زيادة العمر عند رسول الله ﷺ فقلنا : من وصل رحمه أنسئ فى أجله ، فقال : « إنه ليس بزائد فى عمره ، قال الله تعالى : ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ ولكن الرجل يكون له الذرية الصالحة ، فيدعون الله من بعده ، فيبلغه ذلك ، فذلك الذى ينسأ فى أجله » . وفى لفظ : « فيلحقه دعاؤهم فى قبره ، فذلك زيادة العمر » [2] . وهذا الحديث ينبغى أن يكشف عن إسناده ، ففيه نكارة ، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة فى الصحيحين وغيرهما بخلافه [3]. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن أبى عروبة ، قال : كان الحسن يقول : ما أحمق هؤلاء القوم يقولون : اللهم أطل عمره . والله يقــول : ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طريق الزهرى عن ابن المسيب ، قال : لما طعن عمر ، قال كعب :

---

(١) فى المطبوعة : « أول » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) الطبرانى فى الصغير والأوسط ، وقال الهيثمى فى المجمع ٨/ ١٥٦ : « ليس فى إسناده متروك ، ولكنهم ضعفوا » .

(٣) هناك أحاديث كثيرة فى هذا الشأن . راجع : البخارى فى البيوع (٢٠٦٧) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٥٧ / ٢٠، ٢١) وأبا داود فى الزكاة (١٦٩٣) ، كلهم عن أنس رضى الله عنه .

لو دعا الله ، لأخر فى أجله ، فقيل له : أليس قد قال الله : ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ فقال كعب : وقد قال الله : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ﴾ [فاطر : ١١] .

وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب** ﴾ قال : ما قدر لهم من خير وشر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : من الأعمال من عمل خيراً جزى به ، ومن عمل شراً جزى به . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عنه أيضاً ، قال : نصيبهم من الشقاوة والسعادة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية ، قال : ما سبق من الكتاب . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب فى الآية ، قال : رزقه وأجله وعمله . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى صالح فى الآية ، قال : من العذاب . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **قد خلت** ﴾ قال : قد مضت . ﴿ **كلما دخلت أمة لعنت أختها** ﴾ قال : كلما دخلت أهل ملة ، لعنوا أصحابهم على ذلك ، يلعن المشركون المشركين ، واليهود اليهود ، والنصارى النصارى ، والصابئون الصابئين ، والمجوس المجوس ، تلعن الآخرة الأولى . ﴿ **حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم** ﴾ الذين كانوا فى آخر الزمان ﴿ **لأولاهم** ﴾ الذين شرعوا لهم ذلك الدين : ﴿ **ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف** ﴾ الأولى والآخرة ﴿ **وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل** ﴾ وقد ضللتم كما ضللنا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **عذاباً ضعفاً** ﴾ قال : مضاعفاً . ﴿ **قال لكل ضعف** ﴾ قال : مضاعف . وفى قوله : ﴿ **فما كان لكم علينا من فضل** ﴾ قال : تخفيف من العذاب .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)** ﴾ .

قوله : ﴿ **لا تفتح لهم أبواب السماء** ﴾ قرأ ابن عباس وحمزة والكسائى بفتح التحتية ، لكون تأنيث الجمع غير حقيقى ، فجاز تذكيره . وقرأ الباقون بالفوقية على التأنيث . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائى : « تفتح » بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد ، والمعنى : أنها

لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا . وقد دل على هذا المعنى وأنه المراد من الآية ما جاء فى الأحاديث الصحيحة أن الملائكة إذا انتهوا بروح الكافر إلى السماء الدنيا يستفتحون فلا تفتح لهم أبواب السماء [١] . وقيل : لا تفتح أبواب السماء لأدعيتهم إذا دعوا ، قاله مجاهد والنخعى . وقيل : لأعمالهم ، أى لا تقبل بل ترد عليهم ، فيضرب بها فى وجوههم [٢] . وقيل : المعنى : أنها لا تفتح لهم أبواب الجنة يدخلونها ، لأن الجنة فى السماء ، فيكون على هذا القول العطف لجملة : ﴿ **ولا يدخلون الجنة** ﴾ من عطف التفسير ، ولا مانع من حمل الآية على ما يعم الأرواح والدعاء والأعمال ، ولا ينافيه ورود ما ورد من أنها لا تفتح أبواب السماء لواحد من هذه ، فإن ذلك لا يدل على فتحها لغيره مما يدخل تحت عموم الآية .

قوله : ﴿ **ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط** ﴾ أى أن هؤلاء الكفار المكذبين المستكبرين لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال . ولهذا علقه بالمستحيل ، فقال : ﴿ **حتى يلج الجمل فى سم الخياط** ﴾ وهو لا يلج أبداً ، وخص الجمل بالذكر لكونه يضرب به المثل فى كبر الذات ، وخص سم الخياط ، وهو ثقب الإبرة بالذكر ، لكونه غاية فى الضيق . والجمل : الذكر من الإبل ، والجمع : جمال وأجمال وجمالات . وإنما يسمى جملاً إذا أربع . وقرأ ابن عباس : « الجُمَّل » بضم الجيم وفتح الميم مشددة . وهو حبل السفينة الذى يقال له : القَلْس . وهو حبال مجموعة ، قاله : ثعلب . وقيل : الحبل الغليظ من القنب . وقيل : الحبل الذى يصعد به فى النخل . وقرأ سعيد بن جبير : « الجُمَل » بضم الجيم وتخفيف الميم . وهو القَلْس أيضاً . وقرأ أبو السماك : « الجُمْل » بضم الجيم ، وسكون الميم . وقرئ أيضاً بضمهما . وقرأ عبد الله بن مسعود : « حتى يلج الجمل الأصغر فى سم الخياط » . وقرئ : « فى سم » بالحركات الثلاث . والسم : كل ثقب لطيف . ومنه ثقب الإبرة . والخياط ما يخاط به يقال : خياط ومخيط . ﴿ **وكذلك نجزى المجرمين** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى المجرمين ، أى جنس من أجرم . وقد تقدم تحقيقه . والمهاد : الفراش ، والغواش : جمع غاشية ، أى نيران تغشاهم من فوقهم كالأغطية . ﴿ **وكذلك نجزى الظالمين** ﴾ أى مثل ذلك الجزاء العظيم نجزى من اتصف بصفة الظلم .

قوله : ﴿ **لا نكلف نفساً إلا وسعها** ﴾ أى لا نكلف العباد إلا بما يدخل تحت وسعهم ويقدرون عليه . ولا نكلفهم ما لا يدخل تحت وسعهم . وهذه الجملة معترضة بين المبتدأ والخبر .

---

(١) من ذلك حديث البراء بن عازب . أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر ، وأنه يصعد بها إلى السماء قال : «فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث . . . ؟ فيقولون : فلان بأقبح أسمائه التى كان يدعى بها فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون له فلا يفتح له» ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط** ﴾ وهو عند أحمد ٤/ ٢٨٧ ، ٢٨٨ وأبى داود فى الجنائز (٣٢١٢) والنسائى ٤/ ٧٨ وابن ماجة فى الجنائز (١٥٤٨ ، ١٥٤٩) .

(٢) قال تعالى : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ [فاطر : ١٠] .

ومثله: ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ [الطلاق: ٧] وقرأ الأعمش : « تكلف » بالفوقية ، ورفع « نفس » . والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصول ، وخبره ﴿ **أصحاب الجنة** ﴾ والجملة خبر الموصول . وجملة: ﴿ **هم فيها خالدون** ﴾ [١] فى محل نصب على الحال.

قوله : ﴿ **ونزعنا ما فى صدورهم من غل** ﴾ هذا من جملة ما ينعم الله به على أهل الجنة أن ينزع الله ما فى قلوبهم من الغل على بعضهم بعضاً ، حتى تصفو قلوبهم ، ويود بعضهم بعضاً ، فإن الغل لو بقى فى صدورهم كما كان فى الدنيا ، لكان فى ذلك تنغيص لنعيم الجنة لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر . والغل : الحقد الكامن فى الصدور . وقيل : نزع الغل فى الجنة أن لا يحسد بعضهم بعضاً فى تفاضل المنازل [٢] . ﴿ **وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا** ﴾ أى لهذا الجزاء العظيم ، وهو الخلود فى الجنة ، ونزع الغل من صدورهم ، والهداية هذه ﴿ **لهذا** ﴾ هى الهداية لسببه من الإيمان والعمل الصالح فى الدنيا . ﴿ **وما كنا لنهتدى** ﴾ قرأ ابن عامر بإسقاط الواو ، وقرأ الباقون بإثباتها ، وما كنا نطيق أن نهتدى بهذا الأمر لولا هداية الله لنا ، والجملة مستأنفة أو حالية ، وجواب ﴿ **لولا** ﴾ محذوف يدل عليه ما قبله ، أى لولا هداية الله لنا ما كنا لنهتدى .

قوله : ﴿ **لقد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾ اللام لام القسم ، قالوا هذا لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الجزاء العظيم اغتباطا بما صاروا فيه بسبب ما تقدم منهم من تصديق الرسل وظهور صدق ما أخبروهم به فى الدنيا من أن جزاء الإيمان والعمل الصالح هو هذا الذى صاروا فيه .

قوله : ﴿ **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ أى وقع النداء لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقيل لهم : تلكم الجنة أورثتموها ، أى ورثتم منازلها بعملكم . قال فى الكشاف : بسبب أعمالكم ، لا بالتفضل كما تقوله المبطلة . انتهى [٣] .

أقول : يا مسكين هذا قاله رسول الله ﷺ فيما صح عنه : « سددوا وقاربوا ، واعلموا أنه لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله». قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته » [٤] . والتصريح بسبب لا يستلزم نفى سبب آخر . ولولا التفضل من الله

---

(١) فى المطبوعة : « وهم فيها خالدون » .

(٢) وقال القرطبى فى التفسير ٤/ ٢٦٤٤ وقد قيل : إن ذلك يكون عن شراب الجنة ولهذا قال : ﴿ **وسقاهم ربهم شراباً طهورا** ﴾ [الإنسان: ٢١]، أى يطهر الأوضار من الصدور .

(٣) تفسير الكشاف ٢/ ١٠٦ وفى الهامش : قوله : «كما تقول المبطلة ». يريد أهل السنة القائلين : دخولها بالفضل واقتسامها بالأعمال كما فى الحديث .

(٤) الحديث عن أبى هريرة أخرجه البخارى فى المرضى (٥٦٧٣) وفى الرقاق (٦٤٦٣) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٨١٦ / ٧١ ــ ٧٦) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٠١) وأحمد ٢/ ٢٥٦ ، ٣١٩ ، ٤٦٦ . وعن عائشة أخرجه البخارى فى الرقاق (٦٤٦٧) ومسلم فى السابق (٢٨١٨ / ٧٨) . وعن جابر أخرجه مسلم فى السابق (٢٨١٧ / ٧٧) والدارمى ٢/ ٣٠٥ .

سبحانه وتعالى على العامل بإقداره على العمل ، لم يكن عمل أصلاً، فلو لم يكن التفضل إلا بهذا الإقدار ، لكان القائلون به محقة لا مبطلة ، وفى التنزيل : ﴿ ذلك الفضل من الله ﴾ [النساء : ٧٠] وفيه: ﴿فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ﴾ [النساء : ١٧٥] .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لا تفتح لهم أبواب السماء** ﴾ يعنى : لا يصعد إلى الله من عملهم شىء . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : لا تفتح لهم لعمل ولا لدعاء. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا فى الآية ، قال: لا تفتح لأرواحهم، وهى تفتح لأرواح المؤمنين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : ﴿**حتى يلج الجمل** ﴾ قال : ذو القوائم . ﴿ **فى سم الخياط** ﴾ قال: فى خرت الإبرة [١] . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والطبرانى فى الكبير ، وأبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله : ﴿**حتى يلج الجمل** ﴾ قال : زوج الناقة . وأخرج أبوعبيد وابن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ : «الجُمّل » بضم الجيم وتشديد الميم. وقال : هو الحبل الغليظ ، أو هو من حبال السفن . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عمر ؛ أنه سئل عن سم الخياط ، قال : الجمل فى ثقب الإبرة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : المهاد : الفراش ، والغواش : اللحف . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب مثله .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن على بن أبى طالب ، قال: فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية : ﴿ **ونزعنا ما فى صدورهم من غل** ﴾ [٢] . وأخرج النسائى وابن جرير وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل النار يرى منزله من الجنة يقول : لو هدانا الله . فيكون حسرة عليهم . وكل أهل الجنة يرى منزله من النار ، فيقول : لولا أن هدانا الله . فهذا شكرهم » [٣] . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد والدارمى ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى سعيد وأبى هريرة عن النبى ﷺ : ﴿ **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ قال : « نودوا أن صحوا فلا تسقموا ، وانعموا فلا تبأسوا، وشبوا فلا تهرموا ، واخلدوا فلا تموتوا » [٤] .

---

(١) (خرت الإبرة) بضم الخاء أو فتحها وسكون الراء : هو ثقبها .

(٢) ابن جرير ٨/ ١٣٣ .

(٣) النسائى فى التفسير (٤٧٤) وأحمد ٢/ ٥١٢ وصححه الحاكم ٢/ ٤٣٥ ، ٤٣٦ ووافقه الذهبى . وأخرجه ابن جرير ٨/ ١٣٤ ولكن فى النسخة المطبوعة « عن أبى سعيد » بدلا من « عن أبى هريرة » .

(٤) أحمد ٣/ ٩٥ والدارمى ٢/ ٣٣٤ ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٣٧/ ٢٢) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٤٦) والنسائى فى التفسير (٢٠٤) وابن جرير ٨/ ١٣٤ .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) ﴾ .

مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار لم تكن لقصد الإخبار لهم بما نادوهم به ، بل لقصد تبكيتهم وإيقاع الحسرة فى قلوبهم. و﴿ **أن قد وجدنا** ﴾ هو نفس النداء ، أى إنا قد وصلنا إلى ما وعدنا الله به من النعيم ، فهل وصلتم إلى ما وعدكم الله به من العذاب الأليم ؟ والاستفهام هو للتقريع والتوبيخ . وحذف مفعول وعد الثانى لكون الوعد لم يكن لهم بخصوصهم ، بل لكل الناس كالبعث والحساب والعقاب. وقيل: حذف لإسقاط الكفار عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد . ﴿ **قالوا نعم** ﴾ أى وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً . وقرأ الأعمش والكسائى : « نعم » بكسر العين . قال مكى : من قال : « نعم » بكسر العين ، فكأنه أراد أن يفرق بين نعم التى جواب وبين نعم التى هى اسم للبقر والغنم والإبل [1] . والمؤذن المنادى ، أى فنادى مناد بينهم ، أى بين الفريقين ؛ قيل : هو من الملائكة . ﴿ **أن لعنة الله على الظالمين** ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى والبَزِّى بتشديد « أنّ » وهو الأصل . وقرأ الباقون بالتخفيف على أنها المخففة من الثقيلة أو المفسرة ، وقرأ الأعمش بكسر همزة « إن » على إضمار القول ، وجملة : ﴿ **الذين يصدون عن سبيل الله** ﴾ صفة للظالمين ، ويجوز الرفع والنصب على إضمارهم، أو أعنى . والصد : المنع ، أى يمنعون الناس عن سلوك سبيل الحق . ﴿ **ويبغونها عوجاً** ﴾ أى يطلبون اعوجاجها ، أى : ينفرون الناس عنها ويقدحون فى استقامتها بقولهم : إنها غير حق، وإن الحق ما هم فيه ، والعوج بالكسر فى المعانى والأعيان ، مالم يكن منتصباً ، وبالفتح ما كان فى المنتصب كالرمح ، وجملة ﴿ **وهم بالآخرة كافرون** ﴾ فى محل نصب على الحال . قوله : ﴿ **وبينهما حجاب** ﴾ أى بين الفريقين . أوبين الجنة والنار . والحجاب : هو السور

---

(١) روى عن بعض الكوفيين أنه قرأ : « قالوا نعِمْ » بكسر العين وقد أنشد بيتا لبنى كلب :

نعِمْ إذا قالها منه محققة ولا يخيب عسى منه ولا قَمِنُ

بكسر عين « نعِم » .

المذكور فى قوله تعالى : ﴿ فضرب بينهم بسور ﴾ [الحديد : ١٣].

قوله : ﴿ **وعلى الأعراف رجال** ﴾ ، الأعراف : جمع عرف ، وهى شرفات السور المضروب بينهم . ومنه عرف الفرس ، وعرف الديك ، والأعراف فى اللغة : المكان المرتفع [١] . وهذا الكلام خارج مخرج المدح كما فى قوله : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ [النور : ٣٧] .

وقد اختلف العلماء فى أصحاب الأعراف من هم ؟ فقيل : هم الشهداء ، ذكره القشيرى وشرحبيل بن سعد . وقيل : هم فضلاء المؤمنين ، فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس ، ذكره مجاهد . وقيل : هم قوم أنبياء ، ذكره الزجاج . وقيل : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، قاله ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وابن عباس والشعبى والضحاك وسعيد بن جبير . وقيل : هم العباس وحمزة وعلى وجعفر الطيار ، يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ، ومبغضيهم بسوادها ، حكى ذلك عن ابن عباس . وقيل : هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم ، وهم فى كل أمة ، واختار هذا القول النحاس . وقيل : هم أولاد الزنا ، روى ذلك عن ابن عباس . وقيل : هم ملائكة موكلون بهذا السور يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار ، ذكره أبو مِجْلَز .

وجملة : ﴿ **يعرفون كلا بسيماهم** ﴾ صفة لرجال . والسيما : العلامة ، أى يعرفون كلاً من أهل الجنة والنار بعلاماتهم كبياض الوجوه وسوادها ، أو مواضع الوضوء من المؤمنين ، أو علامة يجعلها الله لكل فريق [٢] فى ذلك الموقف ، يعرف رجال الأعراف بها السعداء من الأشقياء .

﴿ **ونادوا أصحاب الجنة** ﴾ أى نادى رجال الأعراف أصحاب الجنة حين رأوهم . ﴿ **أن سلام عليكم** ﴾ أى نادوهم بقولهم : سلام عليكم ، تحية لهم وإكراما وتبشيرا ، أو أخبروهم بسلامتهم من العذاب .

قوله : ﴿ **لم يدخلوها وهم يطمعون** ﴾ أى لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف ، والحال : أنهم يطمعون فى دخولها . وقيل : معنى ﴿ **يطمعون** ﴾ يعلمون أنهم يدخلونها ، وذلك معروف عند أهل اللغة ، أى طمع بمعنى : علم ، ذكره النحاس ، وهذا القول ، أعنى كونهم أهل الأعراف ، مروى عن جماعة منهم ابن عباس وابن مسعود . وقال أبو مجلز : هم أهل الجنة ، أى إن أهل الأعراف قالوا لهم : ﴿ **سلام عليكم** ﴾ حال كون أهل الجنة لم يدخلوها ، والحال أنهم يطمعون فى دخولها .

قوله : ﴿ **وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار** ﴾ أى إذا صرفت أبصار أهل الأعراف

---

(١) قال الشماخ بن ضرار :

وظلت بأعراف تغالى كأنها ... رماح نحاها وجهة الريح راكز

راجع ديوانه ٥٣ ومجاز القرآن لأبى عبيدة ١/ ٢١٥ .

(٢) فى المطبوعة : « فرق » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

تلقاء أصحاب النار ، أى جهة أصحاب ، وأصل معنى ﴿ **تلقاء** ﴾ : جهة اللقاء ، وهى جهة المقابلة ، ولم يأت مصدر على تفعال بكسر أوله غير مصدرين أحدهما هذا ، والآخر تبيان . وما عداهما بالفتح . ﴿ **قالوا** ﴾ أى قال أهل الأعراف : ﴿ **ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾ سألوا الله أن لا يجعلهم منهم . ﴿ **ونادى أصحاب الأعراف رجالاً** ﴾ من الكفار ﴿ **يعرفونهم بسيماهم** ﴾ أى بعلاماتهم ﴿ **قالوا** ﴾ : بدل من نادى ، ﴿ **ما أغنى عنكم جمعكم** ﴾ الذى كنتم تجمعون للصد عن سبيل الله . والاستفهام للتقريع والتوبيخ .

قوله : ﴿ **وما كنتم تستكبرون** ﴾ : « ما » مصدرية ، أى وما أغنى عنكم استكباركم . ﴿ **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة** ﴾ هذا من كلام أصحاب الأعراف ، أى قالوا للكفار مشيرين إلى المسلمين الذين صاروا إلى الجنة هذه المقالة . وقد كان الكفار يقسمون فى الدنيا عند رؤيتهم لضعفاء المسلمين بهذا القسم . وهذا تبكيت للكفار وتحسير لهم .

قوله : ﴿ **ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾ هذا تمام كلام أصحاب الأعراف ، أى قالوا للمسلمين : ادخلوا الجنة ، فقد انتفى عنكم الخوف والحزن بعد الدخول . وقرأ طلحة ابن مصرف : « ادخِلوا » بكسر الخاء .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا** ﴾ قال : من النعيم والكرامة . ﴿ **فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا** ﴾ قال : من الخزى والهوان والعذاب . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر ؛ أن النبى ﷺ لما وقف على قليب بدر ، تلا هذه الآية [1] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وبينهما حجاب** ﴾ قال : هو السور ، وهو الأعراف . وإنما سمى الأعراف لأن أصحابه يعرفون الناس . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن حذيفة قال : الأعراف : سور بين الجنة والنار . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى البعث والنشور عن ابن عباس قال : الأعراف هو الشىء المشرف . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عنه قال : الأعراف : سور له عرف كعرف الديك . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : الأعراف : جبال بين الجنة والنار ، فهم على أعرافها ، يقول : على ذراها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنها : تل بين الجنة والنار ، حبس عليه ناس من أهل الذنوب . وأخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن جرير ، قال : زعموا أنه الصراط . وأخرج ابن جرير عن حذيفة ، قال : أصحاب الأعراف : قوم كانت لهم أعمال أنجاهم الله بها من النار ، وهم آخر من يدخل الجنة ، قد عرفوا أهل الجنة وأهل النار . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود أنهم من استوت حسناتهم

---

(١) ابن أبى شيبة ١٤/ ٣٧٧ (١٨٥٥٢) ، وانظر : ابن إسحاق ٢/ ٢٠٤ والبخارى فى المغازى (٣٩٨٠) .

وسيئاتهم، يقفون على الصراط. وأخرج ابن جرير عن حذيفة نحوه . وكذا أخرج نحوه عنه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن جابر بن عبد الله نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير ، قال : سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف ؟ فقال: « هم آخر من يفصل بينهم من العباد ، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد ، قال : أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ، ولم تدخلوا الجنة ، فأنتم عتقائى ، فارعوا من الجنة حيث شئتم » . قال ابن كثير : وهذا مرسل حسن (١) . وأخرج البيهقى فى البعث عن حذيفة ، أراه قال : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الناس يوم القيامة، فيؤمر بأهل الجنة إلى الجنة، ويؤمر بأهل النار إلى النار . ثم يقال لأصحاب الأعراف : ما تنتظرون ؟ قالوا : ننتظر أمرك . فيقال لهم : إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها ، وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم ، فادخلوا بمغفرتى ورحمتى » . وأخرج سعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن عبد الرحمن المزنى ، قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف ؟ فقال: « هم قوم قتلوا فى سبيل الله فى معصية آبائهم ، فمنعهم من النار قتلهم فى سبيل الله ، ومنعهم من الجنة معصيتهم آباءهم » (٢) . وأخرج الطبرانى وابن مردويه بسند ضعيف عن أبى سعيد الخدرى ــ مرفوعاً ــ نحوه(٣) . وأخرج ابن مردويه والبيهقى فى البعث عن أبى هريرة ــ مرفوعاً ــ نحوه أيضاً. وأخرج الحارث بن أبى أسامة فى مسنده وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن مالك الهلالى عن أبيه ــ مرفوعاً ــ نحوه(٤). وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا نحوه. وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن رجل من مزينة ــ مرفوعاً ــ نحوه .

وأخرج أبو الشيخ عن أبى عبيدة بن محمد بن عمار ، أنه سئل عن قوله: ﴿ **لم يدخلوها وهم يطمعون** ﴾ قال : سلمت عليهم الملائكة وهم لم يدخلوها ، وهم يطمعون أن يدخلوها حين سلمت . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدى قال : أصحاب الأعراف يعرفون الناس بسيماهم ، أهل النار بسواد وجوههم ، وأهل الجنة ببياض وجوههم ، فإذا مروا بزمرة يذهب بهم إلى الجنة ، قالوا : سلام عليكم ، وإذا مروا بزمرة يذهب بها إلى النار ، قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين (٥) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **ونادى**

(١) ابن جرير ٨/ ١٣٩ وهو فى الدر المنثور للسيوطى ٣/ ٨٧ ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن كثير ٣/ ١٧٣ .

(٢) ابن جرير ٨/ ١٣٩ وعزاه ابن حجر فى المطالب العالية (٣٦٢٣) لأحمد بن منيع وعزاه الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٦ ، ٢٧ للطبرانى وقال : «فيه أبو معشر نجيح ، وهو ضعيف » وعزاه ابن حجر فى الإصابة ٢/ ٢٤٦ (٥٢٣١) للبغوى وابن مردويه وعبد بن حميد، كلهم من طريق أبى معشر نجيح بن عبد الرحمن.

(٣) أورده الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٦ وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه محمد بن مخلد الرعينى وهو ضعيف » .

(٤) ابن جرير ٨/ ١٣٨ وهذا الخبر ضعيف لما فيه من المجاهيل ، ولأن أبا معشر نفسه قد تكلموا فيه وضعفوه .

(٥) ابن جرير ٨/ ١٤٠ .

أصحاب الأعراف رجالاً ﴾ قال : فى النار . ﴿ يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ﴾، قال الله لأهل التكبر: ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ﴾ ؟ يعنى أصحاب الأعراف ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٥٤) ﴾ .

قوله : ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء ﴾ الإفاضة : التوسعة ، يقال : أفاض عليه نعمه . طلبوا منهم أن يواسوهم بشىء من الماء أو بشىء مما رزقهم الله من غيره من الأشربة أو الأطعمة [١] ، فأجابوا بقولهم: ﴿ إن الله حرمهما ﴾ أى الماء وما رزقهم الله من غيره ﴿ على الكافرين ﴾ فلا نواسيكم بشىء مما حرمه الله عليكم . وقيل : إن هذا النداء من أهل النار كان بعد دخول أهل الأعراف الجنة . وجملة : ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ﴾ فى محل جر صفة الكافرين . وقد تقدم تفسير اللهو واللعب والغرر .

قوله : ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ أى نتركهم فى النار ﴿ كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ « الكاف » نعت مصدر محذوف ، و « ما » مصدرية ، أى نسيانا كنسيانهم لقاء يومهم هذا .

قوله : ﴿ وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ معطوف على ما نسوا ، أى كما نسوا ، وكما كانوا بآياتنا يجحدون ، أى ينكرونها . واللام فى : ﴿ ولقد جئناهم ﴾ جواب القسم . والمراد بالكتاب : الجنس ؛ إن كان الضمير للكفار جميعاً ، وإن كان للمعاصرين للنبى ﷺ فالمراد بالكتاب : القرآن . والتفصيل : التبيين . و ﴿ على علم ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى

---

(١) يقول صاحب الكشاف ٢/ ١٠٨ : ﴿ أو مما رزقكم الله ﴾ من غيره من الأشربة لدخوله فى حكم الإفاضة ويجوز أن يراد : أو ألقوا علينا بما رزقكم الله من الطعام والفاكهة . كقوله :

علفتها تبناً وماء بارداً

أى علفتها تبناً وسقيتها ماءً بادراً .

عالمين حال كونه ﴿ **هدى** ﴾ للمؤمنين ﴿ **ورحمة** ﴾ لهم . قال الكسائى والفراء : ويجوز « هدى ورحمة » بالخفض على النعت لكتاب .

قوله : ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله** ﴾ بالهمز من آل ، وأهل المدينة يخفون الهمزة ،والنظر : الانتظار ، أى هل ينتظرون إلا ما وعدوا به فى الكتاب من العقاب الذى يؤول الأمر إليه . وقيل : تأويله : جزاؤه . وقيل : عاقبته ، والمعنى متقارب . و﴿ **يوم** ﴾ : ظرف لـ ﴿ **يقول** ﴾ أى يوم يأتى تأويله ، وهو يوم القيامة ﴿ **يقول الذين نسوه من قبل** ﴾ أى تركوه من قبل أن يأتى تأويله ﴿ **قد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾ الذى أرسلهم الله به إلينا ، ﴿ **فهل لنا من شفعاء** ﴾ استفهام منهم ، ومعناه : التمنى ، ﴿ **فيشفعوا لنا** ﴾ منصوب لكونه جواباً للاستفهام .

قوله : ﴿ **أو نرد** ﴾ ، قال الفراء : المعنى أو هل نرد ﴿ **فنعمل غير الذى كنا نعمل** ﴾ . وقال الزجاج : ﴿ **نرد** ﴾ : عطف على المعنى ، أى هل يشفع لنا أحد ، أو نرد . وقرأ ابن أبى إسحاق : « أو نردَ فنعملَ » بنصبهما، كقول امرئ القيس:

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموتَ فنعذرا (١)

وقرأ الحسن برفعهما . ومعنى الآية : هل لنا شفعاء يخلصونا مما نحن فيه من العذاب ، أو هل نُردُّ إلى الدنيا فنعمل صالحاً غير ما كنا نعمل من المعاصى . ﴿ **قد خسروا أنفسهم** ﴾ أى لم ينتفعوا بها ، فكانت أنفسهم بلاء عليهم ومحنة لهم ، فكأنهم خسروها كما يخسر التاجر رأس ماله . وقيل : خسروا النعيم وحظ الأنفس . ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أى افتراؤهم أو الذى كانوا يفترونه ، والمعنى : أنه بطل كذبهم الذى كانوا يقولونه فى الدنيا ، أو غاب عنهم ما كانوا يجعلونه شريكاً لله ، فلم ينفعهم ولا حضر معهم .

قوله: ﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام** ﴾ هذا نوع من بديع صنع الله وجليل قدرته وتفرده بالإيجاد الذى يوجب على العباد توحيده وعبادته . وأصل ستة : سدسة ، أبدلت التاء من أحد السينين ، وأدغم فيها الدال . والدليل على هذا أنك تقول فى التصغير : سديسة ، وفى الجمع : أسداس . وتقول : جاء فلان سادساً . واليوم : من طلوع الشمس إلى غروبها . قيل : هذه الأيام من أيام الدنيا . وقيل : من أيام الآخرة، وهذه الأيام الست أولها الأحد وآخرها الجمعة . وهو سبحانه قادر على خلقها فى لحظة واحدة ، يقول لها:

---

(١) البيت فى ديوانه : ٨٩ ، ويقال : لما قصد امرؤ القيس أرض الروم مستنجداً بالقيصر على بنى أسد ورد ملك أبيه إليه ، صحب معه عمرو بن قميئة وكان من أقدم شعراء بكر ومن أقواهم عارضة ، قال : وهو مع امرئ القيس وقد بكت بنته فبكى لبكائها ، فقال امرؤ القيس : بكى صاحبى . ومات عمرو فى هذه الرحلة فقيل له : عمرو الضائع . وقبل هذا البيت :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

كونى ، فتكون . ولكنه أراد أن يعلم عباده الرفق والتأنى فى الأمور . أو خلقها فى ستة أيام لكون لكل شىء عنده أجلاً . وفى آية أخرى : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ [ق: ٣٨] .

قوله: ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ قد اختلف العلماء فى معنى هذا على أربعة عشر قولاً . وأحقها وأولاها بالصواب مذهب السلف الصالح : أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف ، بل على الوجه الذى يليق به ، مع تنزهه عما لا يجوز عليه ، والاستواء فى لغة العرب : هو العلو والاستقرار . قال الجوهرى : استوى على ظهر دابته ، أى استقر . واستوى إلى السماء ، أى صعد . واستوى ، أى استولى وظهر ، ومنه قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

واستوى الرجل ، أى انتهى شبابه . واستوى ، أى انتسق واعتدل . وحكى عن أبى عبيدة أن معنى ﴿ **استوى** ﴾ هنا : علا . ومنه قول الشاعر :

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة ... وقد حلق النجم اليمانى فاستوى

أى علا وارتفع . ﴿ **والعرش** ﴾ قال الجوهرى : هو سرير الملك . ويطلق العرش على معان أخر ، منها : عرش البيت : سقفه، وعرش البئر : طيها بالخشب . وعرش السماك : أربعة كواكب صغار . ويطلق على : المُلْك والسلطان والعز . ومنه قول زهير :

تداركتما عبسا وقد ثُلَّ عرشها ... وذبيان إذ ذلت بأقدامها النعل [1]

وقول الآخر :

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم ... بعتيبة بن الحارث [2] بن شهاب

وقول الآخر :

رأوا عرشى تثلم جانباه ... فلما أن تثلم أفردونى

وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن وإحاطته بالسموات والأرض وما بينهما وما عليهما ، وهو المراد هنا .

قوله : ﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾ أى يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطى بظلمته ضياءه . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى: « يغشى » بالتشديد . وقرأ الباقون بالتخفيف ، وهما لغتان . يقال : أغشى يغشى ، وغشى يغشى ، والتغشية فى الأصل : إلباس الشىء الشىء . ولم

---

(١) اللسان: ١٤/ ٤١٤ وفيه تداركتما الأحلاف بدلاً من (عبساً) . وثل عرشه : هدم ما هو عليه من قوام أمره، وقيل : وهى أمره وذهب عزه.

(٢) فى المطبوعة : « الحرث » ، وقد أثبتناه من المخطوطة بألف المد .

يذكر فى هذه الآية يغشى الليل بالنهار اكتفاء بأحد الأمرين عن الآخر كقوله تعالى : ﴿ **سرابيل تقيكم الحر** ﴾ (١) . وقرأ حميد بن قيس « يغشى الليل النهار » على إسناد الفعل إلى الليل ، ومحل هذه الجملة النصب على الحال . والتقدير : استوى على العرش مُغْشياً الليل والنهار . وهكذا قوله : ﴿ **يطلبه حثيثاً** ﴾ حال من الليل ، أى حال كون الليل طالباً للنهار طلباً حثيثاً لا يفتر عنه بحال . وحثيثاً صفة مصدر محذوف، أى يطلبه طلباً حثيثاً، أو حال من فاعل يطلب . والحث : الاستعجال والسرعة . يقال : ولى حثيثاً ، أى مسرعاً .

قوله : ﴿ **والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره** ﴾ قال الأخفش : معطوف على السموات . وقرأ ابن عامر برفعها كلها على الابتداء والخبر ، والمعنى على الأول : وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونها مسخرات ، وعلى الثانى الإخبار عن هذه بالتسخير .

قولـه : ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ : إخبار منه سبحانه لعباده بأنهما له ، والخلق : المخلوق . والأمر : كلامه ، وهـو « كن » فى قوله : ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [النحل : ٤٠] (٢) أو المراد بالأمر ما يأمر به على التفصيل ، أو التصرف فى مخلوقاته . ولما ذكر سبحانه فى هذه الآية خلق السموات والأرض فى ذلك الأمد اليسير ، ثم ذكر استواءه على عرشه وتسخير الشمس والقمر والنجوم ، وأن له الخلق والأمر ، قال : ﴿ **تبارك الله رب العالمين** ﴾ أى كثرت بركته واتسعت . ومنه : بورك الشىء ، وبورك فيه . كذا قال ابن عرفة . وقال الأزهرى فى ﴿ **تبارك** ﴾ معناه : تعالى وتعاظم . وقد تقدم تفسير ﴿ **رب العالمين** ﴾ فى الفاتحة مستكملاً .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة** ... ﴾ الآية ، قال : ينادى الرجل أخاه فيقول : يا أخى أغثنى ، فإنى قد احترقت، فأفض علىَّ من الماء . فيقال : أجبه ؟ فيقول : ﴿ **إن الله حرمهما على الكافرين** ﴾ (٣) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله** ﴾ قال : من الطعام . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى الآية قال : يستسقونهم ويستطعمونهم . وفى قوله : ﴿ **إن الله حرمهما على الكافرين** ﴾ قال : طعام الجنة وشرابها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ يقول : نتركهم فى النار كما تركوا لقاء يومهم هذا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فاليوم ننساهم** ﴾ قال : نؤخرهم .

---

(١) النحل : ٨١ ، وقوله تعالى ﴿ **بيدك الخير** ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

(٢) فى المخطوطة : « إنما أمرنا لشىء » .

(٣) ابن أبى شيبة (١٦٦٢٢) وابن جرير ٨/ ١٤٤ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله** ﴾ قال : عاقبته . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ، قال : ﴿ **يوم يأتى تأويله** ﴾ : جزاؤه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **يوم يأتى تأويله** ﴾ قال: يوم القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ما كانوا يفترون** ﴾ قال : ما كانوا يكذبون فى الدنيا .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **خلق السموات والأرض فى ستة أيام** ﴾ قال: كل يوم مقداره ألف سنة . وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة، قالت[1] فى قوله: ﴿ **استوى على العرش** ﴾ الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به إيمان ، والجحود كفر . وأخرج اللالكائى عن مالك أن رجلاً سأله: كيف استوى على العرش ؟ فقال : الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب الدعاء، والخطيب فى تاريخه عن الحسن بن على ، قال : أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية فى كل ليلة أن يعصمه الله من كل سلطان ظالم، ومن كل شيطان مريد ، ومن كل سبع ضارى، ومن كل لص عادى: آية الكرسى، وثلاث آيات من الأعراف: ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض ﴾ [الأعراف: ٥٤] وعشراً من أول سورة الصافات ، وثلاث آيات من الرحمن أولها : ﴿ يا معشر الجن والإنس .. ﴾ [الرحمن : ٣٣] وخاتمة الحشر . وأخرج أبو الشيخ عن [2] عبيد بن أبى مرزوق ، قال : من قرأ عند نومه : ﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض...** ﴾ الآية ، بسط عليه ملك جناحه حتى يصبح ، وعوفى من السَّرَق . وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن قيس صاحب عمر بن عبد العزيز ، قال : مرض رجل من أهل المدينة ، فجاءه زمرة من أصحابه يعودونه ، فقرأ رجل منهم : ﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض** ﴾ الآية كلها ، وقد أصمت الرجل ، فتحرك ، ثم استوى جالساً ، ثم سجد يومه وليلته حتى كان من الغد من الساعة التى سجد فيها ، قال له أهله : الحمد لله الذى عافاك . قال : بعث إلى نفسى ملك يتوفاها ، فلما قرأ صاحبكم الآية التى قرأ ، سجد الملك ، وسجدت بسجوده . فهذا حين رفع رأسه . ثم مال فقضى .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله: ﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾، قال : يغشى الليل النهار فيذهب بضوئه ويطلبه سريعا حتى يدركه . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة ، قال : يلبس الليل النهار . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حثيثاً** ﴾ قال: سريعا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة فى قوله : ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ ، قال : الخلق : ما دون العرش ، والأمر : ما فوق ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى عنه ، قال : الخلق : هو الخلق ، والأمر : هو الكلام .

---

(١) فى المخطوطة : « قال » والصواب ما أثبتناه ليستقيم المعنى .

(٢) فى المطبوعة : « بن » وهو تصحيف ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) ﴾

أمرهم الله سبحانه بالدعاء ، وقيد ذلك بكون الداعى متضرعاً بدعائه مخفياً له. وانتصاب ﴿ **تضرعاً وخفية** ﴾ على الحال ، أى متضرعين بالدعاء ، مخفين له ، أو صفة مصدر محذوف، أى ادعوه دعاء تضرع ودعاء خفية، والتضرع من الضراعة ، وهى الذلة والخشوع والاستكانة . والخفية : الإسرار به ، فإن ذلك أقطع لعرق الرياء، وأحسم لباب ما يخالف الإخلاص [١] . ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ أى المجاوزين لما أمروا به فى الدعاء وفى كل شىء. فمن جاوز ما أمره الله به فى شىء من الأشياء فقد اعتدى ، والله لا يحب المعتدين . وتدخل المجاوزة فى الدعاء فى هذا العموم دخولاً أوليا . ومن الاعتداء فى الدعاء أن يسأل الداعى ما ليس له كالخلود فى الدنيا ، أو إدراك ما هو محال فى نفسه ، أو يطلب الوصول إلى منازل الأنبياء فى الآخرة ، أو يرفع صوته بالدعاء صارخا به .

قوله : ﴿ **ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها** ﴾ نهاهم الله سبحانه عن الفساد فى الأرض بوجه من الوجوه قليلاً كان أو كثيراً ، ومنه : قتل الناس ، وتخريب منازلهم وقطع أشجارهم ، وتغوير أنهارهم . ومن الفساد فى الأرض : الكفر بالله والوقوع فى معاصيه . ومعنى ﴿ **بعد إصلاحها** ﴾ : بعد أن أصلحها الله بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتقرير الشرائع .

قوله: ﴿ **وادعوه خوفا وطمعاً** ﴾ إعرابهما يحتمل الوجهين المتقدمين فى ﴿ **تضرعا وخفية** ﴾. وفيه أنه يشرع للداعى أن يكون عند دعائه خائفا وجلاً طامعا فى إجابة الله لدعائه . فإنه إذا كان عند الدعاء جامعا بين الخوف والرجاء[٢]، ظفر بمطلوبه . والخسوف : الانزعاج من المضارّ التى لا يؤمن من وقوعها . والطمع : توقع حصول الأمور المحبوبة.

قوله : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ ، هذا إخبار من الله سبحانه بأن رحمته قريبة من عباده المحسنين بأى نوع من الأنواع كان إحسانهم . وفى هذا ترغيب للعباد إلى الخير

(١) قال أحمد :« وحسبُك فى تعيين الإسرار فى الدعاء اقترانه بالتضرع فى الآية . فالإخلال به كالإخلال بالضراعة إلى الله فى الدعاء ، وإن دعاءً لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى ، فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه » .

(٢) راجع :حقيقة الخوف والرجاء فى كتابنا : « التصوف الإسلامى منهجا وسلوكا » ط : المكتبات الأزهرية ـ القاهرة .

وتنشيط لهم . فإن قرب هذه الرحمة التى يكون بها الفوز بكل مطلب مقصود لكل عبد من عباد الله .

وقد اختلف أئمة اللغة والإعراب فى وجه تذكير خبر رحمة الله ، حيث قال : ﴿ **قريب** ﴾ ولم يقل : قريبة ، فقال الزجاج: إن الرحمة مؤولة بالرحم لكونها بمعنى : العفو والغفران . ورجح هذا التأويل النحاس. وقال النضر بن شميل: الرحمة مصدر بمعنى: الترَحم. وحق المصدر التذكير . وقال الأخفش سعيد : أراد بالرحمة هنا : المطر، وتذكير بعض المؤنث جائز. وأنشد:

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل إبقالها (١)

وقال أبو عبيدة : تذكير قريب على تذكير المكان ، أى مكان قريب . قال على بن سليمان الأخفش : وهذا خطأ ، ولو كان كما قال ، لكان قريب منصوبا كما تقول : إن زيدا قريبا منك. وقال الفراء : إن القريب إذا كان بمعنى المسافة فيذكر ويؤنث ، وإن كان بمعنى النسب فيؤنث بلا اختلاف بينهم . وروى عن الفراء أنه قال : يقال فى النسب : قريبة فلان، وفى غير النسب يجوز التذكير والتأنيث ، فيقال : دارك عنا قريب ، وفلانة منا قريب . قال الله تعالى : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ [الأحزاب : ٦٣] ومنه قول امرئ القيس :

لك الويل أن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكرُا (٢)

وروى عن الزجاج أنه خطأ الفراء فيما قاله ، وقال : إن سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالهما . وقيل: إنه لما كان تأنيث الرحمة غير حقيقى ، جاز فى خبرها التذكير ، ذكر معناه الجوهرى .

قوله : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح نشرا بين يدى رحمته** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾ يتضمن ذكر نعمة من النعم التى أنعم بها على عباده مع ما فى ذلك من الدلالة على وحدانيته وثبوت إلهيته . ورياح : جمع ريح . وأصل ريح : روح . وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو : « نشرا » بضم النون والشين ، جمع ناشر على معنى النسب . أى ذات نشر . وقرأ الحسن وقتادة ، وابن عامر : « نُشُرا » بضم النون ، وإسكان الشين من نُشْر . وقرأ الأعمش ، وحمزة ، والكسائى : « نشرا » بفتح النون وإسكان الشين على المصدر ، ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال . ومعنى هذه القراءات يرجع إلى النشر الذى هو خلاف الطى ، فكأن الريح مع سكونها كانت مطوية ، ثم ترسل من طيها ، فتصير كالمنفتحة . وقال أبو عبيدة : معناه : متفرقة فى وجوهها على معنى ننشرها هاهنا . وقرأ عاصم ﴿ **بشرا** ﴾ بالباء الموحدة،

---

(١) البيت من شعر عامر بن جوين الطائى فى سيبويه ١/ ٣٤٠ ، ومعانى القرآن ١/ ١٢٧ والخزانة ١/ ٢١ ـ ٢٦ وشرح شواهد المغنى ٣١٩ والكامل ١/ ٤٠٦ ، ٢/ ٦٨ .

(٢) البيت فى ديوانه ص ٩١ . له الويل : له الشقاء والحزن الطويل يعنى: نفسه . وأم هاشم : كنية ابنة غفر ، والبسباسة ابنة يشكر : امرأة أخرى من صواحباته .

وإسكان الشين جمع بشير ، أى الرياح تبشر بالمطر . ومثله قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ (١) . [الروم : ٤٦] .

قوله : ﴿ **بين يدى رحمته** ﴾ أراد بالرحمة هنا : المطر ، أى قدام رحمته ، والمعنى : أنه سبحانه يرسل الرياح ناشرات أو مبشرات بين يدى المطر .

قوله : ﴿ **حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً** ﴾ أقل فلان الشىء : حمله ورفعه . والسحاب يذكر ويؤنث . والمعنى : حتى إذا حملت الرياح سحابا ثقالاً بالماء الذى صارت تحمله ﴿ **سقناه** ﴾ أى السحاب ﴿ **لبلد ميت** ﴾ أى مجدب ليس فيه نبات . يقال : سقته لبلد كذا ، وإلى بلد كذا . وقيل : اللام هنا لام العلة ، أى لأجل بلد ميت. والبلد : هو الموضع العامر من الأرض . ﴿**فأنزلنا به الماء** ﴾ أى بالبلد الذى سقناه لأجله ، أو بالسحاب أى أنزلنا بالسحاب الماء الذى تحمله ، أو بالريح أى فأنزلنا بالريح المرسلة بين يدى المطر الماء . وقيل : إن « الباء » هنا بمعنى: « من » أى فأنزلنا منه الماء . ﴿**فأخرجنا به** ﴾ أى بالماء ﴿ **من كل الثمرات** ﴾ أى من جميع أنواعها.

قوله : ﴿ **كذلك نخرج الموتى** ﴾ أى مثل ذلك الإخراج ، وهو إخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم. ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ أى تتذكرون ، فتعلمون بعظيم قدرة الله وبديع صنعته ، وأنه قادر على بعثكم كما قدر على إخراج الثمرات التى تشاهدونها .

قوله : ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه** ﴾ أى التربة الطيبة يخرج نباتها بإذن الله وتيسيره إخراجا حسنا تاما وافيا ﴿ **والذى خبث لا يخرج إلا نكدا** ﴾ أى والتربة الخبيثة لا يخرج نباتها إلا نكدا أى لا خير فيه (٢) . وقرأ طلحة بن مصرِّف : «نكْدا » بسكون الكاف . وقرأ ابن القعقاع : « نكَدا » بفتح الكاف أى ذا نكد. وقرأ الباقون : ﴿ **نكِدا** ﴾ بفتح النون وكسر الكاف. وقرئ : « يخرج » أى يخرجه البلد . قيل : ومعنى الآية التشبيه ، شبه تعالى السريع الفهم : بالبلد الطيب . والبليد : بالبلد الخبيث ، ذكره النحاس . وقيل : هذا مثل للقلوب ، فشبه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب، والنائى عنه بالبلد الخبيث ، قاله الحسن . وقيل : هو مثل لقلب المؤمن والمنافق . قاله قتادة . وقيل : هو مثل للطيب والخبيث من بنى آدم . قاله مجاهد . ﴿**كذلك نصرف الآيات** ﴾ ، أى : مثل ذلك التصريف ﴿ **لقوم يشكرون** ﴾ الله ، ويعترفون بنعمته .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾

---

(١) فى المخطوطة : « وهو الذى يرسل الرياح مبشرات » .

(٢) كما قال الشاعر :

لا تنجز الوعد إن وعدت وإن ... أعطيت أعطيت تافها نكدا

قال : السر ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ فى الدعاء ولا فى غيره . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة ، قال : التضرع : علانية . والخفية : سر . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾ يعنى : مستكينا . وخفية يعنى : فى خفض وسكون فى حاجاتكم من أمر الدنيا والآخرة . ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ يقول : لا تدعوا على المؤمن والمؤمنة بالشر : اللهم اخزه والعنه . . . ونحو ذلك، فإن ذلك عدوان . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى مِجلَز فى قوله : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ قال : لا تسألوا منازل الأنبياء . وأخرج ابن المبارك وابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن ، قال : لقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم . وذلك أن الله يقول : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾ وذلك أن الله ذكر عبدا صالحاً فرضى قوله فقال : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ [1] [مريم : ٣] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صالح [2] فى قوله : ﴿ **ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها** ﴾ ، قال : بعد ما أصلحها الأنبياء وأصحابهم . وأخرج أبو الشيخ عن أبى سنان فى الآية قال : أحللت حلالى ، وحرمت حرامى، وحددت حدودى ، فلا تفسدوها . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ادعوه خوفاً وطمعاً** ﴾ قال : خوفا منه ، وطمعا لما عنده . ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ يعنى : المؤمنين . ومن لم يؤمن بالله فهو من المفسدين .

وأخرج ابن جرير [3] وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح** ﴾ قال : إن الله يرسل الريح فيأتى بالسحاب من بين الخافقين ، طرف السماء والأرض من حيث يلتقيان ، فيخرجه من ثَم ، ثم ينشره فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ثم يفتح أبواب السماء ، فيسيل الماء على السحاب ، ثم يمطر السحاب بعد ذلك [4] . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بشراً بين يدى رحمته** ﴾ قال : يستبشر بها الناس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **بين يدى رحمته** ﴾ قال : هو المطر . وفى قوله : ﴿ **كذلك نخرج الموتى**﴾ قال : كذلك تخرجون ، وكذلك النشور كما يخرج الزرع بالماء . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **كذلك نخرج الموتى** ﴾ قال : إذا أراد الله أن يخرج الموتى ، أمطر السماء حتى يشقق عنهم الأرض ، ثم يرسل الأرواح فيهوى كل روح إلى جسده ، فكذلك يحيى الله الموتى بالمطر . كإحيائه الأرض [5] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **والبلد الطيب** ... ﴾

---

(١) ابن جرير ٨/ ١٤٧ وفيه زيادة .

(٢) فى المطبوعة : « ابن صالح » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ، وانظر: الدر المنثور ٣/ ٩٣ .

(٣) فى المطبوعة : « ابن جريج » ، والصواب ما أثبتناه . (٤ ، ٥) ابن جرير ٨/ ١٤٩ .

الآية ، قال : هو مثل ضربه الله للمؤمن ، يقول : هو طيب وعمله طيب ، كما أن البلد الطيب ثمرها طيب . ﴿ **والذى خبث** ﴾ ضرب مثلاً للكافر ، كالبلد السبخة المالحة التى لا تخرج منها البركة . فالكافر هو الخبيث ، وعمله خبيث وقد روى نحو هذا عن جماعة من التابعين .

﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ (٦٤)** ﴾

لما بين سبحانه كمال قدرته وبديع صنعته فى الآيات السابقة ، ذكر هنا أقاصيص الأمم وما فيها من تحذير الكفار ووعيدهم لتنبيه هذه الأمة على الصواب ، وأن لا يقتدوا بمن خالف الحق من الأمم السالفة . واللام جواب قسم محذوف . وهو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم . وقد تقدم ذكر نوح فى آل عمران ، فأغنى عن الإعادة هنا (١) . وما قيل من أن إدريس قبل نوح، فقال ابن العربى : إنه وهم . قال المازرى : فإن صح ما ذكره المؤرخون ، كان محمولاً على أن إدريس كان نبياً غير مرسل . وجملة : ﴿ **فقال ياقوم اعبدوا الله** ﴾ استئنافية جواب سؤال مقدر .

قوله : ﴿ **ما لكم من إله غيره** ﴾ هذه الجملة فى حكم العلة لقوله : ﴿ **اعبدوا** ﴾ أى اعبدوه؛ لأنه لم يكن لكم إله غيره حتى يستحق منكم أن يكون معبوداً . قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم وحمزة وابن كثير وابن عامر برفع ﴿**غيره**﴾ على أنه نعت لإله على الموضع . وقرأ الكسائى : بالخفض فى جميع القرآن على أنه نعت على اللفظ . وأجاز الفراء والكسائى النصب على الاستثناء . يعنى : مالكم من إله إلا إياه . وقال أبو عمرو : ما أعرف الجر ولا النصب . ويرده أن بعض بنى أسد ينصبون « غير » فى جميع الأحوال . ومنه قول الشاعر :

لم يمنع الشرب منها غير أن هتفت حمامة فى غصون (٢) ذات أوقال (٣)

وجملة : ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ متضمنة لتعليل الأمر بالعبادة أى إن

---

(١) راجع : تفسير قوله تعالى : ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحا** ﴾ الآية : ٣٣ من سورة آل عمران .

(٢) فى المخطوطة : « سحوق » بدلاً من « غصون » .

(٣) البيت لأبى قيس بن الأسلت، والسحوق: ما طال من الدوم، وفى الخزانة. فى غصون وأوقاله: ثماره.

لم تعبدوه ، فإنى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، أو عذاب يوم الطوفان .

قوله : ﴿ **قال الملأ من قومه** ﴾ جملة استئنافية جواب سؤال مقدر . والملأ : أشراف القوم ، ورؤساؤهم . وقيل : هم الرجال . وقد تقدم بيانه فى البقرة . والضلال : العدول عن طريق الحق ، والذهاب عنه ، أى إنا لنراك فى دعائك إلى عبادة الله وحده فى ضلال عن طريق الحق .

وجملة : ﴿ **قال يا قوم** ﴾ استئنافية أيضا جواب سؤال مقدر . ﴿ **ليس بى ضلالة** ﴾ كما تزعمون ، ﴿ **ولكنى رسول من رب العالمين** ﴾ أرسلنى إليكم لسوق الخير إليكم ، ودفع الشر عنكم ، نفى عن نفسه الضلالة، وأثبت لها ما هو أعلى منصبا وأشرف رفعة ، وهو أنه رسول الله إليهم .

وجملة : ﴿ **أبلغكم رسالات ربى** ﴾ فى محل رفع ، على أنها صفة لرسول ، أو هى مستأنفة مبينة لحال الرسول . والرسالات : ما أرسله الله به إليهم مما أوحاه إليه . ﴿ **وأنصح لكم** ﴾ عطف على ﴿ **أبلغكم** ﴾ يقال : نصحته ، ونصحت له . وفى زيادة اللام دلالة على المبالغة فى إمحاض النصح . قال الأصمعى : الناصح : الخالص من الغل . وكل شىء خلص فقد نصح . فمعنى أنصح هنا : أخلص النية لكم عن شوائب الفساد ، والاسم : النصيحة [1] . وجملة : ﴿**وأعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ معطوفة على الجملة التى قبلها ، مقررة لرسالاته ، ومبينة لمزيد علمه . وأنه يختص بعلم الأشياء التى لا يعلمونها بإخبار الله له بذلك .

قوله : ﴿ **أوعجبتم** ﴾ فتحت الواو لكونها العاطفة ، ودخلت عليها همزة الاستفهام للإنكار عليهم . والمعطوف عليه مقدر ، كأنه قيل : أستبعدتم ، وعجبتم . أو أكذبتم ، وعجبتم . أو أنكرتم ، وعجبتم ﴿ **أن جاءكم ذكر من ربكم** ﴾ أى وحى،وموعظة ﴿ **على رجل منكم** ﴾ أى على لسان رجل منكم تعرفونه . ولم يكن ذلك على لسان من لا تعرفونه ، أو لا تعرفون لغته . وقيل : « على » بمعنى : « مع » ، أى مع رجل منكم ، لأجل ينذركم به . ﴿ **ولتتقوا** ﴾ ما يخالفه ﴿ **ولعلكم ترحمون** ﴾ بسبب ما يفيده الإنذار لكم ، والتقوى منكم، من التعرض لرحمة الله سبحانه لكم ، ورضوانه عنكم . ﴿ **فكذبوه** ﴾ أى فبعد ذلك كذبوه ، ولم يعملوا بما جاء به من الإنذار ﴿ **فأنجيناه والذين معه** ﴾ من المؤمنين به ، المستقرين معه ﴿ **فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ واستمروا على ذلك ، ولم يرجعوا إلى التوبة . وجملة ﴿ **إنهم كانوا قوما عمين** ﴾ علة لقوله : ﴿ **وأغرقنا** ﴾ أى أغرقنا المكذبين ، لكونهم عمى القلوب ، لا تنجع فيهم الموعظة ، ولا يفيدهم التذكير .

---

(١) ورجل ناصح الجيب ، أى نقى القلب . قال الأصمعى : الناصح : الخالص من العمل وغيره مثل الناصع . وكل شىء خلص فقد نصح ، وانتصح فلان : أقبل على النصيحة . والناصح : الخياط ، والنَّصاح : السلك يخاط به ، والنَّصاحات أيضاً : الجلود .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أنس ؛ أن النبى ﷺ قال : « أول نبى أرسل نوح»[١] . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وأبونعيم وابن عساكر عن يزيد الرقاشى قال : إنما سمى نوح ــ عليه السلام ــ نوحا لطول ما ناح على نفسه . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك قال : الملأ يعنى : الأشراف من قومه . وأخرج أبو الشيخ عن السدى ﴿أن جاءكم ذكر من ربكم﴾ يقول : بيان من ربكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إنهم كانوا قوما عمين ﴾ قال: كفاراً . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد: ﴿ إنهم كانوا قوما عمين ﴾ قال : عن الحق .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴾

قوله : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ﴾ ، أى وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم أى واحدا من قبيلتهم ، أو صاحبهم، أو سماه أخاً لكونه ابن آدم مثلهم . وعاد هو من ولد سام بن نوح . قيل: هو عاد بن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وهود : هو ابن عبد الله ابن رباح بن الخلود [٢] بن عوص بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح . و﴿هودا﴾

(١) ذكر ابن كثير فى : البداية والنهاية ١/ ٩٢ أن أول بنى آدم أعطى النبوة بعد آدم وشيث ــ عليهما السلام ــ إدريس . كما يذكر فى نفس الجزء (٩٣): «وقد زعم بعضهم أن إدريس ــ عليه السلام ــ لم يكن قبل نوح ، بل فى زمان بنى إسرائيل» ، و فى (٩٤) يقول فى ترجمته : «نوح» ــ عليه السلام ــ كان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة » .

(٢) قال ابن كثير فى البداية والنهاية ١/ ١١٣ : «ويقال: الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام».

عطف بيان . ﴿ **قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ قد تقدم تفسير هذا قريبا . والاستفهام فى ﴿ **أفلا تتقون** ﴾ للإنكار ، وقد تقدم أيضاً تفسير الملأ . والسفاهة : الخفة والحمق. وقد تقدم بيان ذلك فى البقرة [١] . نسبوه إلى الخفة والطيش ، ولم يكتفوا بذلك حتى قالوا : ﴿ **وإنا لنظنك من الكاذبين** ﴾ مؤكدين لظنهم كذبه فيما ادعاه من الرسالة ، ثم أجاب عليهم بنفى السفاهة عنه. واستدرك من ذلك بأنه رسول رب العالمين ، وقد تقدم بيان معنى هذا قريبا ، وكذلك سبق تفسير ﴿ **أبلغكم رسالات ربى**﴾ وتقدم معنى الناصح . والأمين : المعروف بالأمانة . وسبق أيضا تفسير ﴿ **أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم** ﴾ فى قصة نوح التى قبل هذه القصة .

قوله : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح** ﴾ أذكرهم نعمة من نعم الله عليهم، وهى أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح أى جعلهم سكان الأرض التى كانوا فيها أو جعلهم ملوكاً . و « إذ » منصوب بـ ﴿ **اذكر** ﴾ وجعل الذكر للوقت . والمراد : ما كان فيه من الاستخلاف على الأرض لقصد المبالغة ؛ لأن الشىء إذا كان وقته مستحقاً للذكر فهو مستحق له بالأولى ﴿ **وزادكم فى الخلق بسطة** ﴾ أى طولا فى الخلق ، وعظم جسم ، زيادة على ما كان عليه آباؤهم فى الأبدان ، وقد ورد عن السلف حكايات عن عظم أجرام قوم عاد.

قوله : ﴿ **فاذكروا آلاء الله** ﴾ ، الآلاء جمع إِلَى [٢] ، ومن جملتها نعمة الاستخلاف فى الأرض ، والبسطة فى الخلق وغير ذلك مما أنعم به عليهم ، وكرر التذكير لزيادة التقرير ، والآلاء: النعم . ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ إن تذكرتم ذلك ، لأن الذكر للنعمة سبب باعث على شكرها ، ومن شكر فقد أفلح .

قوله : ﴿ **قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده** ﴾ هذا استنكار منهم لدعائه إلى عبادة الله وحده ، دون معبوداتهم التى جعلوها شركاء لله ، وإنما كان هذا مستنكرا عندهم ، لأنهم وجدوا آباءهم على خلاف ما دعاهم إليه . ﴿ **ونذر ما كان يعبد آباؤنا** ﴾ أى نترك الذى كانوا يعبدونه ، وهذا داخل فى جملة ما استنكروه .

قوله : ﴿ **فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ هذا استعجال منهم للعذاب الذى كان هود يعدهم به ، لشدة تمردهم على الله ، ونكوصهم عن طريق الحق ، وبعدهم عن اتباع الصواب ، فأجابهم بقوله : ﴿ **قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب** ﴾ جعل ما هو متوقع كالواقع ، تنبيهاً على تحقق وقوعه ، كما ذكره أئمة المعانى والبيان . وقيل : معنى وقع : وجب. والرجس: العذاب . وقيل : هو هنا الرين على القلب بزيادة الكفر . ثم استنكر عليهم ما وقع منهم من المجادلة فقال: ﴿ **أتجادلوننى فى أسماء** ﴾ ، يعنى أسماء الأصنام التى كانوا يعبدونها ، جعلها أسماء ، لأن مسمياتها لا حقيقة لها ، بل تسميتها بالآلهة باطلة ، فكأنها معدومة لم توجد ، بل الموجود أسماؤها فقط ﴿ **سميتموها أنتم وآباؤكم** ﴾ أى سميتم

---

(١) راجع : تفسير الآية ١٣ من سورة البقرة .

(٢) نحو : إنى وإناء ، وضلع وأضلاع ، وعنب وأعناب ، ومِعًى وأمعاء .

بها معبوداتكم من جهة أنفسكم ، أنتم وآباؤكم ، ولا حقيقة لذلك . ﴿ **ما نزل الله بها من سلطان** ﴾ أى من حجة تحتجون بها على ما تدعونه لها من الدعاوى الباطلة ، ثم توعدهم بأشد وعيد ، فقال : ﴿ **فانتظروا إنى معكم من المنتظرين** ﴾ أى فانتظروا ما طلبتموه من العذاب ، فإنى معكم من المنتظرين له ، وهو واقع بكم لا محالة ، ونازل عليكم بلا شك . ثم أخبر الله سبحانه أنه نجى هودا ومن معه من المؤمنين به ، من العذاب النازل بمن كفر به ، ولم تقبل رسالته، وأنه قطع دابر القوم المكذبين أى استأصلهم جميعا ، وقد تقدم تحقيق معناه . وجملة: ﴿ **وما كانوا مؤمنين** ﴾ معطوفة على ﴿ **كذبوا** ﴾ أى استأصلنا هؤلاء القوم الجامعين بين التكذيب بآياتنا، وعدم الإيمان .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً** ﴾ قال : ليس بأخيهم فى الدين ، ولكنه أخوهم فى النسب ؛ لأنه منهم ، فلذلك جعل أخاهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن خيثم قال : كانت عاد ما بين اليمن إلى الشام مثل الذر [١] . وأخرج ابن عساكر عن وهب قال : كان الرجل من عاد ستين ذراعا بذراعهم ، وكان هامة الرجل مثل القبة العظيمة ، وكان عين الرجل لتفرخ فيها السباع ، وكذلك مناخرهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ، قال : ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر ذراعاً طولاً . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس ، قال : كان الرجل منهم ثمانين باعا ، وكانت البرة [٢] فيهم ككلية البقرة . والرمانة الواحدة يقعد فى قشرها عشرة نفر .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه : ﴿ **وزادكم فى الخلق بسطة** ﴾ قال : شدة . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم عن أبى هريرة ، قال : إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراع [٣] من الحجارة ، لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يُقلُّوه ، وإن كان أحدهم ليدخل قدمه فى الأرض فتدخل فيها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **آلاء الله** ﴾ قال: نعم الله وفى قوله : ﴿ **رجس** ﴾ قال : سخط . وأخرج ابن عساكر قال : لما أرسل الله الريح على عاد ، اعتزل هود ومن معه من المؤمنين فى حظيرة ، ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين عليه الجلود ، وتلتذ به الأنفس . وإنها لتمر بالعادى ، فتحمله بين السماء والأرض ، وتدمغه بالحجارة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **وقطعنا دابر الذين كذبوا** ﴾ قال : استأصلناهم. وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن جرير وابن عساكر عن على بن أبى

---

(١) قال ابن كثير فى البداية والنهاية ١/ ١١٣ : «كانوا عربا يسكنون الأحقاف : وهى جبال الرمل وكانت بين اليمن وعمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها : الشجر، واسم واديهم مغيث ، وكانوا كثيرا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام كما قال تعالى : ﴿ **إرم ذات العماد** ﴾ [الفجر : ٧] أى عاد إرم وهم عاد الأولى ، وأما عاد الثانية فمتأخرة » .

(٢) البُرَّة : الواحدة من القمح ، والبُر بالضم : القمح .

(٣) مصراع الباب : أحد جزأيه وهما مصراعان أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار .

طالب قال : قبر هود بحضرموت ، فى كثيب أحمر ، عند رأسه سدرة . وأخرج ابن عساكر عن عثمان بن أبى العاتكة ، قال قبلة مسجد دمشق ، قبر هود . وأخرج أبو الشيخ عن أبى هريرة قال: كان عمر هود أربعمائة سنة واثنتين وسبعين سنة .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾ .

قوله: ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحاً** ﴾ معطوف على ما تقدم أى وأرسلنا إلى ثمود آخاهم، وثمود قبيلة سموا باسم أبيهم ، وهو ثمود بن عاد بن إرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح [(١)] . وصالح عطف بيان وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ، وامتناع ثمود من الصرف ؛ لأنه جعل اسما للقبيلة . وقال أبو حاتم : لم ينصرف لأنه أعجمى. قال النحاس : وهو غلط لأنه من الثمد ، وهو الماء القليل. وقد قرأ القراء : « ألا إن ثمودا كفروا ربهم » [هود : ٦٨] على أنه اسم للحى ، وكانت مساكن ثمود الحجر ، بين الحجاز والشام إلى وادى القرى .

قوله : ﴿ **قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ قد تقدم تفسيره فى قصة نوح. ﴿ **قد جاءتكم بينة من ربكم** ﴾ أى معجزة ظاهرة، وهى إخراج الناقة من الحجر الصلد . وجملة ﴿ **هذه ناقة الله لكم آية** ﴾ مشتملة على بيان البينة المذكورة، وانتصاب ﴿ **آية** ﴾ على الحال . والعامل فيها معنى الإشارة ، وفى إضافة الناقة إلى الله، تشريف لها وتكريم .

قوله : ﴿ **فذروها تأكل فى أرض الله** ﴾ أى دعوها تأكل فى أرض الله ، فهى ناقة الله .

---

(١) فى المخطوطة : « عا » قال ابن كثير فى البداية والنهاية ١/ ١٢٣ : « وهم قبيلة مشهورة يقال ثمود باسم جدهم: ثمود أخى جديس وهما ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر الذى كان بين الحجاز وتبوك » .

والأرض أرضه ، فلا تمنعوها مما ليس لكم ، ولا تملكونه . ﴿ **ولا تمسوها** ﴾ بشىء من السوء ، أى لا تتعرضوا لها بوجه من الوجوه التى تسوءها . قوله: ﴿ **فيأخذكم عذاب أليم** ﴾ هو جواب النهى أى إذا لم تتركوا مسها بشىء من السوء ، أخذكم عذاب أليم أى شديد الألم .

قوله : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد** ﴾ أى استخلفكم فى الأرض ، أو جعلكم ملوكاً فيها ، كما تقدم فى قصة هود . ﴿ **وبوأكم فى الأرض** ﴾ أى جعل لكم فيها مباءة . وهى المنزل الذى تسكنونه . ﴿ **تتخذون من سهولها قصورا** ﴾ أى تتخذون من سهولة الأرض قصورا ، أو هذه الجملة مبينة لجملة ﴿ **وبوأكم فى الأرض** ﴾ وسهول الأرض : ترابها ، يتخذون منه اللبن والآجر ، ونحو ذلك ، فيبنون به القصور . ﴿ **وتنحتون الجبال بيوتا** ﴾ أى تتخذون فى الجبال التى هى صخور، بيوتا تسكنون فيها ، وقد كانوا لقوتهم ،وصلابة أبدانهم ، ينحتون الجبال ، فيتخذون فيها كهوفاً يسكنون فيها ، لأن الأبنية والسقوف كانت تفنى قبل فناء أعمارهم . وانتصاب ﴿ **بيوتا** ﴾ على أنها حال مقدرة ، أو على أنها مفعول ثان لـ ﴿ **تنحتون** ﴾ على تضمينه معنى ﴿ **تتخذون** ﴾ . قوله : ﴿ **فاذكروا آلاء الله** ﴾ تقدم تفسيره فى القصة التى قبل هذه .

قوله : ﴿ **ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ العثى والعثو لغتان ، وقد تقدم تحقيقه فى البقرة بما يغنى عن الإعادة [1] . ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه** ﴾ أى قال الرؤساء المستكبرون من قوم صالح للمستضعفين ، الذين استضعفهم المستكبرون، و ﴿ **لمن آمن منهم** ﴾ بدل من الذين ﴿ **استضعفوا** ﴾ بإعادة حرف الجر ، بدل البعض من الكل ، لأن فى المستضعفين من ليس بمؤمن ، هذا على عود ضمير ﴿ **منهم** ﴾ إلى الذين استضعفوا . فإن عاد إلى قومه ، كان بدل كل من المستضعفين . ومقول القول ﴿ **أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه** ﴾ قالوا هذا على طريق الاستهزاء والسخرية .

قوله : ﴿ **قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون** ﴾ أجابوهم بأنهم مؤمنون برسالته ، مع كون سؤال المستكبرين لهم، إنما هو عن العلم منهم : هل تعلمون برسالته ، أم لا ؟ مسارعة إلى إظهار ما لهم من الإيمان ، وتنبيها على أن كونه مرسلاً أمر واضح مكشوف،لا يحتاج إلى السؤال عنه . فأجابوا تمردا وعنادا بقولهم : ﴿ **إنا بالذى آمنتم به كافرون** ﴾ [2] وهذه الجمل المعنوية ، يقال : مستأنفة ، لأنها جوابات عن سؤالات مقدرة كما سبق بيانه .

قوله : ﴿ **فعقروا الناقة** ﴾العقر : الجرح . وقيل : قطع عضو يؤثر فى تلف النفس . يقال : عقرت الفرس ، إذا ضربت قوائمه بالسيف . وقيل : أصل العقر كسر عرقوب البعير ،

(١) راجع تفسير الآية رقم ٦٠ من سورة البقرة .

(٢) قال أحمد بن المنير السكندرى: «ولو طابقوا بين الكلامين لكانت تقتضى المطابقة أن يقولوا: «إنا بما أرسل به كافرون » ، ولكن أبوا ذلك حذرا مما فى ظاهره من إثباتهم لرسالته وهم يجحدونها . وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم كما قال فرعون : ﴿ **إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾ فأثبت إرساله تهكما » .

ثم قيل للنحر : عقر ؛ لأن العقر سبب النحر فى الغالب ، وأسند العقر إلى الجميع ، مع كون العاقر واحدا منهم ، لأنهم راضون بذلك ، موافقون عليه . وقد اختلف فى عاقر الناقة ، ما كان اسمه ؟ فقيل : قدار بن سالف . وقيل غير ذلك : ﴿ **وعتوا عن أمر ربهم** ﴾ أى استكبروا . يقال : عتا يعتو عتوا : استكبر ، وتعتى فلان : إذا لم يطع . والليل العاتى : الشديد الظلمة . ﴿ **وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا** ﴾ من العذاب ﴿ **إن كنت من المرسلين** ﴾ هذا استعجال منهم للنقمة ، وطلب منهم لنزول العذاب ، وحلول البلية بهم . ﴿ **فأخذتهم الرجفة**﴾ أى الزلزلة . يقال : رجف الشىء يرجف رجفاناً . وأصله حركة من صوت ، ومنه : ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ [النازعات : ٦] وقيل : كانت صيحة شديدة ، خلعت قلوبهم . ﴿**فأصبحوا فى دارهم** ﴾ أى بلدهم ﴿ **جاثمين** ﴾ لاصقين بالأرض ، على ركبهم ، ووجوههم ، كما يجثم الطائر . وأصل الجثوم للأرنب وشبهها . وقيل : للناس والطير ، والمراد : أنهم أصبحوا فى دورهم ميتين لا حراك بهم [1] ﴿ **فتولى عنهم** ﴾ صالح ، عند اليأس من إجابتهم ﴿ **وقال** ﴾ لهم هذه المقالة : ﴿ **لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ . ويحتمل أنه قال لهم هذه المقالة بعد موتهم على طريق الحكاية لحالهم الماضية . كما وقع من التبيص من التكليم لأهل قليب [2] بدر بعد موتهم [3] ، أو قالها لهم عند نزول العذاب بهم ، وكأنه كان مشاهدا لذلك ، فتحسر على ما فاتهم من الإيمان والسلامة من العذاب ، ثم أبان عن نفسه أنه لم يأل جهدا فى إبلاغهم الرسالة ، ومحض النصح ، لكن أبوا ذلك فلم يقبلوا منه ، فحق عليهم العذاب . ونزل بهم ما كذبوا به واستعجلوه .

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى الطفيل ، قال : قالت ثمود لصالح : ﴿ ائتنا بآية إن كنت من الصادقين ﴾ [الشعراء : ١٥٤] قال : اخرجوا . فخرجوا إلى هضبة من الأرض ، فإذا هى تمخض كما تمخض الحامل ، ثم إنها انفرجت ، فخرجت الناقة من وسطها ، فقال لهم صالح : ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ [هود : ٦٤] فلما ملوها عقروها . فقال : ﴿ تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ﴾ [هود : ٦٥] . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ؛ أن صالحاً قال لهم حين عقروا الناقة : تمتعوا ثلاثة أيام . ثم قال لهم : آية هلاككم أن تصبح

---

(١) ومنه المجثمة التى جاء النهى عنها وذلك أن رسول الله ﷺ نهى عن الشرب من فى السقاء وعن ركوب الجلالة وعن المجثمة . وهى : التى تضرب بالنبل . رواه أصحاب السنن وابن ماجة والحاكم من حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما .

(٢) القليب عند العرب : البئر العادية القديمة مطوية كانت أو غير مطوية .

(٣) ابن إسحاق ٢/ ٢٠٤ : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال : « يا أهل القليب : بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس» ، ثم قال : ﴿ **هل وجدتم ما وعد ربكم حقا** ﴾ [الأعراف : ٤٤] . وانظر : ابن أبى شيبة (١٨٥٥٢) والبخارى فى المغازى (٣٩٧٩ ــ ٣٩٨١) .

وجوهكم غدا مصفرة ، وتصبح اليوم الثانى محمرة ، ثم تصبح اليوم الثالث مسودة . فأصبحت كذلك . فلما كان اليوم الثالث ، أيقنوا بالهلاك ، فتكفنوا وتحنطوا . ثم أخذتهم الصيحة فأهمدتهم . وقال عاقر الناقة : لا أقتلها حتى ترضوا أجمعين ، فجعلوا يدخلون على المرأة فى خدرها [١] ، فيقولون : أترضين ؟ فتقول : نعم . والصبى ، حتى رضوا أجمعون ، فعقرها [٢] .

وأخرج أحمد والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن جابر بن عبد الله ؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر[٣] ، قام فخطب ، فقال : « يأيها الناس ، لا تسألوا نبيكم عن الآيات ، فإن قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آية ، فبعث الله لهم الناقة ، فكانت ترد [٤] من هذا الفج [٥] ، فتشرب ماءهم يوم وردها ، ويحتلبون من لبنها مثل الذى كانوا يأخذون من مائها يوم غبها [٦] ، وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها . فوعدهم الله العذاب بعد ثلاثة أيام ، وكان وعد من الله غير مكذوب ، ثم جاءتهم الصيحة فأهلك الله من كان منهم تحت مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلاً كان فى حرم الله ، فمنعه حرم الله من عذاب الله » فقيل : يا رسول الله ، من هو ؟ فقال : « أبو رغال . فلما خرج من الحرم ، أصابه ما أصاب قومه » [٧] . قال ابن كثير : هذا الحديث على شرط مسلم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه من حديث أبى الطفيل مرفوعا مثله [٨] .

وأخرج أحمد من حديث ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم »[٩] . وأصل الحديث فى الصحيحين من غير وجه [١٠] . وفى لفظ لأحمد من هذا الحديث ، قال : لما نزل رسول الله ﷺ على تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود . وأخرج أحمد ، وابن المنذر نحوه مرفوعا من حديث أبى كبشة الأنمارى [١١] . وأخرج

---

(١) الخدر : هو الستر ، والجمع (خدور) ويطلق (الخدر) على البيت إن كان فيه امرأة ، وإلا فلا .

(٢) ابن جرير ٨/ ١٦٢ .

(٣) الحجر ــ بالفتح ــ كسارة الصخور أو الصخور الصلبة المكونة من تجمع الكسارة وتصلبها ، وبالكسر : حطيم مكة وهو المدار بالبيت من جهة الميزاب .

(٤) ترد : إذا أخرجت . (٥) الفجُّ : الطريق الواضح الواسع والجمع (فجاج) .

(٦) غبها : أغب القوم : أى شربت ماشيتهم يوما وتركت يوما .

(٧) أحمد ٣/ ٢٩٦ وقال الهيثمى فى المجمع بعد أن عزاه لأحمد والبزار والطبرانى فى الأوسط ٧/ ٤١ : «ورجال أحمد رجال الصحيح » وابن جرير ٧/ ١٦٢ وصححه الحاكم ٢/ ٣٣٠ ووافقه الذهبى ، وقال ابن كثير ٣/ ١٩٠ : « ليس فى شىء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم».

(٨) ابن جرير ٨/ ١٥٨ . (٩) أحمد ٢/ ٩ ، ٥٨ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٩١ ، ٩٦ .

(١٠) البخارى فى الصلاة (٤٤٣) ومسلم فى الزهد (٢٩٨٠/ ٣٨ ، ٣٩) .

(١١) أحمد ٤/ ٢٣١ والطبرانى ٢٢/ ٣٤٠ (٨٥١ ، ٨٥٢) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢٩٤ : « رواه الطبرانى وأحمد بأسانيد ، وأحدها حسن » .

ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: ﴿ **ولا تمسوها بسوء** ﴾ قال : لا تعقروها .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **وتنحتون الجبال بيوتا** ﴾ ، قال : كانوا ينقبون فى الجبال البيوت . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وعتوا عن أمر ربهم** ﴾ قال : غلوا فى الباطل ﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ قال : الصيحة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد ﴿ **فأصبحوا فى دارهم جاثمين** ﴾ قال : ميتين . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله .

﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)** ﴾ .

قوله : ﴿ **ولوطاً** ﴾ معطوف على ما سبق ، أى وأرسلنا لوطاً ، أو منصوب بفعل مقدر ، أى واذكر لوطاً وقت قال لقومه . قال الفراء : لوط مشتق من قولهم : هذا أليط بقلبى ، أى ألصق . قال الزجاج : زعم بعض النحويين أن لوطاً يجوز أن يكون مشتقاً من لُطْتُ الحوض : إذا ملسته بالطين . وهذا غلط ، لأن الأسماء الأعجمية لا تشتق . وقال سيبويه : نوح ولوط أسماء أعجمية ، إلا أنها خفيفة ، فلذلك صرفت . ولوط هو ابن هاران بن تارخ ، فهو ابن أخى إبراهيم ، بعثه الله إلى أمة تسمى سدوم [1] . ﴿ **أتأتون الفاحشة** ﴾ أى الخصلة الفاحشة المتمادية فى الفحش والقبح . قال ذلك : إنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم ﴿ **ما سبقكم بها من أحد من العالمين** ﴾ أى لم يفعلها أحد قبلكم . فإن اللواط لم يكن فى أمة من الأمم قبل هذه الأمة . و« من » مزيدة للتوكيد ، للعموم فى النفى ، وأنه مستغرق لما دخل عليه ، والجملة مسوقة لتأكيد النكير عليهم والتوبيخ لهم .

قوله : ﴿ **إنكم لتأتون الرجال شهوة** ﴾ قرأ نافع وحفص على الخبر بهمزة واحدة مكسورة ، وقرأ الباقون بهمزتين على الاستفهام المقتضى للتوبيخ والتقريع ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد ، والكسائى وغيرهما . واختار الخليل وسيبويه القراءة الثانية ، فعلى القراءة الأولى تكون هذه الجملة مبينة لقوله : ﴿ **أتأتون الفاحشة** ﴾ وكذلك على القراءة الثانية مع مزيد الاستفهام وتكريره المفيد للمبالغة فى التقريع والتوبيخ ، وانتصاب ﴿ **شهوة** ﴾ على المصدرية ، أى تشتهونهم شهوة ، ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال ، أى مشتهين . ويجوز أن يكون مفعولاً له ، أى لأجل

---

(١) قال أبو منصور : « سدوم : مدينة من مدائن قوم لوط ، كان قاضيها يقال له : سدوم ، وهذا القاضى يضرب به المثل فيقال : أجور من قاضى سدوم ، وذكر الميدانى أن سدوم هى سرمين بلدة من أعمال حلب معروفة عندهم » .

الشهوة ، وفيه أنه لا غرض لهم بإتيان هذه الفاحشة إلا مجرد قضاء الشهوة ، من غير أن يكون لهم فى ذلك غرض يوافق العقل،فهم فى هذا كالبهائم التى ينزو بعضها على بعض ، لما يتقاضاها من الشهوة (١) . ﴿ من **دون النساء** ﴾ أى متجاوزين فى فعلكم هذا للنساء ، اللاتى هن محل لقضاء الشهوة ، وموضع لطلب اللذة ، ثم أضرب عن الإنكار المتقدم إلى الإخبار بما هم عليه من الإسراف ، الذى تسبب عنه إتيان هذه الفاحشة الفظيعة .

قوله : ﴿ **وما كان جواب قومه** ﴾ الواقعين فى هذه الفاحشة على ما أنكره عليهم منها ﴿ **إلا أن قالوا أخرجوهم** ﴾، أى لوطاً وأتباعه ﴿ من **قريتكم** ﴾ أى ما كان لهم جواب إلا هذا القول المباين للإنصاف، المخالف لما طلبه منهم وأنكره عليهم ، وجملة : ﴿ **إنهم أناس يتطهرون** ﴾ تعليل لما أمروا به من الإخراج ، ووصفهم بالتطهر ، يمكن أن يكون على حقيقته ، وأنهم أرادوا أن هؤلاء يتنزهون عن الوقوع فى هذه الفاحشة ، فلا يساكنونا فى قريتنا ، ويحتمل أنهم قالوا ذلك على طريق السخرية والاستهزاء ، ثم أخبر الله سبحانه أنه أنجى لوطاً وأهله المؤمنين به ، واستثنى امرأته من الأهل ، لكونها لم تؤمن به ، ومعنى ﴿ **كانت من الغابرين** ﴾ أنها كانت من الباقين فى عذاب الله ، يقال : غبر الشىء : إذا مضى . وغبر إذا بقى ، فهو من الأضداد . وحكى ابن فارس فى المجمل عن قوم أنهم قالوا : الماضى عَابر ، بالعين المهملة ، والباقى غابر بالمعجمة . وقال الزجاج : ﴿ **من الغابرين** ﴾ أى من الغائبين عن النجاة ، وقال أبو عبيد : المعنى : ﴿ **من الغابرين** ﴾ أى من المعمرين ، وكانت قد هرمت ، وأكثر أهل اللغة على أن الغابر الباقى (٢) .

قوله ﴿ **وأمطرنا عليهم مطرا** ﴾ قيل : أمطر بمعنى إرسال المطر . وقال أبو عبيدة : مطر فى الرحمة ، وأمطر فى العذاب. والمعنى هنا : أن الله أمطر عليهم مطرا غير ما يعتادونه ، وهو رميهم بالحجارة ، كما فى قوله : ﴿ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ [الحجر : ٧٤] . ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾ هذا خطاب لكل من يصلح له ، أو لمحمد ﷺ ، وسيأتى فى هود قصة لوط بأبين مما هنا .

وقد أخرج ابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **أتأتون الفاحشة** ﴾ قال : أدبار الرجال . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : إنما كان بدء عمل قوم لوط أن إبليس جاءهم فى هيئة صبى ، أجمل صبى

---

(١) الشهوة : الفعلة ، وهى مصدر من قول القائل : شهيت هذا الشىء أشهاه شهوة ، ومن ذلك قول الشاعر :

وأشعث يشهى النوم قلت له ارتحل ... إذا ما النجوم أعرضت واسبطرت

فقام يجر البُرد لو أن نفسه ... يقال لها : خذها بكفيك خرَّت

(٢) الفعل من الغابرين : غبر يغبر غبورا : وغبرا وذلك إذا بقى كما قال الأعشى :

عفى بما أبقى المواسى له ... من أمة فى الزمن الغابر

راجع : ديوانه ١٠٦ ومجاز القرآن لأبى عبيدة ١/ ٢١٩ .

رآه الناس ، فدعاهم إلى نفسه ، فنكحوه ، ثم جَسَرُوا على ذلك .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **إنهم أناس يتطهرون** ﴾ قال : من أدبار الرجال، ومن أدبار النساء . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **إلا امرأته كانت من الغابرين** ﴾ قال : من الباقين فى عذاب الله . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن أبى عروبة ، قال : كان قوم لوط أربعة آلاف ألف .

﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا** ﴾ معطوف على ما تقدم ، أى وأرسلنا . ومدين اسم قبيلة. وقيل : اسم بلد . والأول أولى . وسميت القبيلة باسم أبيهم ،وهو مدين بن إبراهيم [١] كما يقال: بكر وتميم. قوله: ﴿ **أخاهم شعيبا** ﴾ شعيب عطف بيان ، وهو شعيب بن ميكائيل بن يشجب [٢] بن مدين بن إبراهيم ،قاله عطاء،وابن إسحاق وغيرهما . وقال الشرقىّ [٣] بن القطامى: إنه شعيب بن عيفاء بن ثويب بن مدين بن إبراهيم. وزعم ابن سمعان أنه شعيب بن

(١) فى البداية والنهاية ١/ ١٧٣ : « مدين بن مديان بن إبراهيم ».
(٢) فى البداية والنهاية : يشجن (بالنون) وفى القرطبى : يشجر ، بالراء .
(٣) فى المطبوعة : « الشرفى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

حرة بن يشجب بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . وقال قتادة : هو شعيب بن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم [١] . قوله : ﴿ **قال يا قوم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **بينة من ربكم** ﴾ قد سبق شرحه فى قصة نوح .

قوله : ﴿ **فأوفوا الكيل والميزان** ﴾ أمرهم بإيفاء الكيل والميزان ؛ لأنهم كانوا أهل معاملة بالكيل والوزن ، وكانوا لا يوفونهما ، وذكر الكيل الذى هو المصدر ، وعطف عليه الميزان الذى هو اسم للآلة . واختلف فى توجيه ذلك ، فقيل : المراد بالكيل : المكيال ، فتناسب عطف الميزان عليه . وقيل : المراد بالميزان : الوزن ، فيناسب الكيل . والفاء فى ﴿ **فأوفوا** ﴾ للعطف على ﴿ **اعبدوا** ﴾ .

قوله : ﴿ **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ البخس : النقص وهو يكون بالتعييب للسلعة ، أو التزهيد فيها ، أو المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه ، وكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل ، وظاهر قوله : ﴿ **أشياءهم** ﴾ أنهم كانوا يبخسون الناس فى كل الأشياء . وقيل : كانوا مكاسين [٢] ، يمكسون كل ما دخل إلى أسواقهم . ومنه قول زهير [٣] :

أفى كل أسواق العراق إتاوة وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم

قوله : ﴿ **ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها** ﴾ قد تقدم تفسيره قريبا ، ويدخل تحته قليل الفساد وكثيره ودقيقه وجليله ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلكم** ﴾ إلى العمل بما أمرهم به ، وترك ما نهاهم عنه ، والمراد بالخيرية هنا : الزيادة المطلقة ، لأنه لا خير فى عدم إيفاء الكيل والوزن ، وفى بخس الناس ، وفى الفساد فى الأرض أصلاً .

قوله : ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون** ﴾ الصراط : الطريق ، أى لا تقعدوا بكل طريق توعدون الناس بالعذاب . قيل : كانوا يقعدون فى الطرقات المفضية إلى شعيب ، فيتوعدون من أراد المجىء إليه ، ويقولون : إنه كذاب فلا تذهب إليه ، كما كانت قريش تفعله مع النبى ﷺ قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدى وغيرهم . وقيل : المراد : القعود على طرق الدين ، ومنع من أراد سلوكها . وليس المراد به القعود على الطرق حقيقة . ويؤيده : ﴿ **وتصدون عن سبيل الله من آمن به** ﴾ وقيل : المراد بالآية النهى عن قطع الطريق ، وأخذ السلب ، وكان ذلك من فعلهم . وقيل : إنهم كانوا عشارين يأخذون الجباية فى الطرق من أموال الناس ، فنهوا عن ذلك . والقول الأول أقربها إلى الصواب ، مع أنه لا مانع من حمل النهى على جميع هذه الأقوال المذكورة . وجملة : ﴿ **توعدون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وكذلك ما عطف عليها ، أى لا تقعدوا بكل طريق موعدين لأهله ، صادين عن سبيل الله ، باغين لها عوجا ، والمراد بالصد ﴿ **عن سبيل الله** ﴾ صد الناس عن الطريق ، الذى قعدوا عليه ،

---

(١) فى البداية والنهاية ١/ ١٧٣ حقق ابن كثير كل ذلك .

(٢) ينقصون الثمن . ماكسه فى البيع مماكسة أى : طلب منه أن ينقص الثمن . الحديث : « لا يدخل صاحب مكس الجنة » أحمد ٤/ ١٤٣ وأبو داود فى الإمارة (٢٩٣٧) والدارمى فى الزكاة ١/ ٣٩٣ .

(٣) فى الصحاح : الشعر لجابر التغلبى .

ومنعهم من الوصول إلى شعيب ، فإن سلوك الناس فى ذلك السبيل للوصول إلى نبى الله هو سلوك سبيل الله ، و ﴿ **من آمن به** ﴾ مفعول ﴿ **تصدون** ﴾ . والضمير فى ﴿ **آمن به** ﴾ يرجع إلى الله ، أو إلى سبيل الله ، أو إلى كل صراط ، أو إلى شعيب . ﴿ **وتبغونها عوجاً** ﴾ أى تطلبون سبيل الله أن تكون معوجة غير مستقيمة ، وقد سبق الكلام على العوج [١] . قال الزجاج : كسر العين فى المعانى ، وفتحها فى الأجرام [٢] . ﴿ **واذكروا إذ كنتم** ﴾ أى وقت كنتم ﴿ **قليلاً** ﴾ عددكم ﴿ **فكثركم** ﴾ بالنسل . وقيل : كنتم فقراء فأغناكم .

﴿ **وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ من الأمم الماضية . فإن الله أهلكهم ، وأنزل بهم من العقوبات ماذهب بهم ومحا أثرهم . ﴿ **وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به** ﴾ إليكم من الأحكام التى شرعها الله لكم . ﴿ **وطائفة** ﴾ منكم ﴿ **لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين** ﴾ ، هذا من باب التهديد والوعيد الشديد لهم ، وليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر ، وحكم الله بين الفريقين ، هو نصر المحقين على المبطلين . ومثله قوله تعالى : ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ [التوبة : ٥٢] أو هو أمر للمؤمنين بالصبر ، على ما يحل بهم من أذى الكفار ، حتى ينصرهم الله عليهم .

﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه** ﴾ أى قال الأشراف المستكبرون : ﴿ **لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك** ﴾ . لم يكتفوا بترك الإيمان والتمرد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه ، بل جاوزوا ذلك بغيا وبطرا وأشرا إلى توعد نبيهم، ومن آمن به ، بالإخراج من قريتهم ، أو عوده هو ومن معه فى ملتهم الكفرية ، أى لابد من أحد الأمرين : إما الإخراج ، أو العود . قال الزجاج : يجوز أن يكون العود بمعنى الابتداء . يقال : عاد إلىَّ من فلان مكروه ، أى صار وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك ، فلا يرد ما يقال : كيف يكون شعيب على ملتهم الكفرية من قبل أن يبعثه الله رسولاً ؟ ويحتاج إلى الجواب بتغليب قومه المتبعين له عليه فى الخطاب ، بالعود إلى ملتهم[٣] .

وجملة : ﴿ **قال أو لو كنا كارهين** ﴾ مستأنفة جواب عن سؤال مقدر . والهمزة لإنكار وقوع ما طلبوه من الإخراج أو العود والواو للحال ، أى أتعيدوننا فى ملتكم فى حال كراهتنا

---

(١) راجع الآية ٩٩ من سورة آل عمران .

(٢) فى المطبوعة : « الإحرام » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ومن القرطبى ٤/ ٢٦٨٥ .

(٣) يقول بعض العلماء: إن الفعل «عاد» كثيرا ما يستعمل بمعنى « صار » وحينئذ يكون المعنى : الانتقال من حال سابقة إلى حالة مؤتنفة مثل «صار». وكأنهم قالوا: ـ والله أعلم ـ ﴿ **لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا** ﴾ أو لتصيرن كفارا مثلنا، وحينئذ يندفع السؤال، أو يسلم استعمال العود بمعنى : الرجوع إلى أمر سابق ، ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى : ﴿ **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾ [البقرة : ٢٥٧] والإخراج يستدعى دخولا سابقا فيما وقع الإخراج منه ، ونحن نعلم أن المؤمن الناشئ فى الإيمان ، لم يدخل قط فى ظلمة الكفر ، ولا كان فيها ، وكذلك الكافر الأصلى لم يدخل قط فى نور الإيمان ، ولاكان فيه .

للعود إليها ، أو أتخرجوننا من قريتكم فى حال كراهتنا للخروج منها ، أو فى حال كراهتنا للأمرين جميعاً ، والمعنى : إنه ليس لكم أن تكرهونا على أحد الأمرين ، ولا يصح لكم ذلك، فإن المكره لا اختيار له ، ولا تعد موافقته مكرها موافقة ، ولا عوده إلى ملتكم مكرها عودا ، وبهذا التقرير يندفع ما استشكله كثير من المفسرين فى هذا المقام ، حتى تسبب عن ذلك تطويل ذيول الكلام .

﴿ **قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم** ﴾ التى هى الشرك ﴿ **بعد إذ نجانا الله منها** ﴾ بالإيمان ، فلا يكون منا عود إليها أصلاً . ﴿ **وما يكون لنا** ﴾ أى ما يصح لنا ولا يستقيم ﴿ **أن نعود فيها** ﴾ بحال من الأحوال ﴿ **إلا أن يشاء الله** ﴾ أى إلا حال مشيئته سبحانه، فإنه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن . قال الزجاج : أى إلا بمشيئة الله عز وجل ، قال: وهذا قول أهل السنة. والمعنى : أنه لا يكون منا العود إلى الكفر ، إلا أن يشاء الله ذلك ، فالاستثناء منقطع . وقيل : إن الاستثناء هنا على جهة التسليم لله عز وجل ؛ كما فى قوله : ﴿ وما توفيقى إلا بالله ﴾ [هود : ٨٨] . وقيل : هو كقولهم: لا أكلمك حتى يبيض الغراب ، وحتى يلج الجمل فى سم الخياط، والغراب لا يَبْيَضُّ ، والجمل لا يلج ، فهو من باب التعليق بالمحال .

﴿ **وسع ربنا كل شىء علما** ﴾ أى أحاط علمه بكل المعلومات ، فلا يخرج عنه منها شىء، و ﴿ **علما** ﴾ منصوب على التمييز . وقيل : المعنى ﴿ **وما يكون لنا أن نعود فيها** ﴾ أى القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا لهم ﴿**إلا أن يشاء الله** ﴾ عودنا إليها . ﴿ **على الله توكلنا** ﴾ أى عليه اعتمدنا ، فى أن يثبتنا على الإيمان ، ويحول بيننا وبين الكفر وأهله ، ويتم علينا نعمته ، ويعصمنا من نقمته .

قوله: ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾ الفتاحة : الحكومة [(١)]، أى احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الحاكمين . دعوا الله سبحانه أن يحكم بينهم ، ولا يكون حكمه سبحانه إلا بنصر المحقين على المبطلين ، كما أخبرنا به فى غير موضع من كتابه ، فكأنهم طلبوا نزول العذاب بالكافرين ، وحلول نقمة الله بهم . ﴿**وقال الملأ الذين كفروا من قومه** ﴾ معطوف على﴿ **قال الملأ الذين استكبروا** ﴾ يحتمل أن يكون هؤلاء هم أولئك ، ويحتمل أن يكونوا غيرهم من طوائف الكفار ، الذين أرسل إليهم شعيب ، واللام فى ﴿ **لئن اتبعتم شعيبا** ﴾ موطئة لجواب قسم محذوف ، أى دخلتم فى دينه، وتركتم دينكم. ﴿ **إنكم إذاً لخاسرون** ﴾ جواب القسم ساد مسد جواب الشرط . وخسرانهم : هلاكهم ، أو ما يخسرونه

---

(١) ذكر الفراء أن أهل عمان يسمون القاضى (الفاتح) و (الفتاح) وذكر غيره من أهل العلم بكلام العرب أنه من لغة مراد ، وأنشد لبعضهم بيتا وهو :

ألا أبلغ بنى عصم رسولا بأنى عن فتاحتكم غنى

راجع : مجاز القرآن الكريم لأبى عبيدة ١/ ٢٢٠ ، ٢٢١

بسبب إيفاء الكيل والوزن ،وترك التطفيف ، الذى كانوا يعاملون الناس به ﴿**فأخذتهم الرجفة** ﴾ أى الزلزلة . وقيل : الصيحة كما فى قوله : ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحة ﴾[هود: ٩٤] ﴿**فأصبحوا فى دارهم جاثمين** ﴾ قد تقدم تفسيره فى قصة صالح .

قوله: ﴿ **الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها** ﴾ هذه الجملة مستأنفة ،مبينة لما حل بهم من النعمة ،والموصول مبتدأ ،و﴿ **كأن لم يغنوا** ﴾ خبره.يقال:غنيت بالمكان ، إذا أقمت به ، وغنى القوم فى دارهم،أى طال مقامهم فيها،والمغنى : المنزل. والجمع : المغانى . قال حاتم الطائى:

غنينا زماناً بالتصعلك [١] والغنى ... وكلاً سقاناه بكأسيهما الدهر [٢]

فمـا زادنا بغيـا على ذى قـرابـة ... غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر[٣]

ومعنى الآية:الذين كذبوا شعيبا كأن لم يقيموا فى دارهم ،لأن الله ــ سبحانه ــ استأصلهم بالعذاب ، والموصول فى ﴿ **الذين كذبوا شعيبا** ﴾ مبتدأ خبره ﴿ **كانوا هم الخاسرين** ﴾ وهذه الجملة مستأنفة كالأولى ، متضمنة لبيان خسران القوم المكذبين . ﴿ **فتولى عنهم** ﴾ أى : شعيب لما شاهد نزول العذاب بهم . ﴿ **وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى** ﴾ التى أرسلنى بها إليكم، ﴿ **ونصحت لكم** ﴾ ببيان ما فيه سلامة دينكم ، ودنياكم ، ﴿ **فكيف آسى** ﴾ أى أحزن ﴿ **على قوم كافرين** ﴾ بالله ، مصرين على كفرهم ، متمردين عن الإجابة ؛ والأسى: شدة الحزن ، آسى على ذلك فهو آس. قال شعيب : هذه المقالة ؛ تحسرا على عدم إيمان قومه ، ثم سلا نفسه بأنه : كيف يقع منه الأسى على قوم ليس بأهل للحزن عليهم لكفرهم بالله ، وعدم قبولهم لما جاء به رسوله.

وقد أخرج ابن إسحاق وابن عساكر عن عكرمة والسدى قالا : ما بعث الله نبيا مرتين إلا شعيبا ، مرة إلى مدين ، فأخذتهم الصيحة ، ومرة إلى أصحاب الأيكة [٤] ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾ [الشعراء : ١٨٩] وأخرج ابن أبى حاتم عـن ابن عباس : ﴿ **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ قال : لا تظلموا الناس . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ قال : لا تظلموهم . ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون** ﴾ قال: كانوا يوعدون من أتى شعيبا وغشيه وأراد الإسلام .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط**

---

(١) تصعلك : افتقر ، والتصعلُك : الفقر . (٢) يطلق على الزمان وهو الدهر قل أو كثر .

(٣) فى ديوانه ١١٩ :

غـنـيـنـا زمانـا بالتصـعلك والغنـى ... كما الدهر فى أيامه العسر واليسر

كسبنا صروف الدهر لينا وغلظة ... وكلا سـقانـاه بكأسيـهمـا الدهـر

وراجع : الأغانى ١٧ / ٢٩٦ وخزانة الأدب للبغدادى ٢ / ١٦٣ .

(٤) الأيك : الشجر الملتف الكثير . الواحدة : أيكة ، قال قتادة : كان أصحاب الأيكة أهل غيضة وشجر ، وكانت عامة شجرهم الدوم ، وهو : شجر المُقل .

توعدون ﴾ قال : كانوا يجلسون فى الطريق ، فيخبرون من أتى عليهم أن شعيبا كذاب ، فلا يفتننكم عن دينكم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **بكل صراط توعدون** ﴾ قال: بكل سبيل حق . ﴿**وتصدون عن سبيل الله** ﴾ قال : تصدون أهلها . ﴿ **وتبغونها عوجا** ﴾ قال : تلتمسون لها الزيغ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون** ﴾ قال: هو العاشر [1] . ﴿ **وتصدون عن سبيل الله** ﴾ ، قال : تصدون عن الإسلام . ﴿ **وتبغونها عوجا** ﴾ قال : هلاكاً . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : هم العُشَّار . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية عن أبى هريرة أو غيره ، شك أبو العالية ، قال : أتى النبى ﷺ ليلة أسرى به على خشبة على الطريق ، لا يمر بها ثوب ، إلا شقته ، ولا شىء إلا خرقته ، قال : « ما هذا يا جبريل ؟ » . قال: هذا مثل أقوام من أمتك ، يقعدون على الطريق فيقطعونه ، ثم تلا: ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون** ﴾ [2] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وما يكون لنا أن نعود فيها** ﴾ ، قال : ما ينبغى لنا أن نعود فى شرككم بعد إذ نجانا الله ﴿ **إلا أن يشاء الله ربنا** ﴾ والله لا يشاء الشرك ، ولكن يقول : إلا أن يكون الله قد علم شيئاً ، فإنه قد وسع كل شىء علما . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم، والبيهقى فى الأسماء والصفات، وابن الأنبارى فى الوقف والابتداء عن ابن عباس قال: ما كنت أدرى ما قوله: ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق** ﴾ حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول : تعال أفاتحك . تعنى : أقاضيك. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ربنا افتح** ﴾ يقول : اقض . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : الفتح : القضاء ، لغة يمانية. إذا قال أحدهم : تعال أقاضك القضاء قال : تعال أفاتحك.

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **لم يغنوا فيها** ﴾ قال:لم يعيشوا فيها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **فكيف آسى** ﴾ ، قال : أحزن . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس ، قال : فى المسجد الحرام قبران ، ليس فيه غيرهما ، قبر إسماعيل وقبر شعيب ، فقبر إسماعيل فى الحجر، وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود . وأخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه أن شعيبا مات بمكة ومن معه من المؤمنين ، فقبورهم فى غربى الكعبة بين دار الندوة وبين باب بنى سهم . وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم عن ابن إسحاق قال : ذكر لى يعقوب بن أبى مسلمة ؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر شعيبا ، قال : « ذاك خطيب الأنبياء ؛ لحسن

---

(١) العاشر : من يأخذ على السلع مكْسا ، وقد كانوا فى الجاهلية يأخذون العشر من الأموال ، فجاء الإسلام بربع العشر . وجمع العاشر : العشار أوالعاشرون .

(٢) ابن جرير ٨/ ١٦٧ والبيهقى ٢/ ٣٩٨ .

مراجعته قومه ، فيما يريدهم به ، فلما كذبوه ، وتوعدوه بالرجم ، والنفى من بلادهم ، وعتوا على الله ، أخذهم عذاب يوم الظلة » (١) .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (١٠٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **وما أرسلنا فى قرية من نبى** ﴾ لما فصل الله سبحانه أحوال بعض الأنبياء مع أممهم ، وهم المذكورون سابقاً، أجمل حال سائر الأمم المرسل إليها ، أى وما أرسلنا فى قرية من القرى من نبى من الأنبياء . وفى الكلام محذوف، أى فكذب أهلها ﴿ **إلا أخذناهم** ﴾ والاستثناء مفرغ ، أى ما أرسلنا فى حال من الأحوال، إلا فى حال أخذنا أهلها ، فمحل أخذنا النصب . والبأساء : البؤس والفقر . والضراء :الضر. وقد تقدم تحقيق معنى البأساء والضراء . ﴿ **لعلهم يضرعون** ﴾ أى لكى يتضرعوا ويتذللوا ، فيدعوا ما هم عليه من الاستكبار، وتكذيب الأنبياء .

قوله : ﴿ **ثم بدلنا** ﴾ معطوف على ﴿ **أخذنا** ﴾ أى ثم بعد الأخذ لأهل القرى بدلناهم ﴿ **مكان السيئة** ﴾ التى أصبناهم بها من البلاء ، والامتحان ﴿ **الحسنة** ﴾ أى الخصلة الحسنة ، فصاروا فى خير وسعة وأمن ﴿ **حتى عفوا** ﴾ ، يقال: عفا : كثر ، وعفا: درس . فهو من أسماء الأضداد ، والمراد هنا : أنهم كثروا فى أنفسهم ، وفى أموالهم ، أى أعطيناهم الحسنة ، مكان السيئة ، حتى كثروا ﴿ **وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء** ﴾ أى قالوا هذه المقالة عند أن صاروا فى الحسنة ، بعد السيئة ، أى أن هذا الذى مسنا من البأساء والضراء ، ثم من الرخاء والخصب من بعد ،هو أمر وقع لآبائنا قبلنا مثله. فمسهم من البأساء والضراء ما مسنا ، ومن النعمة والخير ما نلناه، ومعناهم : أن هذه العادة الجارية فى السلف والخلف ، وأن ذلك ليس من الله سبحانه ابتلاء لهم ، واختبارا لما عندهم ، وفى هذا من شدة عنادهم وقوة تمردهم وعتوهم مالا يخفى ولهذا عاجلهم الله بالعقوبة ، ولم يمهلهم، فقال : ﴿ **فأخذناهم بغتة** ﴾ أى فجأة ، عقب أن قالوا : هذه المقالة من دون تراخٍ ، ولا إمهال « و » الحال أن ﴿**هم لا**

(١) أخرجه الحاكم ٥/ ٥٦٨ عن ابن إسحاق من قوله مختصرا ، وسكت عليه هو والذهبى .

يشعرون ﴾ بذلك ، ولا يترقبونه . واللام فى ﴿ **القرى** ﴾ للعهد، أى ﴿ **ولو أن أهل القرى** ﴾ التى أرسلنا إليها رسلنا . ﴿ **آمنوا** ﴾ بالرسل المرسلين إليهم ﴿ **واتقوا** ﴾ ما صمموا عليه من الكفر،ولم يُصروا على ما فعلوا من القبائح.﴿ **لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾ ، أى يسرنا لهم خير السماء والأرض،كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة ، بفتح أبوابها . قيل : المراد بخير السماء : المطر ، وخير الأرض : النبات . والأولى حمل ما فى الآية على ما هو أعم من ذلك ، ويجوز أن تكون اللام فى ﴿ **القرى** ﴾ للجنس . والمراد : لو أن أهل القرى أين كانوا، وفى أى بلاد سكنوا ، ﴿ **آمنوا واتقوا** ...﴾ إلى آخر الآية .﴿ **ولكن كذبوا** ﴾ بالآيات والأنبياء ولم يؤمنوا ولا اتقوا ﴿ **فأخذناهم** ﴾ بالعذاب بسبب ﴿ **ما كانوا يكسبون** ﴾ من الذنوب الموجبة لعذابهم . والاستفهام فى ﴿ **أفأمن أهل القرى** ﴾ للتقريع والتوبيخ ، وأهل القرى: هم أهل القرى المذكورة قبله ، والفاء للعطف ، وهو مثل ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ [المائدة : ٥٠] . وقيل : المراد بالقرى : مكة وما حولها ، لتكذيبهم للنبى ﷺ والحمل على العموم أولى.

قوله : ﴿ **أن يأتيهم بأسنا بياتاً** ﴾ ، أى وقت بيات وهو الليل ، على أنه منصوب على الظرفية ، ويجوز أن يكون مصدراً ، بمعنى تبييتا [1] ، أو مصدراً فى موضع الحال،أى مبيتين ، وجملة : ﴿ **وهم نائمون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، والاستفهام فى ﴿ **أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون** ﴾ كالاستفهام الذى قبله . والضحى ضحوة النهار ، وهو فى الأصل : اسم لضوء الشمس ، إذا أشرقت وارتفعت ، قرأ ابن عامر ، والحرميان : « أوْ أمن » بإسكان الواو ، وقرأ الباقون بفتحها . وجملة : ﴿ **وهم يلعبون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى يشتغلون بما لا يعود عليهم بفائدة .والاستفهام فى ﴿ **أفأمنوا مكر الله** ﴾ للتقريع ، والتوبيخ ، وإنكار ما هم عليه من أمان مالا يؤمن من مكر الله بهم وعقوبته لهم ، وفى تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير ، لإنكار ما أنكره عليهم ، ثم بين حال من أمن مكر الله فقال: ﴿ **فلا يأمن مكر الله إلاَّ القوم الخاسرون** ﴾ ، أى الذين أفرطوا فى الخسران ، ووقعوا فى وعيده الشديد. وقيل: مكر الله هنا :هو استدراجه بالنعمة والصحة . والأولى حمله على ما هو أعم من ذلك .

قوله : ﴿ **أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها** ﴾ قرئ : « نهد » بالنون وبالتحتية. فعلى القراءة بالنون يكون فاعل الفعل هو الله سبحانه ، ومفعول الفعل ﴿ **أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم** ﴾ أى أن الشأن هو هذا، وعلى القراءة بالتحتية يكون فاعل يهد هو ﴿ **أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم** ﴾ أى أخذناهم بكفرهم وتكذيبهم . والهداية هنا بمعنى : التبيين ،

(١) فى المطبوعة : « تبيتا » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

ولهذا عديت باللام .

قوله : ﴿ **ونطبع على قلوبهم** ﴾ أى ونحن نطبع على قلوبهم ، على الاستئناف ، ولا يصح عطفه على ﴿ **أصبنا** ﴾ لأنهم ممن طبع الله على قلبه ، لعدم قبولهم للإيمان [١] . وقيل : هو معطوف على فعل مقدر دل عليه الكلام . كأنه قيل : يغفلون عن الهداية ، ونطبع . وقيل : معطوف على ﴿ **يرثون** ﴾ . قوله : ﴿ **فهم لا يسمعون** ﴾ جواب « لو » أى صاروا بسبب إصابتنا لهم بذنوبهم ، والطبع على قلوبهم ، لا يسمعون ما يتلوه عليهم من أرسله الله إليهم من الوعظ والإعذار والإنذار .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة** ﴾ قال : مكان الشدة الرخاء . ﴿ **حتى عفوا** ﴾ ، قال : كثروا ، وكثرت أموالهم. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **حتى عفوا** ﴾ ، قال : جَمُّوا [٢] . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **قد مس آباءنا الضراء والسراء** ﴾ ، قال : قالوا : قد أتى على آبائنا مثل هذا ، فلم يكن شيئا . ﴿**فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون** ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا** ﴾ قال : بما أنزل الله . ﴿**واتقوا** ﴾ قال : ما حرمه الله . ﴿ **لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾ يقول : أعطتهم السماء بركتها، والأرض نباتها . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق معاذ بن رفاعة ، عن موسى الطائفى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أكرموا الخبز ، فإن الله أنزله من بركات السماء ، وأخرجه من بركات الأرض » . وأخرج البزار والطبرانى ، قال السيوطى : بسند ضعيف، عن عبد الله بن أم حرام قال : صليت القبلتين مع رسول الله ﷺ وسمعت رسول الله ﷺ يقول:« أكرموا الخبز ، فإن الله أنزله من بركات السماء ، وسخر له بركات الأرض ، ومن تتبع ما يسقط من السفرة [٣] ، غفر له » [٤] . وأخرج ابن أبى شيبة عن

---

(١) قال ابن الأنبارى : « يجوز أن يكون معطوفا على : أصبنا ، إذا كان بمعنى نصيب ، فوضع الماضى فى موضع المستقبل عند وضوح معنى الاستقبال كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا** ﴾ [الفرقان: ١٠] » .

(٢) أى : كثروا ، ومنه : مال جم أى كثير .

(٣) السُّفْرَةُ : طعام يصنع للمسافر ، والجمع (سُفَرٌ) وسميت الجلدة التى يصنع فيها الطعام (سفرة) مجازا .

(٤) أورده السيوطى فى الدر المنثور ٣/ ١٤٠ وقال : « أخرجه البزار والطبرانى بسند ضعيف » . وأورده البخارى فى التاريخ الكبير (١٩٦٨) عن موسى الطائفى ، و عزاه الهيثمى فى المجمع ٥/ ٣٧ للبزار والطبرانى ، وقال: « وفيه عبد الله بن عبد الرحمن الشامى ، ولم أعرفه ، وصوابه عبد الملك بن عبد الرحمن الشامى ، وهو ضعيف » وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ٥/ ٢٤٦ . والحديث مروى عن جماعة من الصحابة من طرق كلها ضعيفة ، غير أنه لا يصل إلى درجة الوضع . انظر فى ذلك : المقاصد الحسنة ص ٧٨ (١٥٣) وكشف الخفاء ١/ ١٧٠ ، ١٧١ (٥٠٨) .

الحسن ، قال : كان أهل قرية أوسع الله عليهم ، حتى كانوا يستنجون بالخبز ، فبعث الله عليهم الجوع .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أو لم يهد** ﴾ قال : أو لم يبين. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **للذين يرثون الأرض من بعد أهلها** ﴾ قال : المشركون .

﴿ **تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)** ﴾ .

قوله : ﴿ **تلك القرى** ﴾ أى التى أهلكناها . وهى قرى قوم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، المتقدم ذكرها ، ﴿**نقص عليك** ﴾ أى نتلو عليك ﴿ **من أنبائها** ﴾ أى من أخبارها . وهذه تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين . و﴿**نقص** ﴾ إما فى محل نصب على أنه حال ، و ﴿ **تلك القرى** ﴾ مبتدأ وخبر ، أو يكون فى محل رفع على أنه الخبر. و ﴿ **القرى** ﴾ صفة لـ ﴿ **تلك** ﴾. و ﴿ **من** ﴾ فى ﴿ **من أنبائها** ﴾ للتبعيض ، أى نقص عليك بعض أنبائها ، واللام فى ﴿ **ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ جواب القسم ، والمعنى : أن من أخبارهم أنها جاءتهم رسل الله ببيناته ، كما سبق بيانه فى قصص الأنبياء المذكورين قبل هذا . ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا** ﴾ عند مجىء الرسل ﴿ **بما كذبوا** ﴾ به ﴿ **من قبل** ﴾ مجيئهم، أو فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل ، فى حال من الأحوال ، ولا فى وقت من الأوقات ، بما كذبوا به قبل مجيئهم ، بل هم مستمرون على الكفر ، متشبثون بأذيال الطغيان [1] دائماً ، ولم ينجع فيهم مجىء الرسل ، ولا ظهر له أثر ، بل حالهم عند مجيئهم كحالهم قبله . وقيل : المعنى : فما كانوا ليؤمنوا بعد هلاكهم ، بما كذبوا به لو أحييناهم، كقوله: ﴿ ولو ردوا لعادوا ﴾ [الأنعام : ٢٨] وقيل :سألوا المعجزات ، فلما رأوها ، لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤيتها، والأول أولى، ومعنى تكذيبهم قبل مجىء الرسل: أنهم كانوا فى الجاهلية يكذبون بكل ما سمعوا به ، من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

قوله : ﴿ **كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين** ﴾ أى مثل ذلك الطبع الشديد يطبع الله على قلوب الكافرين، فلا ينجع فيهم بعد ذلك وعظ ولا تذكير ولا ترغيب ولا ترهيب. قوله : ﴿ **وما وجدنا لأكثرهم من عهد** ﴾ ، الضمير يرجع إلى أهل القرى المذكورين سابقاً ، أى ما وجدنا لأكثر أهل هذه القرى من عهد ، أى عهد يحافظون عليه ، ويتمسكون به ، بل دأبهم

---

(١) الطغيان : هو مجاوزة الحد ، وكل من جاوز المقدار والحد فى العصيان فهو : طاغ .

نقض العهود فى كل حال . وقيل : الضمير يرجع إلى الناس على العموم ، أى ما وجدنا لأكثر الناس من عهد . وقيل : المراد بالعهد : هو المأخوذ عليهم فى عالم الذر . وقيل : الضمير يرجع إلى الكفار على العموم من غير تقييد بأهل القرى ، أى الأكثر منهم لا عهد ولا وفاء . والقليل منهم قد يفى بعهده ويحافظ عليه ،و « إن » فى ﴿ **وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، وضمير الشأن محذوف ، أى إن الشأن وجدنا أكثرهم لفاسقين ، أو هى النافية . واللام فى ﴿ **لفاسقين** ﴾ بمعنى إلا ، أى إلا فاسقين خارجين عن الطاعة خروجاً شديداً .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى بن كعب فى قوله : ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل** ﴾ قال : كان فى علم الله يوم أقروا له بالميثاق من يكذب به ممن يصدق به . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل** ﴾ قال : مثل قوله : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : ٢٨] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **وما وجدنا لأكثرهم من عهد** ﴾ قال : الوفاء . وأخرج ابن أبى حاتم فى الآية قال : هو ذاك العهد يوم أخذ الميثاق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾ قال : ذاك أن الله إنما أهلك القرى ، لأنهم لم يكونوا حفظوا ما وصاهم به .

﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا**

كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **ثم بعثنا من بعدهم موسى** ﴾ أى من بعد نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، أى ثم أرسلنا موسى بعد إرسالنا لهؤلاء الرسل. وقيل: الضمير فى ﴿ **من بعدهم** ﴾ راجع إلى الأمم السابقة ، أى من بعد إهلاكهم . ﴿ **إلى فرعون وملئه**﴾ فرعون : هو لقب لكل من يملك أرض مصر بعد العمالقة [1] . وملأ فرعون : أشراف قومه ، وتخصيصهم بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم ، لأن من عداهم كالأتباع لهم . قوله:﴿ **فظلموا بها** ﴾ أى كفروا بها . وأطلق الظلم على الكفر لكون كفرهم بالآيات التى جاء بها موسى كان كفرا متبالغاً ، لوجود ما يوجب الإيمان من المعجزات العظيمة ، التى جاءهم بها . والمراد بالآيات هنا: هى الآيات التسع . أو معنى ﴿**فظلموا بها** ﴾، ظلموا الناس بسببها لما صدوهم عن الإيمان بها ، أو ظلموا أنفسهم بسببها.﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ أى المكذبين بالآيات الكافرين بها، وجعلهم مفسدين لأن تكذيبهم وكفرهم من أقبح أنواع الفساد .

قوله : ﴿ **وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين** ﴾ أخبره بأنه مرسل من الله إليه ، وجعل ذلك عنواناً لكلامه معه ؛ لأن من كان مرسلاً من جهة مَنْ هو رب العالمين أجمعين ، فهو حقيق بالقبول لما جاء به ، كما يقول من أرسله الملك فى حاجة إلى رعيته : أنا رسول الملك إليكم ، ثم يحكى ما أرسل له ، فإن فى ذلك من تربية المهابة وإدخال الروعة ما لا يقادر قدره.

قوله : ﴿ **حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق** ﴾: قرئ : « حقيق علىَّ أن لا أقول » أى واجب علىَّ ولازم لى ، أن لا أقول فيما أبلغكم عن الله إلا القول الحق. وقرئ : ﴿ **حقيق على أن لا أقول** ﴾ بدون ضمير فى «على » قيل فى توجيهه : إن « **على** » بمعنى الباء ، أى حقيق بأن لا أقول . ويؤيده قراءة أبى والأعمش ، فإنهما قرآ : « حقيق بأن لا أقول». وقيل : إن ﴿**حقيق**﴾ مضمن معنى حريص . وقيل : إنه لما كان لازماً للحق ، كان الحق لازماً له . فقول الحق حقيق عليه ، وهو حقيق على قول الحق . وقيل : إنه أغرق فى وصف نفسه فى ذلك المقام ، حتى جعل نفسه حقيقة على قول الحق ، كأنه وجب على الحق أن يكون موسى هو قائله. وقرأ عبد الله بن مسعود : « حقيق أن لا أقول » بإسقاط «على » . ومعناها واضح . ثم قال بعد هذا : ﴿ **قد جئتكم ببينة من ربكم** ﴾ أى بما يتبين به صدقى ، وأنى رسول من رب

(١) وقيل: « إذا أضيفت إليه الإسكندرية سمى عزيزا ، واختلف فى اسمه ، فقيل : مصعب بن الوليد ، وقيل: ريان بن الوليد ، وقيل : الوليد بن ريان، وكان أصله من خراسان من مدينة بورمان » . قال الشاعر :

تكبر فرعون القبيطى عاتيا فصار غريق البحر فى قعر يمِّه
كما تاه إبليس اللعين تجبرا وكان وَقُودا للسعير بغمه

العالمين ، وقد طوى هنا ذكر ما دار بينهما من المحاورة ، كما فى موضع آخر أنه قال فرعون : ﴿فمن ربكما يا موسى﴾ [طه : ٤٩] . ثم قال بعد جواب موسى : ﴿ وما رب العالمين ﴾ [الشعراء : ٢٣] الآيات الحاكية لما دار بينهما .

قوله : ﴿ **فأرسل معى بنى إسرائيل** ﴾ : أمره بأن يدع بنى إسرائيل يذهبون معه ، ويرجعون إلى أوطانهم ، وهى الأرض المقدسة ، وقد كانوا باقين لديه ، مستعبدين ممنوعين من الرجوع إلى وطنهم ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، فلما قال ذلك، ﴿ **قال** ﴾ له فرعون ﴿ **إن كنت جئت بآية** ﴾ من عند الله كما تزعم ، ﴿ **فأت بها** ﴾ حتى نشاهدها ، وننظر فيها ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾ فى هذه الدعوى ، التى جئت بها .

قوله : ﴿ **فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين** ﴾ أى وضعها على الأرض فانقلبت ثعباناً ، أى حية عظيمة من ذكور الحيات . ومعنى ﴿ **مبين** ﴾ أن كونها حيَّة فى تلك الحال أمر ظاهر واضح لا لبس فيه . ﴿ **ونزع يده** ﴾ أى أخرجها وأظهرها من جيبه ، أو من تحت إبطه ، وفى التنزيل : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ [النمل : ١٢]. قوله: ﴿ **فإذا هى بيضاء للناظرين** ﴾ أى فإذا يده التى أخرجها بيضاء تتلألأ نوراً ، يظهر لكل مبصر .

﴿ **قال الملأ** ﴾ أى الأشراف ﴿ **من قوم فرعون** ﴾ لما شاهدوا انقلاب العصا حية ، ومصير يده بيضاء من غير سوء: ﴿ **إن هذا** ﴾ أى موسى ﴿ **لساحر عليم** ﴾ أى كثير العلم بالسحر[1]. ولا تنافى بين نسبة هذا القول إلى الملأ هنا وإلى فرعون فى سورة الشعراء ، فكلهم قد قالوه . فكان ذلك مصححا لنسبته إليهم تارة وإليه أخرى.

وجملة : ﴿ **يريد أن يخرجكم من أرضكم** ﴾ وصف ﴿ **لساحر**﴾ . والأرض المنسوبة إليهم هى أرض مصر . وهذا من كلام الملأ . وأما ﴿ **فماذا تأمرون** ﴾ فقيل : هو من كلام فرعون ، قال للملأ لما قالوا بما تقدم ، أى بأى شىء تأمروننى . وقيل : هو من كلام الملأ ، أى قالوا لفرعون : فبأى شىء تأمرنا ، وخاطبوه بما تخاطب به الجماعة تعظيماً له ، كما يخاطب الرؤساء أتباعهم . و « ما » فى موضع نصب بالفعل الذى بعدها . ويجوز أن تكون « ذا » بمعنى الذى كما ذكره النحاة فى ماذا صنعت ، وكون هذا من كلام فرعون هو الأولى ، بدليل ما بعده، وهو : ﴿ **قالوا أرجه وأخاه** ﴾ قال : الملأ جواباً لكلام فرعون ، حيث استشارهم ، وطلب ما عندهم من الرأى: ﴿ **أرجه** ﴾ أى أخره وأخاه . يقال : أرجأته وأرجيته : أخرته . قرأ عاصم والكسائى وحمزة وأهل المدينة : « ارجه » بغير همز . وقرأ الباقون بالهمز . وقرأ

---

(١) اختلف فى معنى السحر، فقال بعضهم: هو خدع ومخاريق ومعان يفعلها الساحر، حتى يخيل إلى المسحور الشىء أنه بخلاف ما هو به نظير الذى يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء، ومنه قيل: سحر المطر الأرض إذا جادها، فقطع نباتها من أصوله، وقلب الأرض ظهراً لبطن فهو يسحرها سحرا، والأرض مسحورة إذا أصابها ذلك . فشبه سحر الساحر بذلك لتخييله إلى من سحره أنه يرى الشىء بخلاف ما هو به .

أهل الكوفة إلا الكسائى: « أرجه » بسكون الهاء . قال الفراء : هى لغة للعرب يقفون على الهاء فى الوصل ، وأنكر ذلك البصريون [١] . وقيل : معنى ﴿ **أرجه** ﴾ : احبسه . وقيل : هو من رجا يرجو ، أى أطعمه ودعه يرجوك ، حكاه النحاس عن محمد بن يزيد المبرد. ﴿ **وأرسل فى المدائن حاشرين** ﴾ أى أرسل جماعة حاشرين فى المدائن التى فيها السحرة ، و﴿**حاشرين** ﴾ مفعول ﴿ **أرسل** ﴾ . وقيل : هو منصوب على الحال . و ﴿ **يأتوك** ﴾ جواب الأمر ، أى يأتوك هؤلاء الذين أرسلتهم ﴿ **بكل سحار عليم** ﴾ أى بكل ماهر فى السحر ، كثير العلم بصناعته . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصم: « سحّار ». وقرأ من عداهم: ﴿ **ساحر** ﴾.

قوله : ﴿ **وجاء السحرة فرعون** ﴾ فى الكلام طىّ ، أى فبعث فى المدائن حاشرين ، وجاء السحرة فرعون . قوله: ﴿ **قالوا إن لنا لأجرا** ﴾ أى فلما جاؤوا فرعون قالوا له : إن لنا لأجرا ، والجملة استئنافية جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: أى شىء قالوا له لما جاؤوه ؟ والأجر : الجائزة والجعل [٢] ، ألزموا فرعون أن يجعل لهم جُعلاً ، إن غلبوا موسى بسحرهم ، قرأ نافع وابن كثير ﴿ **إن لنا** ﴾ على الإخبار . وقرأ الباقون : « أئن لنا » على الاستفهام . استفهموا فرعون عن الجعل الذى سيجعله لهم على الغلبة ، ومعنى الاستفهام : التقرير . وأما على القراءة الأولى فكأنهم قاطعون بالجعل ،وأنه لابد لهم منه ، فأجابهم فرعون بقوله : ﴿ **نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾ أى إن لكم لأجراً ، وإنكم مع هذا الأجر المطلوب منكم لمن المقربين لدينا.

قوله : ﴿ **قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين** ﴾ هذه الجملة مستأنفة ، جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فما قالوا لموسى بعد أن قال لهم فرعون :﴿ **نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾ ؟ والمعنى : أنهم خيروا موسى بين أن يبتدئ بإلقاء ما يلقيه عليهم أو يبتدئوه هم بذلك ، تأدبا معه ، وثقة من أنفسهم بأنهم غالبون وإن تأخروا . و« أن » فى موضع نصب ، قاله الكسائى والفراء ، أى إما أن تفعل الإلقاء أو نفعله نحن ، فأجابهم موسى بقوله : ﴿ **ألقوا** ﴾ ، اختار أن يكونوا المتقدمين عليه ، بإلقاء ما يلقونه غير مُبَال بهم ، ولا هائبٍ لما جاؤوا به . قال الفراء: فى الكلام حذف ، المعنى : قال لهم موسى : إنكم لن تغلبوا ربكم ، ولن تبطلوا آياته . وقيل : هو تهديد ، أى ابتدئوا بالإلقاء، فستنظرون ما يحل بكم من الافتضاح . والموجب لهذين التأويلين عند من قال بهما، أنه لا يجوز على موسى أن يأمرهم بالسحر . ﴿ **فلما ألقوا** ﴾ أى حبالهم وعصيهم ﴿ **سحروا أعين الناس** ﴾ أى قلبوها وغيروها عن صحة إدراكها ، بما جاؤوا به من التمويه والتخييل ، الذى يفعله المشعوذون وأهل الخفة. ﴿ **واسترهبوهم** ﴾ أى أدخلوا الرهبة فى قلوبهم إدخالاً شديدا. ﴿ **وجاؤوا بسحر عظيم** ﴾

---

(١) وقال أيضا : بنو أسد تقول : « ارجيت الأمر» ، بغير همز ، وكذلك عامة قيس ، وبعض بنى تميم يقولون: «أرجأت الأمر» بالهمز ، والقراء مولعون بهمزها ، وترك الهمز أجود .

(٢) الجُعل : ما جعله له على عمله ، وهو أعم من الأجرة والثواب .

فى أعين الناظرين لما جاؤوا به ، وإن كان لا حقيقة له فى الواقع .

قوله : ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك** ﴾ أمره الله سبحانه ، عند أن جاء السحرة بما جاؤوا به من السحر ، أن يلقى عصاه ﴿ **فإذا هى** ﴾ أى العصا ﴿ **تلقف ما يأفكون** ﴾ قرأ حفص : ﴿ **تلقف** ﴾ بإسكان اللام ، وتخفيف القاف ، من لقف يلقف [١] . وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد القاف من تلقَّف يتلقَّف . يقال : لقفت الشىء وتلقفته : إذا أخذته ، أو بلعته . قال أبو حاتم : وبلغنى فى بعض القراءات : « تلقم » بالميم ، والتشديد . قال الشاعر :

أنت عصا موسى التى لم تزل ... تلقم ما يأفكه الساحر

و « ما » فى ﴿ **ما يأفكون** ﴾ مصدرية ، أو موصولة ، أى إفكهم ، أو ما يأفكونه ، سماه إفكاً ، لأنه لاحقيقة له فى الواقع ، بل هو كذب وزور وتمويه وشعوذة . ﴿ **فوقع الحق** ﴾ أى ظهر وتبين لما جاء به موسى ﴿ **وبطل ما كانوا يعملون** ﴾ من سحرهم ، أى تبين بطلانه ﴿ **فغلبوا** ﴾ أى السحرة ﴿ **هنالك** ﴾ أى فى الموقف الذى أظهروا فيه سحرهم . ﴿ **وانقلبوا** ﴾ من ذلك الموقف ﴿ **صاغرين** ﴾ أذلاء مقهورين . ﴿ **وألقى السحرة ساجدين** ﴾ أى خروا ساجدين ، كأنما ألقاهم ملق على هيئة السجود ، أو لم يتمالكوا مما رأوا ، فكأنهم ألقوا أنفسهم ، وجملة : ﴿ **قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : ماذا قالوا عند سجودهم ، أو فى سجودهم ؟ وإنما قالوا هذه المقالة ، وصرحوا بأنهم آمنوا برب العالمين ، ثم لم يكتفوا بذلك حتى قالوا : ﴿ **رب موسى وهارون** ﴾ لئلا يتوهم متوهم من قوم فرعون المقرين بإلهيته ، أن السجود له .

وقد أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثم بعثنا موسى** ﴾ قال : إنما سمى موسى ، لأنه أُلقى بين ماء وشجر ، فالماء بالقبطية : مو ، والشجر : سى [٢] . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد ؛ أن فرعون كان فارسيا من أهل اصطخر . وأخرج أيضا عن ابن لهيعة ؛ أنه كان من أبناء مصر . وأخرج أيضا أبو الشيخ عن محمد بن المنكدر قال : عاش فرعون ثلثمائة سنة . وأخرج ابن أبى حاتم عن على بن أبى طلحة ؛ أن فرعون كان قبطيا ، ولد زنا طوله سبعة أشبار . وأخرج أيضا عن الحسن قال : كان علجا [٣] من همذان . وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم بن مقسم الهذلى قال : مكث فرعون أربعمائة سنة ، لم يصدع له رأس .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **فألقى عصاه** ﴾ قال : ذكر لنا أن تلك العصا عصا آدم ، أعطاه إياها ملك حين توجه إلى مدين ، فكانت تضىء بالليل ، ويضرب بها الأرض بالنهار ، فتخرج له رزقه ، ويهش بها على غنمه . ﴿ **فإذا هى ثعبان مبين** ﴾

---

(١) راجع : سورة طه : ٦٩ والشعراء : ٤٥ .

(٢) قال صاحب البصائر : « وهو موضع معروف بمصر لا ينبت شجر البلسان إلا فيه ». راجع : بصائر ذوى التمييز فى كلمات الكتاب العزيز ٦/ ٦١ .

(٣) العِلْج : الرجل الضخم من كفار العجم ، وبعض العرب يُطلق (العِلْجَ) على الكافر مطلقا .

قال : حية تكاد تساوره . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : لقد دخل موسى على فرعون ، وعليه زُرْمَانِقَةٌ (١) من صوف ما تجاوز مرفقيه ، فاستأذن على فرعون ، فقال : أدخلوه . فدخل ، فقال: إن إلهى أرسلنى إليك ، فقال للقوم حوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ [القصص : ٣٨] خذوه . قال : إنى قد جئتك بآية ، قال : فأت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه ، فصارت ثعباناً بين لحييه ، ما بين السقف إلى الأرض، وأدخل يده فى جيبه ، فأخرجها مثل البرق ، تلتمع الأبصار ، فخروا على وجوههم ، وأخذ موسى عصاه ، ثم خرج ليس أحد من الناس إلا نفر منه . فلما أفاق، وذهب عن فرعون الروع ، قال للملأ حوله: ماذا تأمروننى ؟ ﴿ **قالوا أرجه وأخاه** ﴾ ولا تأتنا به ولايقربنا، ﴿ **وأرسل فى المدائن حاشرين** ﴾ وكانت السحرة يخشون من فرعون ، فلما أرسل إليهم قالوا : قد احتاج إليكم إلهكم . قال : إن هذا فعل كذا وكذا . قالوا : إن هذا ساحر سحر ﴿ **إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : عصا موسى اسمها ماشا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طرق عنه فى قوله : ﴿ **فإذا هى ثعبان مبين** ﴾ قال: الحية الذكر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **فإذا هى ثعبان مبين**﴾، قال : الذكر من الحيات ، فاتحة فمها ، واضعة لحيها (٢) الأسفل فى الأرض ، والأعلى على سور القصر،ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه ،فلما رآها ذُعِر منها ووثب فأحدث ، ولم يكن يُحْدِث قبل ذلك . فصاح : يا موسى ، خذها وأنا أومن بربك ، وأرسل معك بنى إسرائيل ، فأخذها موسى فصارت عصا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أرجه** ﴾ ، قال : أخره . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ، قال : احبسه وأخاه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس من طرق فى قوله : ﴿ **وأرسل فى المدائن حاشرين** ﴾ قال : الشُّرَط (٣) . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **وجاء السحرة** ﴾ ، قال : كانوا سبعين رجلاً ، أصبحوا سحرة ، وأمسوا شهداء.

وقد اختلفت كلمة السلف فى عددهم ، فقيل: كانوا سبعين ، كما قال ابن عباس . وقيل: كانوا اثنى عشر. وقيل:خمسة عشر ألفا .وقيل: سبعة عشر ألفاً.وقيل: تسعة عشر ألفا.وقيل :

---

(١) زُرْمَانِقة : أى جبة ، وهى كلمة عبرانية .

(٢) اللحى (بفتح اللام وسكون الحاء) : هما « لحيان » وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم من كل ذى لحى .

(٣) الشُّرَطُ : على لفظ الجمع : اعوان السلطان لأنهم جعلوا لأنفسهم ، علامات ، يعرفون بها للأعداء ، الواحدة (شُرْطَة) ، وإذا نسب إلى هذا قيل: « شُرْطِىٌّ » .

ثلاثين ألفاً . وقيل : سبعين ألفاً. وقيل: ثمانين ألفا . وقيل : ثلاثمائة ألف . وقيل : تسعمائة ألف .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **إن لنا لأجراً** ﴾ أى عطاء . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلما ألقوا** ﴾ قال : ألقوا حبالاً غلاظاً ، وخشباً طوالاً ، فأقبلت يخيل إليه من سحرهم، أنها تسعى . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى قال : ألقى موسى عصاه ، فأكلت كل حية لهم ، فلما رأوا ذلك سجدوا ، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة نحوه .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **تلقف ما يأفكون** ﴾ قال : ما يكذبون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **تلقف ما يأفكون** ﴾، قال: تسترط [1] حبالهم وعصيهم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال : التقى موسى وأمير السحرة ، فقال له موسى : أرأيتك إن غلبتك ، أتؤمن بى ؟ وتشهد أن ما جئت به حق ؟ فقال الساحر: لآتين غداً بسحر ، لا يغلبه سحر . فو الله لئن غلبتنى لأؤمنن بك ، ولأشهدن أنه حق ، وفرعون ينظر إليهما ، وهو قول فرعون: ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة ﴾ [2] [الأعراف: ١٢٣] . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأوزاعى قال : لما خرَّ السحرة سجداً ، رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها .

﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)** ﴾ .

قوله : ﴿ آمنتم به ﴾ قرئ بحذف الهمزة على الإخبار ، وبإثباتها . أنكر على السحرة فرعونُ إيمانهم بموسى قبل أن يأذن لهم بذلك ، ثم قال بعد الإنكار عليهم ، مبيناً لما هو الحامل

(١) سرط الطعام ، واسترطه : إذا ازدرده ، وابتلعه ابتلاعا سهلا سريعا ، لا غُصَّة فيه .
(٢) هذا جزء من خبر طويل رواه أبو جعفر فى تاريخه ١ / ٢١٣ .

لهم على ذلك ، فى زعمه : ﴿ **إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة** ﴾ أى حيلة احتلتموها أنتم وموسى عن مواطأة بينكم سابقة ﴿ **لتخرجوا** ﴾ من مدينة مصر ﴿ **أهلها** ﴾ من القبط ، وتستولوا عليها وتسكنوا فيها ، أنتم وبنو إسرائيل . ومعنى ﴿ **فى المدينة** ﴾ أن هذه الحيلة والمواطأة كانت بينكم وأنتم بالمدينة ــ مدينة مصر ــ قبل أن تبرزوا أنتم وموسى إلى هذه الصحراء. ثم هددهم بقوله : ﴿ **فسوف تعلمون** ﴾ عاقبة صنعكم هذا وسوء مغبته ، ثم لم يكتف بهذا الوعيد المجمل، بل فصّله فقال : ﴿ **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف** ﴾ أى الرجل اليمنى واليد اليسرى ، أو الرجل اليسرى واليد اليمنى، ثم لم يكتف عدو الله بهذا ، بل جاوزه إلى غيره فقال: ﴿ **ثم لأصلبنكم** ﴾ فى جذوع النخل ، أى أجعلكم عليها مصلوبين ، زيادة تنكيل بهم ، وإفراطا فى تعذيبهم ، وجملة : ﴿ **قالوا إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ استئنافية جواب سؤال كما تقدم ومعناه : إنك وإن فعلت بنا هذا الفعل، فبعْدَه يومُ الجزاء، سيجازيك الله بصنعك ، ويحسن إلينا بما أصابنا فى ذاته، فتوعدوه بعذاب الله فى الآخرة ، لما توعدهم بعذاب الدنيا ، ويحتمل أن يكون المعنى ﴿ **إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ بالموت، أى لابد لنا من الموت، ولا يضرنا كونه بسبب منك .

قوله : ﴿ **وما تنقم منا** ﴾ قرأ الحسن بفتح القاف . قال الأخفش : هى لغة . وقرأ الباقون بكسرها . يقال : نقمت الأمر: أنكرته ، أى لست تعيب علينا ، وتنكر منا ﴿ **إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا** ﴾ مع أن هذا هو الشرف العظيم والخير الكامل ، ومثله لا يكون موضعاً للعيب ، ومكاناً للإنكار،بل هو حقيق بالثناء الحسن ، والاستحسان البالغ،ثم تركوا خطابه ، وقطعوا الكلام معه ، والتفتوا إلى خطاب الجناب العلى ، مفوضين الأمر إليه ، طالبين منه عز وجل أن يثبتهم على هذه المحنة بالصبر ، قائلين: ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبراً** ﴾ الإفراغ : الصب، أى اصببه علينا ، حتى يفيض ويغمرنا . طلبوا أبلغ أنواع الصبر ، استعداداً منهم لما سينزل بهم من العذاب من عدو الله ، وتوطيناً لأنفسهم ، على التصلب فى الحق، وثبوت القدم على الإيمان ، ثم قالوا: ﴿ **وتوفنا مسلمين** ﴾ [1] أى توفنا إليك حال ثبوتنا على الإسلام ، غير محرفين ولا مبدلين ولا مفتونين ، ولقد كان ماهم عليه من السحر ، والمهارة فى علمه ، مع كونه شراً محضاً ، سبباً للفوز بالسعادة ، لأنهم علموا أن هذا الذى جاء به موسى خارج عن طوق البشر ، وأنه من فعل الله سبحانه ، فوصلوا بالشر إلى الخير ، ولم يحصل من غيرهم

---

(١) وهذا يدل دلالة واضحة على أن الإسلام هو دين الرسل جميعا . قال تعالى : فى شأن سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك** ﴾ [البقرة : ١٢٨] . وقال تعالى فى شأن الحواريين أتباع سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ **قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون** ﴾ [آل عمران : ٥٢]. وقال تعالى على لسان سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولىّ فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين** ﴾ [يوسف : ١٠١] .

ممن لايعرف هذا العلم من أتباع فرعون ، ما حصل منهم من الإذعان والاعتراف والإيمان ، وإذا كانت المهارة فى علم الشر قد تأتى بمثل هذه الفائدة ، فما بالك بالمهارة فى علم الخير . اللهم انفعنا بما علمتنا ، وثبت أقدامنا على الحق ، وأفرغ علينا سجال الصبر ، وتوفنا مسلمين .

قوله : ﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض** ﴾ ؟ هذا الاستفهام منهم للإنكار عليه ، أى أتتركه وقومه ليفسدوا فى الأرض بإيقاع الفرقة ، وتشتيت الشمل ؟ والمراد بالأرض هنا : أرض مصر . قوله : ﴿ **ويذرك وآلهتك** ﴾ ، قرأ نعيم بن ميسرة : « ويذرك » بالرفع على تقدير مبتدأ ، أى وهو يذرك ، أو على العطف على : ﴿ **أتذر موسى** ﴾ أى أتذره ويذرك . وقرأ الأشهب العقيلى : « ويذرك » بالجزم ، إما على التخفيف بالسكون لثقل الضمة ، أو على ما قيل فى : ﴿وأكن من الصالحين﴾ [المنافقون : ١٠] فى توجيه الجزم . وقرأ أنس بن مالك : « ونذرك » بالنون والرفع ، ومعناه : أنهم أخبروا عن أنفسهم بأنهم سيذرونه وآلهته . وقرأ الباقون : ﴿ **ويذرك** ﴾ بالنصب بأن مقدرة على أنه جواب الاستفهام ، والواو نائبة عن الفاء ، أو عطفا على : ﴿ **يفسدوا** ﴾ أى ليفسدوا ، وليذرك ، لأنهم على الفساد فى زعمهم ، وهو يؤدى إلى ترك فرعون وآلهته .

واختلف المفسرون فى معنى : ﴿ **وآلهتك** ﴾ لكون فرعون كان يدعى الربوبية كما فى قوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى﴾ [القصص : ٣٨] وقوله : ﴿ أنا ربكم ﴾ [النازعات : ٢٤] فقيل : معنى ﴿ **وآلهتك** ﴾ : [١] وطاعتك . وقيل : معناه : وعبادتك . ويؤيده قراءة على وابن عباس والضحاك : « وإلهتك » ، وفى حرف أُبَىّ : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ، وقد تركوك أن يعبدوك . وقيل : إنه كان يعبد بقرة . وقيل : كان يعبد النجوم . وقيل : كان له أصنام يعبدها قومه تقربا إليه ، فنسبت إليه . ولهذا قال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : ٢٤] قاله الزجاج . وقيل : كان يعبد الشمس ، فقال فرعون مجيبا لهم ومثبتاً لقلوبهم على الكفر : ﴿ **سنقتل أبناءهم** ﴾ قرأ نافع وابن كثير : « سنقتل » بالتخفيف . وقرأ الباقون بالتشديد [٢] ، أى سنقتل الأبناء ، ونستحيى النساء ، أى نتركهن فى الحياة . ولم يقل : سنقتل موسى ؛ لأنه يعلم أنه لا يقدر عليه . ﴿ **وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ أى مستعلون عليهم بالقهر والغلبة ، أو هم تحت قهرنا وبين أيدينا . ما شئنا أن نفعله بهم فعلناه .

وجملة : ﴿ **قال موسى لقومه** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، لما بلغ موسى ما قاله فرعون أمر قومه بالاستعانة بالله والصبر على المحنة ، ثم أخبرهم ﴿ **أن الأرض** ﴾ يعنى : أرض مصر ﴿ **لله يورثها من يشاء من عباده** ﴾ ، أو جنس الأرض ، وهو وعد من موسى لقومه بالنصر على فرعون وقومه ، وأن الله سيورثهم أرضهم وديارهم ، ثم بشرهم بأن العاقبة للمتقين ، أى

---

(١) كما قيل فى قوله تعالى : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ [التوبة : ٣١] : إنهم ما عبدوهم ولكن أطاعوهم ، فصار تمثيلا .

(٢) ومثله قوله تعالى : ﴿ **يقتلون أبناءكم** ﴾ بالتشديد . [الأعراف : ١٤١] .

العاقبة المحمودة فى الدنيا والآخرة للمتقين من عباده ، وهم موسى ومن معه . وعاقبة كل شىء آخره . وقرئ : « والعاقبة» بالنصب عطفاً على الأرض .

وجملة : ﴿ **قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كالتى قبلها ، أى أوذينا من قبل أن تأتينا رسولاً ، وذلك بقتل فرعون أبناءنا عند مولدك ؛ لما أخبر بأنه سيولد مولود يكون زوال ملكه على يده . ﴿ **ومن بعد ما جئتنا** ﴾ رسولاً بقتل أبنائنا الآن . وقيل : المعنى : أوذينا من قبل أن تأتينا باستعمالنا فى الأعمال الشاقة بغير جعل ، ﴿ **ومن بعدما جئتنا** ﴾ بما صرنا فيه الآن من الخوف على أنفسنا وأولادنا وأهلنا . وقيل : إن الأذى من قبل ومن بعد واحد ، وهو قبض الجزية منهم . وجملة: ﴿ **قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم** ﴾ مستأنفة كالتى قبلها ، وعدهم بإهلاك الله لعدوهم ، وهو فرعون وقومه .

قوله : ﴿ **ويستخلفكم فى الأرض** ﴾ هو تصريح بما رمز إليه سابقاً من أن الأرض لله ، وقد حقق الله رجاءه ، وملكوا مصر فى زمان داود وسليمان ، وفتحوا بيت المقدس مع يوشع بن نون ، وأهلك فرعون وقومه بالغرق وأنجاهم ﴿ **فينظر كيف تعملون** ﴾ من الأعمال بعد أن يمن عليكم بإهلاك عدوكم ﴿ **ويستخلفكم فى الأرض** ﴾ فيجازيكم بما عملتم فيه من خير وشر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة** ﴾ إذ [١] التقيتما لتظاهرا فتخرجا منها أهلها . ﴿ **لأقطعن أيديكم** ... ﴾ الآية ، قال : فقتلهم وقطعهم كما قال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان أول من صلب فرعون ، وهو أول من قطع الأيدى والأرجل من خلاف . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله : ﴿ **من خلاف** ﴾ قال : يداً من هاهنا ورجلاً من هاهنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا**﴾، قال : من قبل إرسال الله إياك ومن بعده . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه فى الآية قال : قالت بنو إسرائيل لموسى : كان فرعون يكلفنا اللبن قبل أن تأتينا . فلما جئت كلفنا اللبن مع التبن أيضا . فقال موسى : أى رب أهلك فرعون حتى متى تبقيه ؟ فأوحى الله إليه: إنهم لم يعملوا الذنب الذى أهلكهم به . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى الآية ، قال : حزا [٢] لعدو الله حاز [٣] أنه يولد فى العام غلام يسلب ملكك . قال : فتتبع أولادهم فى ذلك العام بذبح الذكر منهم ، ثم ذبحهم أيضاً بعد ما جاءهم موسى .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : إن بنا أهلَ البيت يفتح ويختم ، ولابد أن

---

(١) فى المطبوعة : « إذا » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢، ٣) حزا ، من التحزّى، وهو التكهن، والحازى: الكاهن الذى ينظر فى الأعضاء وفى خيلات الوجه يتكهن. انظر : لسان العرب ١٤/ ١٧٤ وما بعدها .

تقع دولة لبنى هاشم فانظروا فيمن تكون من بنى هاشم ؟ وفيهم نزلت : ﴿ **عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾ . وينبغى أن ينظر فى صحة هذا عن ابن عباس . فالآية نازلة فى بنى إسرائيل لا فى بنى هاشم ، واقعة فى هذه القصة الحاكية لما جرى بين موسى وفرعون .

﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦)** ﴾ .

المراد بآل فرعون هنا : قومه . والمراد بالسنين : الجدب . وهذا معروف عند أهل اللغة . يقولون : أصابتهم سنة ، أى جدب سنة . وفى الحديث : « اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » [(١)] . وأكثر العرب يعربون السنين إعراب جمع المذكر السالم . ومن العرب من يعربه إعراب المفرد ويجرى الحركات على النون ، وأنشد الفراء :

أرى مر السنين أخذن منى ... كما أخذ السرار من الهلال [(٢)]

بكسر النون من السنين . قال النحاس : وأنشد سيبويه هذا البيت بفتح النون .

أقول : قد ورد ما لا احتمال فيه وهو قول الشاعر :

وماذا تبتدرى الأقوام منى ... وقد جاوزت حد الأربعين

وبعده :

أخو الخمسين مجتمع أشدى ... وتجدبنى مداورة السنين

فإن الأبيات قبله وبعده مكسورة . وأول هذه الأبيات :

---

(١) الحديث عن أبى هريرة أخرجه أحمد ٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١ والبخارى فى الاستسقاء (١٠٠٦) وفى الأدب (٦٢٠٠) وفى الدعوات (٦٣٩٣) والبيهقى فى السنن ، فى الصلاة ٢/ ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢) السَّرار ، بفتح السين المشددة أو كسرها : آخر ليلة أو ليلتين من الشهر .

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

وحكى الفراء عن بنى عامر أنهم يقولون : أقمت عنده سنينا ، مصروفا . قال : وبنو تميم لا يصرفونه . ويقال: أسنت القوم ، أى أجدبوا . ومنه قول ابن الزِّبَعْرِى :

ورجال مكة مسنتون عجاف

﴿ **ونقص من الثمرات** ﴾ بسبب عدم نزول المطر وكثرة العاهات ﴿ **لعلهم يذكرون** ﴾ فيتعظون ويرجعون عن غوايتهم .

قوله : ﴿ **فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه** ﴾ أى الخصلة الحسنة من الخصب بكثرة المطر ، وصلاح الثمرات ، ورخاء الأسعار . ﴿ **قالوا لنا هذه** ﴾ أى أعطيناها باستحقاق ، وهى مختصة بنا . ﴿ **وإن تصبهم سيئة** ﴾ أى خصلة سيئة من الجدب والقحط وكثرة الأمراض ونحوها من البلاء ﴿ **يطيروا بموسى ومن معه** ﴾ أى يتشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين به . والأصل يتطيروا ، أدغمت التاء فى الطاء . وقرأ طلحة : « تطيروا » على أنه فعل ماض . وقد كانت العرب تتطير بأشياء من الطيور والحيوانات ، ثم استعمل بعد ذلك فى كل من تشاءم بشىء . ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴾ [النساء : ٧٨] قيل : ووجه تعريف الحسنة أنها كثيرة الوقوع ، ووجه تنكير السيئة ندرة وقوعها .

قوله : ﴿ **ألا إنما طائرهم عند الله** ﴾ أى سبب خيرهم وشرهم بجميع ما ينالهم من خصب وقحط هو من عند الله ، ليس بسبب موسى ومن معه . وكان هذا الجواب على نمط ما يعتقدونه وبما يفهمونه . ولهذا عبر بالطائر عن الخير والشر الذى يجرى بقدر الله وحكمته ومشيئته ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ بهذا بل ينسبون الخير والشر إلى غير الله جهلاً منهم . وقرأ الحسن : « طيرهم » .

قوله : ﴿ **وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين** ﴾ قال الخليل : أصل ﴿ **مهما** ﴾ : «ما » الشرطية ، زيدت عليه « ما » التى للتوكيد كما تزاد فى سائر الحروف مثل : حيثما ، وأينما ، وكيفما ، ومتى ما . ولكنهم كرهوا اجتماع المثلين فأبدلوا ألف الأولى هاء . وقال الكسائى : أصله : مه ، أى اكفف ما تأتينا به من آية ، وزيدت عليها « ما » الشرطية . وقيل : هى كلمة مفردة يجازى بها . ومحل ﴿ **مهما** ﴾ الرفع على الابتداء ، أو النصب بفعل يفسره ما بعدها . و ﴿ **من آية** ﴾ لبيان ﴿**مهما** ﴾ وسموها آية استهزاء بموسى كما يفيده ما بعده . وهو : ﴿ **لتسحرنا بها** ﴾ أى لتصرفنا عما نحن عليه كما يفعله السحرة بسحرهم. والضمير فى « به » عائد إلى ﴿ **مهما** ﴾ والضمير فى ﴿ **بها** ﴾ عائد إلى ﴿ **آية** ﴾ . وقيل : إنهما جميعاً عائدان إلى ﴿**مهما**﴾. وتذكير الأول باعتبار اللفظ ، وتأنيث الثانى باعتبار المعنى، ﴿ **فما نحن لك بمؤمنين** ﴾ جواب الشرط ، أى فما نحن لك بمصدقين . أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يؤمنون بشىء مما يجىء به من الآيات التى هى فى زعمهم من السحر ، فعند

ذلك نزلت بهم العقوبة من الله عز وجل المبينة بقوله: ﴿**فأرسلنا عليهم الطوفان** ﴾ ، وهو المطر الشديد . قال الأخفش : واحده طوفانة . وقيل : هو مصدر كالرجحان والنقصان فلا واحد له . وقيل : الطوفان : الموت . وقال النحاس : الطوفان فى اللغة ما كان مهلكاً من موت أو سيل ، أى ما يطيف بهم فيهلكهم . والجراد : هو الحيوان المعروف . أرسله الله لأكل زروعهم فأكلها . والقمل قيل : هى الدباء . والدباء : الجراد قبل أن تطير . وقيل : هو السوس . و قيل : البراغيث . وقيل : دواب سود صغار . وقيل : ضرب من القردان . وقيل: الجعلان . قال النحاس : يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم. وقرأ الحسن : « القمل » بفتح القاف وإسكان الميم . وقرأ الباقون بضم القاف وفتح الميم مشددة [1] . وقد فسر عطاء الخراسانى ﴿ **القمل** ﴾ بالقمل ﴿**والضفادع**﴾ جمع ضفدع ، وهو الحيوان المعروف الذى يكون فى الماء . ﴿ **والدم** ﴾ روى أنه سال النيل عليهم دما . وقيل : هو الرعاف .

قوله : ﴿ **آيات مفصلات** ﴾ أى مبينات . قال الزجاج : هو منصوب على الحال والمعنى : أرسلنا عليهم هذه الأشياء حال كونها آيات بينات ظاهرات . ﴿ **فاستكبروا** ﴾ أى ترفعوا عن الإيمان بالله ﴿ **وكانوا قوما مجرمين** ﴾ لا يهتدون إلى حق ولا ينزعون عن باطل .

قوله : ﴿ **ولما وقع عليهم الرجز** ﴾ أى العذاب بهذه الأمور التى أرسلها الله عليهم . وقرئ بضم الراء وهما لغتان . وقيل : كان هذا الرجز طاعوناً مات به من القبط فى يوم واحد سبعون ألفاً . ﴿ **قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك** ﴾ أى بما استودعك من العلم ، أو بما اختصك به من النبوة ، أو بما عهد إليك أن تدعو به فيجيبك. والباء متعلقة بـ﴿ **ادع** ﴾ على معنى أسعفنا إلى ما نطلب من الدعاء بحق ما عندك من عهد الله ، أو ادع لنا متوسلاً إليه بعهده عندك . وقيل : إن الباء للقسم . وجوابه لنؤمنن ، أى أقسمنا بعهد الله عندك ﴿ **لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك** ﴾ على أن جواب الشرط سد مسد جواب القسم ، وعلى أن الباء ليست للقسم تكون اللام فى ﴿ **لئن كشفت عنا الرجز** ﴾ [2] جواب قسم محذوف. و﴿ **لنؤمنن** ﴾ جواب الشرط ساد مسد جواب القسم . ﴿ **ولنرسلن معك بنى إسرائيل** ﴾ معطوف على لنؤمنن . وقد كانوا حابسين لبنى إسرائيل عندهم يمتهنونهم فى الأعمال فوعدوه بإرسالهم معه .

﴿ **فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه** ﴾ أى رفعنا عنهم العذاب عند أن رجعوا

---

(١) قال الأعشى :

قومًا نُعالج قُمَّلا أبناؤهم ... وسلاسلاً أجُدا وبابا مؤصدا

راجع : ديوانه ١٥٤ واللسان (قمل) من قصيدته التى قالها لكسرى حين أراد من بنى ضبيعة ـ رهط الأعشى ـ رهائن .

(٢) أصل الرجز فى اللغة : تتابع الحركات، فمن ذلك قولهم: ناقة رجزاء : إذا كانت ترتعد قوائمها عند قيامها، ومنه رجز الشعر : لأنه أقصر أبيات الشعر ، والانتقال من بيت إلى بيت سريع نحو قوله :

يا ليتنى فيها جذع ... أخب فيها وأضع

وزعم الخليل : أن الرجز ليس بشعر ؛ وإنما هو أنصاف أبيات وأثلاث .

إلى موسى وسألوه بما سألوه ؛ لكن لا رفعا مطلقا؛ بل رفعا مقيدا بغاية هى الأجل المضروب لإهلاكهم بالغرق . وجواب « لما » ﴿ **إذا هم ينكثون** ﴾ أى ينقضون ما عقدوه على أنفسهم . و « إذا » هى الفجائية ، أى فاجؤوا النكث وبادروه .

﴿ **فانتقمنا منهم** ﴾ أى أردنا الانتقام منهم لما نكثوا بسبب ما تقدم لهم من الذنوب المتعددة. ﴿ **فأغرقناهم فى اليم** ﴾ أى فى البحر . قيل : هو الذى لا يدرك قعره . وقيل : هو لجته وأوسطه . وجملة : ﴿ **بأنهم كذبوا بآياتنا** ﴾ تعليل للإغراق . ﴿ **وكانوا عنها غافلين** ﴾ معطوف على كذبوا ، أى كانوا غافلين عن النقمة المدلول عليها بانتقمنا ، أو عن الآيات التى لم يؤمنوا بها ؛ بل كذبوا بها وكانوا فى تكذيبهم بمنزلة الغافلين عنها . والثانى أولى لأن الجملتين تعليل للإغراق .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود : ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين** ﴾ قال : السنين : الجوع . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : السنين : الجوائح . ﴿ **ونقص من الثمرات** ﴾ دون ذلك . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لما أخذ الله آل فرعون بالسنين ، يبس كل شىء لهم ، وذهبت مواشيهم حتى يبس نيل مصر ، واجتمعوا إلى فرعون ، فقالوا : إن كنت كما تزعم فائتنا فى نيل مصر بماء . قال : غدوة يصبحكم الماء . فلما خرجوا من عنده ، قال : أى شىء صنعت، إن لم أقدر على أن أجرى فى نيل مصر ماء غدوة كذبونى . فلما كان جوف الليل ، قام فاغتسل ، ولبس مدرعة صوف ، ثم خرج حافياً حتى أتى نيل مصر ، فقال : اللهم إنك تعلم أنى أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء فاملأه ماء . فما علم إلا بجزر الماء يقبل ، فخرج وأقبل النيل يزخ بالماء لما أراد الله بهم من الهلكة .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فإذا جاءتهم الحسنة** ﴾ قال : العافية والرخاء . ﴿ **قالوا لنا هذه** ﴾ نحن أحق بها . ﴿ **وإن تصبهم سيئة** ﴾ قال : بلاء وعقوبة. ﴿**يطيروا بموسى** ﴾ قال : يتشاءموا به . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألا إنما طائرهم عند الله** ﴾ قال : الأمر من قبل الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ :«الطوفان: الموت »[1]. قال ابن كثير : هو حديث غريب [2] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: الطوفان : الغرق . وأخرج هؤلاء عن مجاهد

(١) ابن جرير ٩/ ٢١ وعزاه ابن حجر فى فتح البارى ٨/ ٣٠٠ لابن مردويه وقال : « بإسنادين ضعيفين » .
(٢) ابن كثير ٣/ ٢١١ .

قال : الطوفان : الموت على كل حال . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : الطوفان : مطروا دائماً بالليل والنهار ثمانية أيام . والقمل : الجراد الذى له أجنحة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : الطوفان : أمر من أمر ربك ، ثم قرأ : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك﴾ [القلم : ١٩] : وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : الطوفان : الماء والطاعون والجراد . قال : يأكل مسامير رُتُجهم[١] يعنى : أبوابهم ، وثيابهم . والقمل : الدباء . والضفادع تسقط على فرشهم وفى أطعمتهم . والدم يكون فى ثيابهم ومائهم وطعامهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: القمل : الدباء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : كانت الضفادع برية ، فلما أرسلها الله على آل فرعون سمعت وأطاعت ، فجعلت تقذف نفسها فى القدر وهى تغلى ، وفى التنانير وهى تفور .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : سال النيل دما ، فكان الإسرائيلى يستقى ماء طيبا ، ويستقى الفرعونى دماً ، ويشتركان فى إناء واحد فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء طيبا وما يلى الفرعونى دما . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **والدم** ﴾ قال : سلط الله عليهم الرعاف . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : مكث موسى فى آل فرعون بعد ما غلب السحرة أربعين سنة يريهم الآيات والجراد والقمل والضفادع . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **آيات مفصلات** ﴾ قال : كانت آيات مفصلات يتبع بعضها بعضا ليكون لله الحجة عليهم . وأخرج ابن المنذر عنه قال : يتبع بعضها بعضا ، تمكث فيهم سبتا إلى سبت ، ثم ترفع عنهم شهرا .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبى ﷺ قال : « الرجز : العذاب » . وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ، قال : الرجز : الطاعون . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلى أجل هم بالغوه**﴾ قال : الغرق . وأخرج ابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال : اليم : البحر وأخرج أيضا عن السدى مثله .

﴿ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ**

(١) فى المطبوعة : « أرتجهم » بالهمزة فى أوله ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة « والرُّتُج » بضم الراء والتاء : جمع رتاج ، وهو الباب العظيم ، وقيل : الباب المغلق . انظر : لسان العرب ٢/ ٢٧٩ .

(٢) فى المطبوعة : « ما ينفق » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) ﴾ .

قوله : ﴿ **وأورثنا القوم** ﴾ يعنى : بنى إسرائيل ﴿ **الذين كانوا يستضعفون** ﴾ أى يذلون ويمتهنون بالخدمة لفرعون وقومه . ﴿ **مشارق الأرض ومغاربها** ﴾ منصوبان بأورثنا . وقال الكسائى والفراء : إن الأصل : فى مشارق الأرض ومغاربها : جهات مغربها، ثم حذفت فى فنصبا . والأول أظهر لأنه يقال : أورثته المال . والأرض : هى مصر والشام . ومشارقها : جهات مشرقها . ومغاربها . وهى التى كانت لفرعون وقومه من القبط . وقيل : المراد جميع الأرض ؛ لأن داود وسليمان من بنى إسرائيل ، وقد ملكا الأرض . قوله : ﴿ **التى باركنا فيها** ﴾ صفة للمشارق والمغارب . وقيل : صفة الأرض . والمباركة فيها إخراج الزرع والثمار منها على أتم ما يكون وأنفع ما يتفق [١] .

قوله : ﴿ **وتمت كلمة ربك الحسنى** ﴾ أى مضت واستمرت على التمام . والكلمة هى : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ [القصص : ٥] وهذا وعد من الله سبحانه بالنصر والظفر بالأعداء والاستيلاء على أملاكهم . و﴿ **الحسنى** ﴾ : صفة للكلمة . وهى تأنيث الأحسن . وتمام هذه الكلمة ﴿ **على بنى إسرائيل** ﴾ بسبب صبرهم على ما أصيبوا به من فرعون وقومه .

قوله : ﴿ **ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه** ﴾ التدمير : الإهلاك ، أى أهلكنا بالخراب ما كانوا يصنعونه من العمارات ﴿ **وما كانوا يعرشون** ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿ **يعرشون** ﴾ بضم الراء . قال الكسائى : هى لغة تميم . وقرأ إبراهيم بن أبى عبلة « يُعَرِّشون » بتشديد الراء ، وضم حرف المضارعة . وقرأ الباقون بكسر الراء مخففة ، أى ما كانوا يعرشونه من الجنات . ومنه قوله تعالى : ﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ﴾ [الأنعام : ١٤١] . وقيل : معنى يعرشون : يبنون . يقال : عرش يعرش ، أى بنى يبنى .

قوله : ﴿ **وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر** ﴾ هذا شروع فى بيان ما فعله بنو إسرائيل بعد الفراغ مما فعله فرعون وقومه . ومعنى جاوزنا ببنى إسرائيل البحر : جزناه بهم وقطعناه . وقرئ «جوزنا » بالتشديد . وهو بمعنى قراءة الجمهور . ﴿ **فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم** ﴾ قرأ حمزة والكسائى « يعكِفون » بكسر الكاف . وقرأ الباقون بضمها . يقال : عكف يعكف . ويعكُف بمعنى أقام على الشىء ولزمه . والمصدر منها عكوف . قيل : هؤلاء القوم الذين أتاهم بنو إسرائيل هم من لخم كانوا نازلين بالرقة ، كانت أصنامه تماثيل بقر . وقيل : كانوا م

(١) فى المطبوعة : « ما يتفق » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

الكنعانيين. ﴿ **قالوا** ﴾ أى بنو إسرائيل عند مشاهدتهم لتلك التماثيل: ﴿ **يا موسى اجعل لنا إلهاً** ﴾ أى صنماً نعبده كائنا كالذى لهؤلاء القوم ، فالكاف متعلق بمحذوف وقع صفة لـ ﴿ **إلهًا** ﴾ ، فأجاب عليهم موسى و ﴿ **قال إنكم قوم تجهلون** ﴾ وصفهم بالجهل لأنهم قد شاهدوا من آيات الله ما يزجر من له أدنى علم عن طلب عبادة غير الله . ولكن هؤلاء القوم ، أعنى بنى إسرائيل، أشد خلق الله عناداً وجهلاً وتلوناً . وقد سلف فى سورة البقرة بيان ما جرى منهم من ذلك . ثم قال لهم موسى : ﴿ **إن هؤلاء** ﴾ يعنى القوم العاكفين على الأصنام ﴿ **متبر ماهم فيه** ﴾ التبار : الهلاك . وكل إناء منكسر فهو متبر ، أى إن هؤلاء هالك ما هم فيه، مدمر مكسر . والذى هم فيه عبادة الأصنام . أخبرهم بأن هذا الدين الذى هؤلاء القوم عليه هالك مدمر ، لا يتم منه شىء.

قوله : ﴿ **وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ أى ذاهب مضمحل جميع ما كانوا يعملونه من الأعمال مع عبادتهم للأصنام . قال فى الكشاف : وفى إيقاع ﴿ **هؤلاء** ﴾ اسما لإن وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبرا لها وَسْم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار ، وأنه لا يعدوهم البتة ، وأنه لهم ضربة لازب ، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا،ويبغض إليهم ما أحبوا [1] . قوله : ﴿ **أغير الله أبغيكم إلها** ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ ، أى كيف أطلب لكم غير الله إلها تعبدونه وقد شاهدتم من آياته العظام ما يكفى البعض منه ؟ والمعنى : أن هذا الذى طلبتم لا يكون أبدا. وإدخال الهمزة على ﴿ **غير** ﴾ للإشعار بأن المنكر هو كون المبتغى غيره سبحانه إلها ، و ﴿ **غير** ﴾ مفعول للفعل الذى بعده . و ﴿ **إلهاً** ﴾ تمييز أو حال . وجملة : ﴿ **وهو فضلكم على العالمين** ﴾ فى محل نصب على الحال، أى والحال أنه فضلكم على العالمين من أهل عصركم بما أنعم به عليكم من إهلاك عدوكم ، واستخلافكم فى الأرض ، وإخراجكم من الذل والهوان إلى العز والرفعة ، فكيف تقابلون هذه النعم بطلب عبادة غيره ؟

قوله : ﴿ **وإذ أنجيناكم من آل فرعون** ﴾ أى واذكروا وقت إنجائنا لكم من آل فرعون بعد أن كانوا مالكين لكم يستعبدونكم فيما يريدونه منكم ويمتهنونكم بأنواع الامتهانات . هذا على أن هذا الكلام محكى عن موسى . وأما إذا كان فى حكم الخطاب لليهود الموجودين فى عصر محمد ، فهو بمعنى : اذكروا إذ أنجينا أسلافكم من آل فرعون . وجملة : ﴿ **يسومونكم سوء العذاب** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى أنجيناكم من آل فرعون حال كونهم ﴿ **يسومونكم سوء العذاب** ﴾ . ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما كانوا فيه مما أنجاهم منه . وجملة : ﴿ **يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم** ﴾ مفسرة للجملة التى قبلها ، أو بدل منها ، وقد سبق بيان ذلك . والإشارة بقوله : ﴿ **وفى ذلكم** ﴾ إلى العذاب، أى فى هذا العذاب الذى كنتم فيه ﴿ **بلاء** ﴾ عليكم ﴿ **من ربكم عظيم** ﴾ . وقيل : الإشارة إلى الإنجاء . والبلاء : النعمة .

---

(١) الكشاف ٢/ ١٥٠ .

والأول أولى .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها** ﴾ قال : الشام . وأخرج هؤلاء عن قتادة مثله . وأخرج ابن عساكر عن زيد بن أسلم نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن عبد الله بن شوذب قال : هى فلسطين . وقد روى عن النبى ﷺ فى فضل الشام أحاديث ليس هذا موضع ذكرها . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وتمت كلمة ربك الحسنى** ﴾ قال : ظهور قوم موسى على فرعون وتمكين الله لهم فى الأرض وما ورثهم منها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما كانوا يعرشون** ﴾ قال : يبنون .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم** ﴾ قال : لخم وجذام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى عمران الجونى مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى الآية قال : تماثيل بقر من نحاس ، فلما كان عجل السامرى ، شبه لهم أنه من تلك البقر . فذلك كان أول شأن العجل ليكون لله عليهم الحجة ، فينتقم منهم بعد ذلك . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وصححه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة [١] ، فقلت : يا رسول الله ، اجعل لنا هذه ذات أنواط [٢] كما للكفار ذات أنواط ـ وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ـ فقال النبى ﷺ : « الله أكبر ، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ **اجعل لنا إلها كما لهم آلهة** ﴾ إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم » [٣] . وأخرج نحوه ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه من طريق كثير بن عبد الله بن عوف [٤] عن أبيه عن جده مرفوعاً . وكثير ضعيف جداً [٥] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **متبر** ﴾ قال : خسران . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : هلاك .

---

(١) السدرة : واحدة السدر ، وهو شجر النبق .

(٢) ناط الشىء ينوطه نوطا : علقه ، والأنواط : ما يعلق على الهودج أو غيره ، وهى المعاليق .

(٣) ابن أبى شيبة (١٩٢٢٢) وأحمد ٥/ ٢١٨ والترمذى فى الفتن (٢١٨٠) وقال : « حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٢٠٥) وابن جرير ٩/ ٣١ ، ٣٢ والطبرانى فى الكبير (٣٢٩٠ ـ ٣٢٩٤) .

(٤) اسمه: كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف .

(٥) الطبرانى فى الكبير ١٧ / ٢١ (٢٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٧: « وفيه كثير بن عبد الله وقد ضعفه الجمهور ، وحسن الترمذى حديثه ».

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) ﴾ .

هذا من جملة ما كرم الله به موسى عليه السلام وشرفه والثلاثين هى : ذو القعدة ، والعشر هى : عشر ذى الحجة ضرب الله هذه المدة موعداً لمناجاة موسى ومكالمته . قيل : وكان التكليم فى يوم النحر . والفائدة فى ﴿ فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ مع العلم بأن الثلاثين والعشر أربعون ؛ لئلا يتوهم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها ، فبين أن العشر غير الثلاثين. و ﴿ أربعين ليلة ﴾ منصوب على الحال ، أى فتم حال كونه بالغاً أربعين ليلة .

قوله : ﴿ وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى ﴾ أى كن خليفتى فيهم . قال موسى هذا لما أراد المضى إلى المناجاة . ﴿ وأصلح ﴾ أمر بنى إسرائيل بحسن سياستهم والرفق بهم وتفقد أحوالهم . ﴿ ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ أى لا تسلك سبيل العاصين ولا تكن عوناً للظالمين .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وواعدنا موسى ﴾ الآية قال: ذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد مثله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : إن موسى قال لقومه : إن ربى وعدنى ثلاثين ليلة أن ألقاه ، وأخلف هارون فيكم . فلما فصل موسى إلى ربه ، زاده الله عشراً ، فكانت فتنتهم فى العشر التى زاده الله . فلما مضى ثلاثون ليلة ، كان السامرى قد أبصر جبريل ، فأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب . ثم ذكر قصة السامرى.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) ﴾

اللام فى ﴿ **لميقاتنا** ﴾ للاختصاص ، أى كان مجيئه مختصاً بالميقات المذكور ، بمعنى أنه جاء فى الوقت الموعود[١] . ﴿ **وكلمه ربه** ﴾ أى أسمعه كلامه من غير واسطة . قوله : ﴿ **أرنى أنظر إليك** ﴾ أى أرنى نفسك أنظر إليك ، أى سأله النظر إليه اشتياقاً إلى رؤيته لما أسمعه كلامه . وسؤال موسى للرؤية يدل على أنها جائزة عنده فى الجملة . ولو كانت مستحيلة عنده ، لما سألها . والجواب بقوله : ﴿ **لن ترانى** ﴾ [٢] يفيد أنه لا يراه هذا الوقت الذى طلب رؤيته فيه ، أو أنه لا يرى ما دام الرائى حياً فى دار الدنيا ، وأما رؤيته فى الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة ، والجدال فى مثل هذا والمراوغة لا تأتى بفائدة ، ومنهج الحق واضح . ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه وأدرك عليه آباءه وأهل بلده ؛ مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة يوقع فى التعصب . والمتعصب وإن كان بصره صحيحاً ، فبصيرته عمياء ، وأذنه عن سماع الحق صماء ، يدفع الحق ، وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق ؛ غفلة منه وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح ، وتلقى ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم . وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب فى الأصول والفروع ، فإنه صار بها باب الحق مُرْتَجاً [٣] ، وطريق الإنصاف مستوعرة . والأمر لله سبحانه . والهداية منه :

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

وجملة : ﴿ **قال لن ترانى** ﴾ مستأنفة لكونها جواباً لسؤال مقدر ، كأنه قيل : فما قال الله له ؟ والاستدراك بقوله : ﴿ **ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى** ﴾ معناه أنك لا تثبت لرؤيتى ولا يثبت لها ما هو أعظم منك جرماً وصلابة وقوة وهو الجبل فانظر إليه . ﴿ **فإن استقر مكانه** ﴾ ولم يتزلزل عند رؤيتى له ﴿ **فسوف ترانى** ﴾ وإن ضعف عن ذلك ، فأنت منه أضعف . فهذا الكلام بمنزلة ضرب المثل لموسى عليه السلام بالجبل . وقيل : هو من باب التعليق بالمحال . وعلى تسليم هذا فهو فى الرؤية فى الدنيا لما قدمنا .

وقد تمسك بهذه الآية كلا طائفتى المعتزلة والأشعرية . فالمعتزلة استدلوا بقوله : ﴿ **لن ترانى** ﴾ وبأمره بأن ينظر إلى الجبل . والأشعرية قالوا : إن تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدل على أنها جائزة غير ممتنعة [٤] . ولا يخفاك أن هناك الرؤية الأخروية هى بمعزل عن هذا كله . والخلاف بينهم هو فيها لا فى الرؤية فى الدنيا ، فقد كان الخلاف فيها فى زمن الصحابة ،

(١) قال الزجاج : للوقت الذى وقتنا له .

(٢) تعلق بهذا نفاة الرؤية وقالوا : « لن » لنفى الأبد ، وذلك غلط ؛ لأنها قد وردت وليس المراد بها الأبد فى قوله تعالى : ﴿ **ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم** ﴾ [البقرة : ٩٥] ثم أخبر عنهم بتمنيه فى النار بقوله : ﴿ **يا مالك ليقض علينا ربك** ﴾ [الزخرف : ٧٧] ، ولأن ابن عباس قال فى تفسيرها : « لن ترانى فى الدنيا » . انظر : ابن الجوزى فى التفسير ٣/ ٢٥٦ .

(٣) مُرْتَجاً : مغلقا .

(٤) يقول ابن الجوزى : علقها باستقرار الجبل ، وذلك جائز غير مستحيل فدل على أنها جائزة ، ألا ترى أن دخول الكفار الجنة لما استحال علقه بمستحيل فقال : ﴿ **حتى يلج الجمل فى سم الخياط** ﴾ [الأعراف : ٤٠] .

وكلامهم فيها معروف .

قوله : ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا** ﴾ : تجلى معناه : ظهر ، من قولك : جلوت العروس ، أى أبرزتها . وجلوت السيف : أخلصته من الصدأ . وتجلى الشيء : انكشف . والمعنى : فلما ظهر ربه للجبل ، جعله دكاً . وقيل : المتجلى هو أمره وقدرته . قاله قطرب وغيره . والدَّكُّ : مصدر بمعنى المفعول ، أى جعله مدكوكا مدقوقا فصار ترابا . هذا على قراءة من قرأ : ﴿ **دكاً** ﴾ بالمصدر . وهم أهل المدينة وأهل البصرة . وأما على قراءة أهل الكوفة : « جعله دكاء » على التأنيث . والجمع : دكاوات ، كحمراء وحمراوات . وهى اسم للرابية الناشزة من الأرض ، أو للأرض المستوية . فالمعنى : أن الجبل صار صغيرا كالرابية ، أو أرضاً مستوية . قال الكسائى : الدك : الجبال العراض . واحدها أدك . والدكاوات : جمع دكاء . وهى رَوَابٍ من طين ليست بالغلاظ . والدكادك : ما التبد من الأرض فلم يرتفع . وناقة دكاء : لا سنام لها .

﴿ **وخر موسى صعقا** ﴾ أى مغشيا عليه مأخوذا من الصاعقة . والمعنى : أنه صار حاله لما غشى عليه كحال من يغشى عليه عند إصابة الصاعقة له . يقال : صعق الرجل فهو صعق ومصعوق إذا أصابته الصاعقة . ﴿ **فلما أفاق** ﴾ من غشيته ﴿ **قال سبحانك** ﴾ أى أنزهك تنزيهاً من أن أسأل شيئا لم تأذن لى به ﴿ **تبت إليك** ﴾ عن العود إلى مثل هذا السؤال . قال القرطبى : وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية ؛ فإن الأنبياء معصومون . وقيل : هى توبة من قتله للقبطى . ذكره القشيرى [1] . ولا وجه له فى مثل هذا المقام . ﴿ **وأنا أول المؤمنين** ﴾ بك قبل قومى الموجودين فى هذا العصر المعترفين بعظمتك وجلالك .

وجملة : ﴿ **قال يا موسى** ﴾ مستأنفة كالتى قبلها متضمنة لإكرام موسى واختصاصه بما اختصه الله به . والاصطفاء : الاجتباء والاختيار ، أى اخترتك على الناس المعاصرين لك برسالتى . كذا قرأ نافع وابن كثير بالإفراد . وقرأ الباقون بالجمع . والرسالة مصدر . والأصل فيه الإفراد . ومن جمع فكأنه نظر إلى أن الرسالة هى على ضروب ، فجمع لاختلاف الأنواع . والمراد بالكلام هنا : التكليم . امتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام ، وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة ، ثم أمره بأن يأخذ ما آتاه ، أى أعطاه من هذا الشرف الكريم . وأمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم والإكرام الجليل .

قوله : ﴿ **وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء** ﴾ من كل شيء ، أى من كل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل فى دينهم ودنياهم . وهذه الألواح هى التوراة . قيل : كانت من زمردة خضراء . وقيل : من ياقوته حمراء . وقيل : من زبرجد . وقيل : من صخرة صماء . وقد اختلف فى عدد الألواح وفى مقدار طولها وعرضها . والألواح : جمع لوح .

---

(١) القرطبى ٤/ ٢٧١٥ .

وسمى لوحاً لكونه تلوح فيه المعانى [١] . وأسند الله سبحانه الكتابة إلى نفسه تشريفا للمكتوب فى الألواح . وهى مكتوبة بأمره سبحانه. وقيل : هى كتابة خلقها الله فى الألواح . و ﴿ **من كل شىء** ﴾ فى محل نصب على أنه مفعول ﴿ **كتبنا** ﴾ و ﴿ **موعظة وتفصيلا** ﴾ بدل من محل كل شىء ، أى موعظة لمن يتعظ بها من بنى إسرائيل وغيرهم ، وتفصيلاً للأحكام المحتاجة إلى التفصيل . ﴿ **فخذها بقوة** ﴾ أى خذ الألواح بقوة ، أى بجد ونشاط . وقيل : الضمير عائد إلى الرسالات ، أو إلى كل شىء ، أو إلى التوراة . قيل : وهذا الأمر على إضمار القول. أى : فقلنا له : خذها . وقيل : إن ﴿ **فخذها** ﴾ بدل من قوله : ﴿ **فخذ ما آتيتك** ﴾ ﴿ **وأمر قومك يأخذوا بأحسنها** ﴾ أى بأحسن ما فيها بما أجره أكثر من غيره . وهو مثل قوله تعالى: ﴿ اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ [الزمر: ٥٥] وقوله : ﴿ فيتبعون أحسنه ﴾ [الزمر : ١٨] ومن الأحسن الصبر على الغير والعفو عنه والعمل بالعزيمة دون الرخصة ، وبالفريضة دون النافلة، وفعل المأمور به ، وترك المنهى عنه .

قوله: ﴿ **سأوريكم دار الفاسقين** ﴾ قيل: هى أرض مصر التى كانت لفرعون وقومه. وقيل : منازل عاد وثمود. وقيل : هى جهنم. وقيل : منازل الكفار من الجبابرة والعمالقة ليعتبروا بها . وقيل : الدار : الهلاك . والمعنى : **سأريكم** هلاك الفاسقين . وقد تقدم تحقيق معنى الفسق .

قوله: ﴿ **سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق** ﴾ قيل: معنى ﴿ **سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون** ﴾ سأمنعهم فهم كتابى . وقيل : **سأصرفهم** عن الإيمان بها . وقيل : سأصرفهم عن نفعها مجازاة على تكبرهم كما فى قوله : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] . وقيل : سأطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها ولا يعتبروا بها . واختلف فى تفسير الآيات ، فقيل : هى المعجزات . وقيل : الكتب المنزلة . وقيل : هى خلق السموات والأرض وصرفهم عنها أن لا يعتبروا بها . ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك حمل الصرف على جميع المعانى المذكورة . و﴿ **بغير الحق** ﴾ إما متعلق بقوله : ﴿**يتكبرون** ﴾ أى يتكبرون بما ليس بحق، أو بمحذوف وقع حالا، أى يتكبرون متلبسين بغير الحق .

قوله : ﴿ **وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها** ﴾ معطوف على ﴿ **يتكبرون** ﴾ منتظم معه فى حكم الصفة . والمعنى : سأصرف عن آياتى المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات . ويدخل تحت كل آية الآيات المنزلة ، والآيات التكوينية والمعجزات ، أى لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت . وقرأ مالك بن دينار : « يروا » بضم الياء فى الموضعين . وجملة : ﴿ **وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا** ﴾ معطوفة على ما قبلها داخلة فى حكمها . وكذلك جملة : ﴿ **وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلاً** ﴾ . والمعنى : أنهم إذا وجدوا سبيلاً من سبل الرشد تركوه وتجنبوه . وإن رأوا سبيلاً من سبل الغى سلكوه واختاروه لأنفسهم . قرأ أهل المدينة وأهل البصرة ﴿ **الرشد** ﴾ بضم الراء وإسكان الشين . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً بفتح

---

(١) ومثله قوله تعالى : ﴿ **بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ** ﴾ [البروج : ٢١، ٢٢] وقيل فى عددها : لوحان . وإنما سماها الله تعالى ألواحاً على مذهب العرب فى إيقاع الجمع على التثنية كقوله تعالى : ﴿ **وكنا لحكمهم شاهدين** ﴾ [الأنبياء : ٧٨] . يريد داود وسليمان .

الراء والشين . قال أبو عبيدة : فرق أبوعمرو بين الرشد والرشد ، فقال : الرُّشْد : الصلاح ، والرَّشَد : فى الدين [١] . قال النحاس : سيبويه يذهب إلى أن الرشد والرشد كالسخط والسخط . قال الكسائى : والصحيح عن أبى عمرو وغيره ما قال أبو عبيدة . وأصل الرشد فى اللغة : أن يظفر الإنسان بما يريد ، وهو ضد الخيبة . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الصرف ، أى ذلك الصرف بسبب تكذيبهم ، أو الإشارة إلى التكبر وعدم الإيمان بالآيات وتجنب سبيل الرشد ، وسلوك سبيل الغى ، واسم الإشارة مبتدأ ، وخبره جملة : ﴿ **بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** ﴾ أى بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها . والموصول فى ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة** ﴾ مبتدأ . وخبره ﴿**حبطت أعمالهم** ﴾ والمراد بلقاء الآخرة : لقاء الدار الآخرة ، أى لقائهم لها ، أو لقائهم ما وعدوا به فيها على أن الإضافة إلى الظرف ، وحباط الأعمال : بطلانها ، أى بطلان ما عملوه مما صورته صورة الطاعة كالصدقة والصلة وإن كانوا فى حال كفرهم لا طاعات لهم . ويحتمل أن يراد أنها تبطل بعد ما كانت مرجوة النفع على تقدير إسلامهم لما فى الحديث الصحيح : « أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير » [٢] . ﴿ **هل يجزون إلا ما كانوا يعملون** ﴾ من الكفر بالله ، والتكذيب بآياته ، وتنكب سبيل الحق ، وسلوك سبيل الغى .

وقد أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن كعب قال : لما كلم الله موسى ، قال : يا رب ، أهكذا كلامك ؟ قال : يا موسى ، إنما أكلمك بقوة عشرة آلاف لسان ، ولى قوة الألسن كلها . ولو كلمتك بكنه كلامى لم تك شيئاً . وأخرج البزار وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الأسماء والصفات من حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لما كلم الله موسى يوم الطور ، كلمه بغير الكلام الذى كلمه به يوم ناداه فقال له موسى : يا رب ، أهذا كلامك الذى كلمتنى به ؟ قال : يا موسى ، إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ، ولى قوة الألسن كلها ، وأقوى من ذلك . فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل ، قالوا : يا موسى ، صف لنا كلام الرحمن ، فقال : لاتستطيعونه . ألم تروا إلى أصوات الصواعق التى تقبل [٣] فى أحلى حلاوة [٤] سمعتوه ، فذاك قريب منه وليس به » [٥] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن أبى الحويرث عبد الرحمن بن معاوية قال : إنما كلم الله موسى

---

(١) ذكر عن أبى عمرو بن العلاء أنه كان يقول : معناه إذا ضممت راؤه ، وسكنت شينه : الصلاح ، كما قال تعالى : ﴿**فإن آنستم منهم رشدا**﴾ [النساء : ٦] بمعنى : صلاحاً ، وكذلك كان يقرأه هو . ومعناه إذا فتحت راؤه وشينه : الرشد فى الدين ، كما قال جل ثناؤه ﴿**وهيئ لنا من أمرنا رشدا**﴾ [الكهف : ١٠] . بمعنى : الاستقامة والصواب فى الدين .

(٢) جزء من حديث ونصه : عن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أرأيت أشياء كنت أتحنث بها فى الجاهلية من صدقة أوعتاقة ومن صلة رحم ، فهل فيها من أجر ؟ فقال النبى ﷺ : «أسلمت على ما سلف من خير » . أخرجه البخارى فى الزكاة (١٤٣٦) وفى البيوع (٢٢٢٠) وفى العتق (٢٥٣٨) وفى الأدب (٥٩٩٢) ومسلم فى الإيمان (١٢٣ / ١٩٤ ـ ١٩٦) .

(٣) فى المخطوطة : « تقتل » وما أثبتناه هو الموافق لما فى المصادر المذكورة بعد .

(٤) فى الحلية : فى أجلى جلاء .

(٥) أخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٤١٤ ، ٤١٥ ، وضعَّفه لأجل أن فيه الفضل بن عيسى الرقاشى ضعيف ، وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ٦/ ٢١٠ ، وضعفه لنفس السبب ، وعزاه الهيثمى فى المجمع ٨/ ٢٠٧ للبزار ، وضعفه لنفس السبب . وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات ١/ ١١٢ ، ١١٣ .

بقدر ما يطيق من كلامه . ولو تكلم بكلامه كله ، لم يطقه شيء . فمكث موسى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور رب العالمين (١) .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قال رب أرنى أنظر إليك** ﴾ يقول : أعطنى أنظر إليك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : لما سمع الكلام طمع فى الرؤية . وأخرج أبوالشيخ عن ابن عباس قال : حين قال موسى لربه تبارك وتعالى : ﴿ **رب أرنى أنظر إليك** ﴾ قال الله : يا موسى ، إنك لن ترانى . قال : يقول : ليس ترانى ولا يكون ذلك أبدا ، يا موسى ، إنه لن يرانى أحد فيحيا . قال موسى : رب ، إنى أراك ثم أموت أحب إلىَّ من ألا أراك ثم أحيا . فقال الله لموسى : يا موسى ، انظر إلى الجبل العظيم الطويل الشديد ﴿ **فإن استقر مكانه** ﴾ يقول : فإن ثبت مكانه لم يتضعضع ولم يَنْهدّ لبعض ما يرى من عظمتى ﴿ **فسوف ترانى** ﴾ أنت لضعفك وذلتك ، وإن الجبلُ انهَدَّ بقوته وشدته وعظمته فأنت أضعف وأذل .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عدى فى الكامل ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى كتاب الرؤية من طرق عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً** ﴾ قال : هكذا . وأشار بإصبعيه ، ووضع إبهامه على أنملة الخنصر . وفى لفظ على المفصل الأعلى من الخنصر . فساخ الجبل ﴿ **وخر موسى صعقا** ﴾ . وفى لفظ : فساخ الجبل فى الأرض، فهو يهوى فيها إلى يوم القيامة . وهذا الحديث حديث صحيح على شرط مسلم (٢) . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الجبل الذى أمره الله أن ينظر إليه الطور .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ،والبيهقى فى كتاب الرؤية عن ابن عباس : ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل** ﴾ قال : ما تجلى منه إلا قدر الخنصر . ﴿ **جعله دكاً** ﴾ قال : ترابا . ﴿ **وخر موسى صعقا** ﴾ . قال : مغشيا عليه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية ، والديلمى عن أنس ؛ أن النبى ﷺ قال : « لما تجلى الله للجبل ، طارت لعظمته ستة أجبل ، فوقعت ثلاثة بالمدينة ، وثلاثة بمكة . بالمدينة: أحد ، ووَرِقان ، ورضوى . وبمكة: حراء ، وثَبِير ، وثور » (٣) . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس ؛ أن رسول الله

---

(١) الحاكم فى المستدرك ٢/ ٥٧٦ مختصرا ، وسكت عنه ، وقال الذهبى : « إسناده لين » .

(٢) أحمد ٣/ ١٢٥ والترمذى فى التفسير (٣٠٧٤) وقال : « حسن غريب صحيح » وابن جرير ٩/ ٣٧ وابن عدى فى الكامل ٢/ ٢٦٠ ترجمة: حماد بن سلمة ، وصححه الحاكم ٢/ ٣٢٠ ،٣٢١ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

(٣) الخطيب فى تاريخه ١٠/ ٤٤١ ترجمة : عبد العزيز بن أبى ثابت الأعرج وابن الجوزى فى الموضوعات ١/ ١٢٠، ١٢١ والمصنف فى الفوائد المجموعة ص ٤٤٥ رقم (٩) وأورد ابن كثير رواية ابن أبى حاتم ٣/ ٢١٨، ٢١٩ وقال : « وهذا حديث غريب ؛ بل منكر » .

فائدة: هذا الحديث عزاه المصنف لأبى نعيم فى الحلية والديلمى عن أنس ولم أعثر عليه عند أبى نعيم فى =

ﷺ قال: « لما تجلى الله لموسى، تطايرت سبعة أجبل، ففى الحجاز خمسة منها، وفى اليمن اثنان. فى الحجاز: أحد، وثبير، وحراء، وثور، وَوَرِقان. وفى اليمن: حضور، وصبر » (١).

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس؛ أن موسى لما كلمه ربه، أحب أن ينظر إليه فسأله فقال: ﴿ **لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل** ﴾. قال: فحف حول الجبل الملائكة، وحف حول الملائكة بنار، وحف حول النار بملائكة، وحف حولهم بنار، ثم تجلى ربه للجبل تجلى منه مثل الخنصر، فجعل الجبل دكاً، وخر موسى صعقاً، فلم يزل صعقاً ما شاء الله، ثم أفاق فقال: سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين من بنى إسرائيل (٢).

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن على بن أبى طالب قال: كتب الله الألواح لموسى وهو يسمع صريف الأقلام فى لوح. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال: « الألواح التى أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة، كان طول اللوح اثنى عشر ذراعاً ». وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: كانوا يقولون: كانت الألواح من ياقوتة. وأنا أقول: إنما كانت من زمرد وكتابها الذهب، كتبها الله بيده، فسمع أهل السموات صريف الأقلام.

أقول: رحم الله سعيداً، ما كان أغناه عن هذا الذى قاله من جهة نفسه، فمثله لا يقال بالرأى ولا بالحدس. والذى يغلب به الظن أن كثيرا من السلف رحمهم الله كانوا يسألون اليهود عن هذه الأمور. فلهذا اختلفت واضطربت، فهذا يقول: من خشب، وهذا يقول: من ياقوت، وهذا يقول: من زمرد، وهذا يقول: من زبرجد، وهذا يقول: من برد، وهذا يقول: من حجر.

وأخرج أبو الشيخ عن السدى: ﴿ **وكتبنا له فى الألواح من كل شىء** ﴾: كل شىء أمروا به ونهوا عنه. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد مثله. وقد اختلف السلف فى المكتوب فى الألواح اختلافاً كثيراً. ولا مانع من حمل المكتوب على جميع ذلك لعدم التنافى.

وأخرج ابن أبى حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **فخذها بقوة** ﴾ قال: بجد وحزم. ﴿ **سأوريكم دار الفاسقين** ﴾ قال: دار الكفار. وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **وأمر قومك يأخذوا**

= الحلية، ولم أجد أحداً عزاه إليه من رواية أنس؛ لكن عزاه السيوطى فى الدر المنثور ٣/ ١٢٠ لأبى نعيم فى الحلية من رواية معاوية بن قرة عن أبيه، ولم أعثر عليه أيضا. وأما رواية الديلمى عن أنس فلم أعثر عليها فى مسند الفردوس ولم أجد من عزاه للديلمى غير المصنف.

(١) عزاه الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٧ وقال: « وفيه طلحة بن عمرو المكى وهو متروك ».
تنبيه: عزا المصنف الحديث للطبرانى فى الأوسط عن أنس؛ والصحيح عن ابن عباس. انظر: الدر المنثور ٣/ ١١٩ ومجمع الزوائد ٧/ ٢٧ والفوائد المجموعة ص ٤٤٥.

(٢) ابن جرير ٩/ ٣٤ لكن عن السدى، وصحح الحاكم إسناده ٢/ ٥٧٦ ووافقه الذهبى.

بأحسنها ﴾ قال : أمر موسى أن يأخذها بأشد مما أمر به قومه [١] . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس ﴿ **فخذها بقوة** ﴾ قال: بطاعة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **فخذها بقوة** ﴾ يعنى : بجد واجتهاد ﴿ **وأمر قومك يأخذوا بأحسنها** ﴾ قال : بأحسن ما يجدون منها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **سأوريكم دار الفاسقين** ﴾ قال: مصيرهم فى الآخرة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة قال : منازلهم فى الدنيا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : جهنم . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : مصر .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **سأصرف عن آياتى** ﴾ قال : عن أن يتفكروا فى آياتى . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج ﴿ **عن آياتى** ﴾ قال : عن خلق السموات والأرض والآيات التى فيها، **سأصرفهم** عن أن يتفكروا فيها أويعتبروا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سفيان بن عيينة فى الآية ، قال: أنزع عنهم فهم القرآن [٢] .

﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)** ﴾ .

قوله : ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده** ﴾ أى من بعد خروجه إلى الطور ﴿ **من حليهم** ﴾ متعلق بـ ﴿ **اتخذ** ﴾ أو بمحذوف وقع حالاً و ﴿ **من** ﴾ :للتبعيض ، أو للابتداء ، أو للبيان . والحُلِىُّ : جمع حَلْى. وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة ﴿ **من حُلِيِّهم** ﴾ بضم الحاء وتشديد الياء . وقرأ أهل الكوفة ، إلا عاصماً :بكسر الحاء . وقرأ يعقوب بفتح الحاء وتخفيف الياء . قال النحاس :جمع حَلْىٍ وحُلِى وحِلِى ، مثلُ : ثَدْى وثُدِى وثِدِى . والأصل : حلوى أدغمت

(١) ابن جرير ٩/ ٤٠ .

(٢) ابن جرير ٩/ ٤١ بزيادة «وأصرفهم عن آياتى» بسنده عن محمد بن عبد الله بن بكر قال: سمعت ابن عيينة يقول . . . وذكره .

الواو فى الياء فانكسرت اللام لمجاورتها الياء ، وتكسر الحاء لكسرة اللام وضمها على الأصل . وأضيفت الحلى إليهم وإن كانت لغيرهم ؛ لأن الإضافة تجوز لأدنى ملابسة و ﴿ **عجلاً** ﴾ مفعول ﴿ **اتخذ** ﴾ . وقيل : هو بمعنى التصيير ، فيتعدى إلى مفعولين ، ثانيهما محذوف ، أى اتخذوا عجلاً إلها ، و ﴿ **جسداً** ﴾ [1] بدل من عجل . وقيل : وصف له . والخوار : الصياح . يقال : خار يخور خوراً إذا صاح . وكذلك خار يخار خواراً . ونسب اتخاذ العجل إلى القوم جميعاً مع أنه اتخذه السامرى وحده لكونه واحداً منهم ، وهم راضون بفعله .

روى أنه لما وعد موسى قومه ثلاثين ليلة ، فأبطأ عليهم فى العشر المزيدة ، قال السامرى لبنى إسرائيل ، وكان مطاعاً فيهم: إن معكم حلياً من حلى آل فرعون الذى استعرتموه منهم لتزينوا به فى العيد وخرجتم وهو معكم ، وقد أغرق الله أهله من القبط ، فهاتوها ، فدفعوها إليه ، فاتخذ منها العجل المذكور .

قوله : ﴿ **ألم يروا أنه لا يكلمهم** ﴾ الاستفهام : للتقريع والتوبيخ ، أى ألم يعتبروا بأن هذا الذى اتخذوه إلهاً لا يقدر على تكليمهم ، فضلاً عن أن يقدر على جلب نفع لهم أو دفع ضر عنهم . ﴿ **ولا يهديهم سبيلاً** ﴾ أى طريقاً واضحة يسلكونها ﴿ **اتخذوه وكانوا ظالمين** ﴾ أى اتخذوه إلهاً ﴿ **وكانوا ظالمين** ﴾ لأنفسهم فى اتخاذه ، أو فى كل شىء . ومن جملة ذلك هذا الاتخاذ .

قوله : ﴿ **ولما سقط فى أيديهم** ﴾ أى ندموا وتحيروا بعد عود موسى من الميقات ، يقال للنادم المتحير : قد سقط فى يده . قال الأخفش : يقال : سقط فى يده وأسقط . ومن قال : ﴿ **سقط فى أيديهم** ﴾ على البناء للفاعل، فالمعنى عنده سقط الندم . وأصله : أن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعض يده غماً ، فتصير يده مسقوطاً فيها ، لأن فاه قد وقع فيها . وقال الأزهرى والزجاج والنحاس وغيرهم : معنى ﴿ **سقط فى أيديهم** ﴾ أى فى قلوبهم وأنفسهم ، كما يقال : حصل فى يده مكروه ، وإن كان محالاً أن يكون فى اليد تشبيهاً لما يحصل فى القلب والنفس بما يحصل فى اليد ، لأن مباشرة الأشياء فى الغالب باليد ، قال الله تعالى : ﴿ ذلك بما قدمت يداك﴾ [الحج : ١٠] وأيضاً الندم وإن حل القلب، فأثره يظهر فى البدن ، لأن النادم يعض يده ، ويضرب إحدى يديه على الأخرى ، قال الله تعالى : ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ [الكهف : ٤٢] ومنه : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ [الفرقان : ٢٧] أى من الندم . وأيضاً النادم يضع ذقنه فى يده .

﴿ **ورأوا أنهم قد ضلوا** ﴾ معطوف على ﴿ **سقط** ﴾ أى تبينوا أنهم قد ضلوا باتخاذهم العجل ، وأنهم قد ابتلوا بمعصية الله سبحانه . ﴿ **قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا** ﴾ قرأ حمزة والكسائى بالفوقية فى الفعلين جميعاً . وقرأ الباقون بالتحتية ، واللام للقسم ، وجوابه :

---

(١) الجسد : هو الذى لا يعقل ولا يميز ، إنما هو بمعنى الجثة فقط قال ابن الأنبارى : « ذكر الجسد دلالة على عدم الروح منه وأن شخصه شخص مثال وصورة ، غير منضم إليها روح ولا نفس » .

﴿ **لنكونن من الخاسرين** ﴾ وفى هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله والتضرع والابتهال فى السؤال . وسيأتى فى سورة طه إن شاء الله ما يدل على أن هذا الكلام المحكى عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى . وإنما قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل فى موضع واحد .

قوله : ﴿ **ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً** ﴾ هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه. وانتصاب غضبان وأسفاً على الحال . والأسف : شديد الغضب . قيل : هو منزلة وراء الغضب أشد منه. وهو : أَسَف وأَسِيف وأَسْفَان وأَسُوف . قال ابن جرير الطبرى : أخبره الله قبل رجوعه بأنهم قد فتنوا. فلذلك رجع وهوغضبان أسفا [١].

﴿ **قال بئسما خلفتمونى من بعدى** ﴾ هذا ذم من موسى لقومه ، أى بئس العمل ما عملتموه من بعدى ، أى من بعد غيبتى عنكم ، يقال : خلفه بخير وخلفه بشر ، استنكر عليهم ما فعلوه، وذمهم لكونهم قد شاهدوا من الآيات ما يوجب بعضه الانزجار والإيمان بالله وحده ، ولكن هذا شأن بنى إسرائيل فى تلون حالهم واضطراب أفعالهم . ثم قال منكراً عليهم ﴿ **أعجلتم أمر ربكم** ﴾ والعجلة : التقدم بالشىء قبل وقته . يقال : عجلت الشىء: سبقته ، وأعجلت الرجل : حملته على العجلة . والمعنى : أعجلتم عن انتظار أمر ربكم ؟ أى ميعاده الذى وعدنيه، وهو الأربعون ، ففعلتم ما فعلتم . وقيل معناه : تعجلتم سخط ربكم . وقيل : معناه: أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر ربكم .

﴿ **وألقى الألواح** ﴾ أى طرحها لما اعتراه من شدة الغضب والأسف ، حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل .

قوله : ﴿ **وأخذ برأس أخيه يجره إليه** ﴾ أى أخذ برأس أخيه هارون ، أو بشعر رأسه حال كونه يجره إليه . فعل به ذلك لكونه لم ينكر على السامرى ولا غيره ، ما رآه من عبادة بنى إسرائيل للعجل ، فقال هارون معتذراً منه : ﴿ **ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى** ﴾ أى إنى لم أطق تغيير ما فعلوه لهذين الأمرين ،استضعافهم لى ومقاربتهم لقتلى . وإنما قال ﴿ **ابن أم** ﴾ [٢] مع كونه أخاه من أبيه وأمه ، لأنها كلمة لين وعطف، ولأنها كانت كما قيل مؤمنة . وقال الزجاج : قيل : كان هارون أخا موسى لأمه لا لأبيه . قرئ :﴿ **ابن**

---

(١) قال القرطبى ٤/ ٢٧٢٣ : « وكان موسى عليه السلام من أعظم الناس غضبا ، ولكنه كان سريع الفيئة ؛ فتلك بتلك » . قال ابن القاسم: سمعت مالكاً يقول : « كان موسى عليه السلام إذا غضب طلع الدخان من قلنسوته، ورفع شعر بدنه جُبَّته . وذلك أن الغضب جمرة تتوقد فى القلب . ولأجله أمر النبى ﷺ من غضب أن يضطجع فإن لم يذهب غضبه اغتسل ؛ فيخمدها اضطجاعه ويطفئها اغتساله » .

(٢) قال ابن الجوزى : ومن العرب من يقول : « يا ابن أمى » بإثبات الياء ، كما قال أبو زبيد :

يا ابن أمى ، ويا شقيق نفسى أنت خلفتنى لدهر شديد

راجع : أمالى اليزيدى ٩ وجمهرة أشعار العرب ١٣٩واللسان (شفق) وهامش خزانة الأدب ٤/ ٢٢٢ .

أم ﴾ بفتح الميم تشبيها له بخمسة عشر ، فصار كقولك : يا خمسة عشر أقبلوا . وقال الكسائى والفراء وأبو عبيد : إن الفتح على تقدير يابن أما . وقال البصريون : هذا القول خطأ ، لأن الألف خفيفة لا تحذف ، ولكن جعل الاسمين اسما واحدا : كخمسة عشر واختاره الزجاج والنحاس . وأما من قرأ بكسر الميم فهو على تقدير : ابن أمى ، ثم حذفت الياء وأبقيت الكسرة لتدل عليها. وقال الأخفش وأبو حاتم : ابن أم بالكسر ، كما تقول : يا غلام ، أقبل. وهى لغة شاذة . والقراءة بها بعيدة . وإنما هذا فيما يكون مضافاً إليك . وقرئ « ابن أمى » بإثبات الياء .

قوله : ﴿ **فلا تشمت بى الأعداء** ﴾ الشماتة : السرور من الأعداء بما يصيب من يعادونه مع المصائب . ومنه قوله ﷺ :« اللهم إنى أعوذ بك من سوء القضاء [١] ، ودرك الشقاء [٢] ، وجهد البلاء [٣] ، وشماتة الأعداء[٤] » ، وهو فى الصحيح [٥] . ومنه قول الشاعر :

إذا ما الدهر جر على أناس ... كلا كله أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

والمعنى : لا تفعل بى ما يكون سببا للشماتة منهم . وقرأ مجاهد ومالك بن دينار : « فلا تشمت بى الأعداء» بفتح حرف المضارعة ، وفتح الميم ، ورفع الأعداء ، على أن الفعل مسند إليهم ، أى لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله بى. وروى عن مجاهد أنه قرأ : « تشمت » كما تقدم عنه مع نصب الأعداء . قال ابن جنى : والمعنى: فلا تشمت بى أنت يارب . وجاز هذا كما فى قوله : ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ [البقرة : ١٥] ونحوه ، ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلا نصب به الأعداء كأنه قال : ولا تشمت يا رب بى الأعداء . وما أبعد هذه القراءة عن الصواب ، وأبعد تأويلها عن وجوه الإعراب .

قوله : ﴿ **ولا تجعلنى مع القوم الظالمين** ﴾ أى لا تجعلنى بغضبك على فى عداد القوم الظالمين . يعنى : الذين عبدوا العجل ، أو لا تعتقد أنى منهم .

قوله : ﴿ **قال رب اغفر لى ولأخى** ﴾ هذا كلام مستأنف جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال موسى بعد كلام هارون هذا ؟ فقيل :﴿ **قال رب اغفر لى ولأخى** ﴾ طلب المغفرة له أولاً ، ولأخيه ثانيا ، ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة ، فكأنه تذمم مما فعله بأخيه ،

(١) سوء القضاء : يدخل فيه سوء قضاء الدين فى الدين والدنيا والبدن والمال .

(٢) درك الشقاء : والمشهور فيها بفتح الراء ، ومعناه : أعوذ بك أن يدركنى شقاء .

(٣) جهد البلاء : فسره ابن عمر : بقلة المال ، وكثرة العيال ، وقال غيره : « هى الحالة الشاقة » .

(٤) شماتة الأعداء : هى فرح العدو ببلية تنزل بعدوه .

(٥) الحديث عن أبى هريرة أخرجه أحمد ٢/ ٢٤٦ والبخارى فى القدر (٦٦١٦) ومسلم فى الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٧٠/ ٢٧/ ٥٣) والنسائى فى الاستعاذة ٨/ ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

وأظهر أنه لا وجه له ، وطلب المغفرة من الله مما فرط منه فى جانبه ، ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليه [١] من الإنكار عليهم وتغيير ما وقع منهم. ثم طلب إدخاله وإدخال أخيه فى رحمة الله التى وسعت كل شىء ، فهو ﴿ **أرحم الراحمين** ﴾ .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **واتخذ قوم موسى** ﴾ الآية ، قال : حين دفنوها ، ألقى عليها السامرى قبضة من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية ، قال : استعاروا حلياً من آل فرعون فجمعه السامرى ، فصاغ منه ﴿ **عجلاً** ﴾ فجعله ﴿**جسداً**﴾ لحماً ودماً ﴿ **له خوار** ﴾. وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **خوار** ﴾ قال : الصوت . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال : خار العجل خورة لم يئن ، ألم تر أن الله قال : ﴿ **ألم يروا أنه لا يكلمهم** ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **سقط فى أيديهم** ﴾ قال : ندموا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس ﴿ **أسفاً** ﴾ ، قال : حزيناً [٢] . وأخرج أبو الشيخ عن أبى الدرداء قال: الأسف منزلة وراء الغضب أشد من ذلك. وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب قال : الأسف : الغضب الشديد .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : لما ألقى موسى الألواح تكسرت فرفعت إلا سدسها . وأخرج أبو الشيخ عنه قال : رفع الله منها ستة أسباعها وبقى سبع . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن مجاهد أو سعيد بن جبير قال : لما ألقاها موسى ، ذهب التفصيل وبقى الهدى . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : كانت تسعة رفع منها لوحان وبقى سبعة . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ولا تجعلنى مع القوم الظالمين** ﴾ قال : مع أصحاب العجل .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)** ﴾ .

الغضب : ما نزل بهم من العقوبة فى الدنيا بقتل أنفسهم وما سينزل بهم فى الآخرة من العذاب . والذلة : هى التى ضربها الله عليهم بقوله : ﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ [البقرة :

---

(١) فى المطبوعة : « عليهم » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) ابن جرير ٩/ ٤٤ وفيه زيادة ﴿ **فلما آسفونا** ﴾ [الزخرف : ٥٥] يقول : أغضبونا والأسف على وجهين: الغضب والحزن .

٦١ ، وآل عمران : ١١٢] . وقيل : هى إخراجهم من ديارهم. وقيل : هى الجزية ، وفيه نظر، لأنها لم تؤخذ منهم ، وإنما أخذت من ذراريهم ، والأولى : أن يقيد الغضب والذلة بالدنيا، لقوله : ﴿ **فى الحياة الدنيا** ﴾ ، وأن ذلك مختص بالمتخذين للعجل إلهاً ، لا لمن بعدهم من ذراريهم . ومجرد ما أمروا به من قتل أنفسهم هو غضب من الله عليهم ، وبه يصيرون أذلاء. وكذلك خروجهم من ديارهم هو من غضب الله عليهم ، وبه يصيرون أذلاء . وأما ما نال ذراريهم من الذلة فلا يصح تفسير ما فى الآية به ، إلا إذا تعذر حمل الآية على المعنى الحقيقى ، وهو لم يتعذر هنا . ﴿ **وكذلك نجزى المفترين**﴾ أى مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين . والافتراء : الكذب . فمن افترى على الله سيناله من الله غضب وذلة فى الحياة الدنيا [١] ، وإن لم يكن بنفس ما عوقب به هؤلاء ، بل المراد: ما يصدق عليه أنه من غضب الله سبحانه ، وأن فيه ذلة بأى نوع كان . ﴿ **والذين عملوا السيئات**﴾ أى سيئة كانت ﴿ **ثم تابوا** ﴾ عنها ﴿ **من بعد** ﴾ عملها ﴿ **وآمنوا** ﴾ بالله ﴿ **إن ربك من بعدها** ﴾ أى من بعد هذه التوبة ، أو من بعد عمل هذه السيئات التى قد تاب عنها فاعلها وآمن بالله ﴿ **لغفور رحيم** ﴾ أى كثير الغفران لذنوب عباده وكثير الرحمة لهم .

قوله : ﴿ **ولما سكت عن موسى الغضب** ﴾ أصل السكوت : السكون والإمساك ، يقال : جرى الوادى ثلاثاً ثم سكن ، أى أمسك عن الجرى . قيل : هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ، ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجر برأس أخيك . فترك الإغراء وسكت . وقيل : هذا الكلام فيه قلب . والأصل : سكت موسى عن الغضب ، كقولهم : أدخلت الإصبع الخاتم ، والخاتم الإصبع . وأدخلت القلنسوة رأسى ، ورأسى القلنسوة [٢] . وقرأ معاوية بن قرة : « ولما سكن عن موسى الغضب » . وقرئ : « سكت وأسكت » .

﴿ **أخذ الألواح** ﴾ التى ألقاها عند غضبه ﴿ **وفى نسختها هدى ورحمة** ﴾ النسخ : نقل ما فى كتاب إلى كتاب آخر . ويقال للأصل الذى كان النقل منه : نسخة ، وللمنقول : نسخة أيضاً . قال القشيرى : والمعنى : ﴿**وفى نسختها**﴾ أى فيما نسخ من الألواح المتكسرة ونقل إلى الألواح الجديدة ﴿ **هدى ورحمة** ﴾ . وقيل : المعنى : وفيما نسخ له منها ، أى من اللوح المحفوظ. وقيل : المعنى : وفيما كتب له فيها هدى ورحمة ، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه . وهذا كما يقال : انسخ ما يقول فلان ، أى أثبته فى كتابك . والنسخة فعلة ، بمعنى : مفعولة كالخطبة ، والهدى ما يهتدون به من الأحكام ، والرحمة ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة . واللام فى ﴿ **للذين هم** ﴾ متعلقة بمحذوف ، أى كائنة لهم أو

---

(١) يقول صاحب الكشاف ٢/ ١٦٢ : «وأى فرية أعظم من قول السامرى: ﴿ **هذا إلهكم وإله موسى** ﴾ [طه : ٨٨] ».

(٢) مجاز القرآن ١/ ٢٢٩ .

لأجلهم ، واللام فى ﴿ **لربهم يرهبون** ﴾ للتقوية للفعل لما كان مفعوله متقدماً عليه فإنه يضعف بذلك بعض الضعف [١] . وقد صرح الكسائى بأنها زائدة . وقال الأخفش : هى لام الأجل ، أى لأجل ربهم يرهبون وقال محمد بن يزيد المبرد : هى متعلقة بمصدر الفعل المذكور ، والتقدير : للذين هم رهبتهم لربهم يرهبون .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أيوب قال : تلا أبو قلابة هذه الآية : ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وكذلك نجزى المفترين** ﴾ قال : هو جزاء كل مفتر يكون إلى يوم القيامة أن يذله الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : أعطى موسى التوراة فى سبعة ألواح من زبرجد ، فيها تبيان لكل شىء وموعظة . ولما جاء فرأى بنى إسرائيل عكوفاً على العجل ، رمى التوراة من يده فتحطمت ، وأقبل على هارون فأخذ برأسه ، فرفع الله منها ستة أسباع وبقى سبع . ﴿ **فلما ذهب عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة** ﴾ قال : فيما بقى منها . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أو سعيد بن جبير قال : كانت الألواح من زمرد . فلما ألقاها موسى ذهب التفصيل ، وبقى الهدى والرحمة . وقرأ : ﴿**وكتبنا له فى الألواح [من كل شىء]** [٢] **موعظة وتفصيلاً لكل شىء** ﴾ . وقرأ : ﴿ **ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة** ﴾ قال : ولم يذكر التفصيل هاهنا .

﴿ **وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)** ﴾ .

قوله : ﴿ **واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا** ﴾ هذا شروع فى بيان ما كان من موسى

---

(١) ومن ذلك قوله جل ثناؤه : ﴿ **إن كنتم للرؤيا تعبرون** ﴾ [يوسف : ٤٣] .

(٢) سقط من المخطوطة قوله تعالى : ﴿ **من كل شىء** ﴾ .

ومن القوم الذين اختارهم، و ﴿ **سبعين** ﴾ مفعول ﴿ **اختار** ﴾ ، و ﴿ **قومه** ﴾ منصوب بنزع الخافض ، أى من قومه على الحذف والإيصال . ومثله قول الراعى :

اخترتك الناسَ إذ رثَّت خلائقهم واعتل من كان يرجى عنده السول [١]

يريد اخترتك من الناس . ومعنى ﴿ **لميقاتنا** ﴾ : للوقت الذى وقتناه له بعد أن وقع من قومه ما وقع . والميقات الكلام الذى تقدم ذكره ، لأن الله أمره أن يأتى إلى الطور فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه سبحانه من عبادة العجل . كذا قيل . والرجفة فى اللغة : الزلزلة الشديدة. قيل : إنهم زلزلوا حتى ماتوا ، فلما رأى موسى أخذ الرجفة لهم ﴿ **قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى** ﴾ قاله عليه السلام تحسراً وتلهفاً ، لأن سبب أخذ الرجفة لهم ما حكى الله عنهم من قولهم : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة ﴾ على ما تقدم فى البقرة [الآية: ٥٥] . وقيل: هؤلاء السبعون غير من قالوا : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ [النساء : ١٥٣] بل أخذتهم الرجفة بسبب عدم انتهائهم عن عبادة العجل . وقيل : إنهم قوم لم يرضوا بعبادة العجل ولا نهوا السامرى ومن معه عن عبادته ، فأخذتهم الرجفة بسبب سكوتهم. والمعنى : لو شئت إهلاكنا لأهلكتنا بذنوبنا قبل هذا الوقت اعترافاً منه عليه السلام بالذنب وتلهفاً على ما فرط من قومه . والاستفهام فى قوله : ﴿ **أتهلكنا بما فعل السفهاء منا** ﴾ للجحد ، أى لست ممن يفعل ذلك . قاله ثقة منه برحمة الله . والمقصود منه الاستعطاف والتضرع. وقيل : معناه : الدعاء والطلب ، أى لا تهلكنا . قال المبرد : المراد بالاستفهام استفهام الإعظام كأنه يقول : [لا تهلكنا] [٢] وقد علم موسى أنه لا يهلك أحد بذنب غيره . ولكنه كقول عيسى : ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ [المائدة : ١١٨] . وقيل : المراد بالسفهاء : السبعون ، والمعنى : أتهلك بنى إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء فى قولهم : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ [النساء : ١٥٣] . وقيل : المراد بهم السامرى وأصحابه.

قوله : ﴿ **إن هى إلا فتنتك** ﴾ أى ما الفتنة التى وقع فيها هؤلاء السفهاء إلا فتنتك التى تختبر بها من شئت وتمتحن بها من أردت . ولعله عليه السلام استفاد هذا من قوله سبحانه : ﴿ فإنا قد فتنا قومك من بعدك ﴾ [طه: ٨٥] ﴿ **تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء** ﴾ أى تضل بهذه الفتنة من تشاء من عبادك وتهدى بها من تشاء منهم . ومثله : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ [هود : ٧ ، الملك : ٢] ثم رجع إلى الاستعطاف والدعاء فقال : ﴿ **أنت ولينا** ﴾ أى المتولى لأمورنا. ﴿ **فاغفر لنا** ﴾ ما أذنبناه ﴿ **وارحمنا** ﴾ برحمتك التى وسعت كل شىء . ﴿ **وأنت خير الغافرين** ﴾ للذنوب .

﴿ **واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة** ﴾ بتوفيقنا للأعمال الصالحة ، أو تفضل علينا بإفاضة

---

(١) رثت خلائقهم : صارت رديئة خسيسة ، واعتل : طلب العلل لمنع العطاء ، والسُّول : أصلها بالهمزة وحذفت للتخفيف .

(٢) هذا القول ساقط من المخطوطة ، والصواب إثباته كما فى القرطبى ٤/ ٢٧٣١ .

النعم فى هذه الدنيا من العافية وسعة الرزق ﴿ **وفى الآخرة** ﴾ أى واكتب لنا فى الآخرة الجنة بما تجازينا به أو بما تتفضل به علينا من النعيم فى الآخرة. وجملة : ﴿ **إنا هدنا إليك** ﴾ تعليل لما قبلها من سؤال المغفرة والرحمة والحسنة فى الدنيا وفى الآخرة ، أى إنا تبنا إليك ورجعنا عن الغواية التى وقعت من بنى إسرائيل . والهود: التوبة. وقد تقدم فى البقرة.

وجملة : ﴿ **قال عذابى أصيب به من أشاء** ﴾ مستأنفة كنظائرها فيما تقدم . قيل : المراد بالعذاب هنا : الرجفة . وقيل : أمره سبحانه لهم بأن يقتلوا أنفسهم ، أى ليس هذا إليك يا موسى ، بل ما شئتُ كان ، وما لم أشأ لم يكن . والظاهر : أن العذاب هنا يندرج تحته كل عذاب ويدخل فيه عذاب هؤلاء دخولاً أولياً . وقيل : المراد: مَنْ أشاء من المستحقين للعذاب ، أو من أشاء أن أضله وأسلبه التوفيق . ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾ [1] من الأشياء من المكلفين وغيرهم . ثم أخبر سبحانه أنه سيكتب هذه الرحمة الواسعة ﴿ **للذين يتقون** ﴾ الذنوب ﴿ **ويؤتون الزكاة** ﴾ المفروضةعليهم ﴿ **والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ أى يصدقون بها ويذعنون لها .

ثم بين سبحانه هؤلاء الذين كتب لهم هذه الرحمة ببيان أوضح مما قبله وأصرح فقال : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى** ﴾ وهو محمد عليه الصلاة والسلام ، فخرجت اليهود والنصارى وسائر الملل . والأمى : إما نسبة إلى الأمة الأمية التى لا تكتب ولا تحسب ، وهم العرب ، أو نسبة إلى الأم . والمعنى : أنه باق على حالته التى ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ؛ وقيل : نسبة إلى أم القرى . وهى مكة .

﴿ **الذى يجدونه** ﴾ يعنى : اليهود والنصارى ، أى يجدون نعته ، ﴿ **مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل** ﴾ وهما مرجعهم فى الدين . وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الإنجيل ، فهو من باب الإخبار بما سيكون . ثم وصف هذا النبى الذى يجدونه كذلك بأنه يأمر بالمعروف ، أى بكل ما تعرفه القلوب ولا تنكره من الأشياء التى هى من مكارم الأخلاق . ﴿ **وينهاهم عن المنكر** ﴾ أى ما تنكره القلوب ولا تعرفه . وهو ما كان من مساوئ الأخلاق . قيل : إن قوله : ﴿ **يأمرهم بالمعروف** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أولئك هم المفلحون** ﴾ كلام يتضمن تفصيل أحكام الرحمة التى وعد بها . ذكر معناه الزجاج . وقيل : هو فى محل نصب على الحال من النبى . وقيل: هو مفسر لقوله : ﴿ **مكتوباً** ﴾ .

---

(١) فى هذا الكلام أقوال :

أحدها : أن مخرجه عام وخاص وتأويله : ورحمتى وسعت المؤمنين من أمة محمد ﷺ . لقوله تعالى: ﴿ **فسأكتبها للذين يتقون** ﴾ قاله ابن عباس .

والثانى : أن هذه الرحمة على العموم فى الدنيا والخصوص فى الآخرة وتأويلها : ورحمتى وسعت كل شىء فى الدنيا البر والفاجر ، وفى الآخرة هى للمتقين خاصة .

والثالث : أن الرحمة التوبة ، فهى على العموم . قاله ابن زيد .

قوله : ﴿ **يحل لهم الطيبات** ﴾ أى المستلذات . وقيل : يحل لهم ما حرم عليهم من الأشياء التى حرمت عليهم بسبب ذنوبهم . ﴿ **ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ أى المستخبثات [١] ، كالحشرات والخنازير . ﴿ **ويضع عنهم إصرهم** ﴾ الإصر : الثقل ، أى يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة . وقد تقدم بيانه فى البقرة [الآية : ٢٨٦] . ﴿ **والأغلال التى كانت عليهم** ﴾ أى ويضع عنهم الأغلال التى كانت عليهم. الأغلال مستعارة للتكاليف الشاقة التى كانوا قد كلفوها . ﴿ **فالذين آمنوا به** ﴾ أى بمحمد ﷺ ﴿ **واتبعوه** ﴾ فيما جاء به من الشرائع ﴿ **وعزروه** ﴾ أى عظموه ووقروه ، قاله الأخفش . وقيل : معناه : منعوه من عدوه . وأصل العزر: المنع . وقرأ الجحدرى: « وعزروه » بالتخفيف . ﴿ **ونصروه** ﴾ أى قاموا بنصره على من يعاديه . ﴿ **واتبعوا النور الذى أنزل معه** ﴾ أى اتبعوا القرآن الذى أنزل عليه مع نبوته . وقيل : المعنى : واتبعوا القرآن المنزل إليه مع إتباعه بالعمل بسنته مما يأمر به وينهى عنه ، أو اتبعوا القرآن مصاحبين له فى اتباعه . والإشارة بـ ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المتصفين بهذه الأوصاف ﴿ **هم المفلحون** ﴾ الفائزون بالخير والفلاح ، لا غيرهم من الأمم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واختار موسى قومه** .. ﴾ الآية ، قال: كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً ، فاختار سبعين رجلاً ، فبرز بهم ليدعوا ربهم ، فكان فيما دعوا الله أن قالوا: اللهم أعطنا مالم تعط أحداً من قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا . فكره الله ذلك من دعائهم ، فأخذتهم الرجفة ، ﴿ **قال** ﴾ موسى: ﴿ **رب لو شئت أهلكتهم من قبل** ﴾ ﴿ **إن هى إلا فتنتك** ﴾ يقول : إن هى إلا عذابك تصيب به من تشاء وتصرفه عمن تشاء [٢] .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد: ﴿ **لميقاتنا** ﴾ قال: لتمام الموعد، وفى قوله : ﴿ **فلما أخذتهم الرجفة** ﴾ قال : ماتوا ثم أحياهم . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو الشيخ عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **إن هى إلا فتنتك** ﴾ قال : بليتك . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس : ﴿ **إن هى إلا فتنتك** ﴾ قال : مشيئتك . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن ابن عباس ، قال : إن السبعين الذين اختارهم موسى من قومه إنما أخذتهم الرجفة ، لأنهم لم يرضوا بالعمل ، ولم ينهوا عنه .

وأخرج سعيد بن منصور عنه فى قوله : ﴿ **واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة** ﴾ فلم يعطها موسى ﴿ **قال عذابى أصيب به من أشاء** ﴾ إلى قوله : ﴿ **المفلحون** ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: ﴿ **واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة** ﴾ قال : فكتب الرحمة يومئذ لهذه الأمة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنا هدنا إليك** ﴾ قال : تبنا إليك . وأخرج ابن أبى حاتم

---

(١) فى المطبوعة : « المستخبثات » والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) ابن جرير ٩/ ٥٠ .

عن سعيد بن جبير مثله. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى وجزة السعدى ، وكان من أعلم الناس بالعربية ، قال : لا والله ما أعلمها فى كلام العرب ﴿ هُدنا ﴾ قيل : فكيف : «هِدنا » بكسر الهاء . يقول : مِلنا .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد فى الزهد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن وقتادة فى قوله : ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾ قال : وسعت رحمته فى الدنيا البر والفاجر ، وهى يوم القيامة للذين اتقوا خاصة. وأخرج مسلم وغيره عن سلمان عن النبى ﷺ ، قال: « إن لله مائة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق. وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة » (١). وأخرج نحوه أحمد وأبو داود والطبرانى والحاكم والضياء المقدسى من حديث جندب بن عبد الله البجلى (٢) . وأخرج أبو الشيخ عن السدى قال: لما نزلت: ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾ قال إبليس: وأنا من الشىء . فنسخها الله ، فنزلت : ﴿ **فسأكتبها للذين يتقون** .. ﴾ إلى آخر الآية . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج قال: لما نزلت: ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾ قال إبليس : أنا من الشىء . قال الله تعالى : ﴿ **فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة** ﴾ قالت اليهود: فنحن نتقى ونؤتى الزكاة ، قال الله : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى** ﴾ فعزلها الله عن إبليس وعن اليهود ، وجعلها لأمة محمد ﷺ (٣) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة نحوه(٤).

وأخرج البزار فى مسنده وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: سأل موسى ربه مسألة فأعطاها محمداً ﷺ ، قوله: ﴿ **واختار موسى قومه** ... ﴾ إلى قوله: ﴿ **فسأكتبها للذين يتقون** ﴾ (٥) فأعطى محمداً كل شىء سأل موسى ربه فى هذه الآية . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله: ﴿ **فسأكتبها للذين يتقون** ﴾ قال: كتبها الله لهذه الأمة . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية ، قال : يتقون الشرك .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن النخعى فى قوله : ﴿ **النبى الأمى** ﴾ قال : كان لا يقرأ ولا يكتب . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية ، قال : هو نبيكم ﷺ كان أمياً لا يكتب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **الذى يجدونه مكتوباً عندهم** ﴾ قال : يجدون نعته وأمره ونبوته مكتوباً عندهم . وأخرج ابن سعد والبخارى وابن جرير ، والبيهقى فى الدلائل عن عطاء بن يسار قال : لقيت

---

(١) مسلم فى التوبة (٢٧٥٣/ ٢٠ ، ٢١) .

(٢) فى المطبوعة « العجلى » بالعين بدل الباء ، وهو تحريف ، والصواب « البجلى » كما أثبتناه من المخطوطة ، والحديث أخرجه أحمد ٤/ ٣١٢ وأبوداود فى الأدب (٤٨٨٥) والطبرانى (١٦٦٧) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٢١٧ : « ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبى عبد الله الجشمى ولم يضعفه أحد » والحاكم ١/ ٥٦ وسكت عنه ، و الذهبى أيضا .

(٣) وهذا الأثر موجود فى ابن جرير ٩/ ٥٤ لكن عن أبى بكر الهذلى .

(٤) ابن جرير ٩/ ٥٥ . (٥) كشف الأستار (٢٢١٣) .

عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت له : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ ، قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا تجزى بالسيئة السيئة ولكن تعفو وتصفح . ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ،ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً » [١]. وأخرج ابن سعد [٢] والدارمى فى مسنده ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر عن عبد الله بن سلام مثله [٣] . وقد روى نحو هذا مع اختلاف فى بعض الألفاظ ، وزيادة فى بعض ، ونقص فى بعض عن جماعة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ويحل لهم الطيبات** ﴾ قال : الحلال . ﴿ **ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم** ﴾ قال : التثقيل الذى كان فى دينهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ قال : كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التى حرمها الله ، وفى قوله : ﴿ **ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم** ﴾ قال : هو ما كان الله أخذ عليهم من الميثاق فيما حرم عليهم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد ابن جبير فى قوله: ﴿ **ويضع عنهم إصرهم** ﴾ قال: ما غلظ على بنى إسرائيل من قرض البول من جلودهم إذا أصابهم، ونحوه [٤] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وعزروه** ﴾ يعنى : عظموه ووقروه.

﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)** ﴾ .

لما تقدم ذكر أوصاف رسول الله ﷺ المكتوبة فى التوراة والإنجيل ، أمره سبحانه أن يقول هذا القول المقتضى لعموم رسالته إلى الناس جميعاً ،لا كما كان غيره من الرسل عليهم السلام، فإنهم كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة ، و﴿ **جميعاً** ﴾: منصوب على الحال ، أى حال كونكم جميعاً .و﴿ **الذى له ملك السموات والأرض** ﴾ إما فى محل جر على الصفة للاسم الشريف، أو منصوب على المدح ، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف . وجملة : ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ بدل من الصلة مقرر لمضمونها مبين لها ؛ لأن من ملك السموات والأرض وما فيهما هو الإله

(١) ابن سعد ١/ ٣٦٢ والبخارى فى التفسير (٤٨٣٨) وابن جرير ٩/ ٥٧ والبيهقى فى الدلائل ١/ ٣٧٤ .
(٢) فى المطبوعة « ابن سعيد » والصواب ما أثبتناه وانظر التخريج التالى .
(٣) ابن سعد ١ / ٣٦٠ والدارمى ١ / ٥ والبيهقى فى الدلائل ١ / ٣٧٦ . (٤) ابن جرير ٩/ ٥٨ .

على الحقيقة وهكذا من كان يحيى ويميت هو المستحق لتفرده بالربوبية ونفى الشركاء عنه . والأمر بالإيمان بالله وبرسوله متفرع على ما قبله . وقد تقدم تفسير النبى الأمى . وهما وصفان لرسوله. وكذلك ﴿ **الذى يؤمن بالله وكلماته** ﴾ وصف له . والمراد بالكلمات : ما أنزله الله عليه وعلى الأنبياء من قبله ، أو القرآن فقط . وجملة : ﴿ **واتبعوه** ﴾ مقررة لجملة : ﴿ **فآمنوا بالله** ﴾ و﴿**لعلكم تهتدون** ﴾ علة للأمر بالإيمان والاتباع .

وقد أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : بعث الله محمداً ﷺ إلى الأحمر والأسود ، فقال : ﴿ **يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً** ﴾ . والأحاديث الصحيحة الكثيرة فى هذا المعنى مشهورة فلا نطيل بذكرها . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **يؤمن بالله وكلماته** ﴾ قال: آياته [1] . وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **وكلماته** ﴾ قال : عيسى [2] .

﴿ **وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) ﴾ .**

قوله : ﴿ **ومن قوم موسى** ﴾ لما قص الله علينا ما وقع من السامرى وأصحابه وما حصل من بنى إسرائيل من التزلزل فى الدين ، قص علينا سبحانه أن من قوم موسى أمة مخالفة لأولئك الذين تقدم ذكرهم ، ووصفهم بأنهم ﴿ **يهدون بالحق** ﴾ أى يدعون الناس إلى الهداية

(١،٢) ابن جرير ٩/ ٥٩ .

حال كونهم متلبسين بالحق ﴿ **وبه** ﴾ أى بالحق ﴿ **يعدلون** ﴾ بين الناس فى الحكم . وقيل : هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ منهم .

قوله : ﴿ **وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً** ﴾ [١] الضمير يرجع إلى قوم موسى المتقدم ذكرهم ، لا إلى هؤلاء الأمة منهم الذين يهدون بالحق وبه يعدلون ، والمعنى : صيرناهم قطعاً متفرقة ، وميزنا بعضهم من بعض . وهذا من جملة ما قصه الله علينا من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل ، والمعنى : أنه ميز بعضهم من بعض حتى صاروا أسباطاً كل سبط معروف على انفراده لكل سبط نقيب كما فى قوله تعالى : ﴿ وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً ﴾ [المائدة : ١٢] وقد تقدم . وقوله : ﴿ **اثنتى عشرة** ﴾ هو ثانى مفعولى ﴿ **قطّعنا** ﴾ لتضمنه معنى التصيير . و﴿ **أسباطاً** ﴾ تمييز له أو بدل منه . و﴿ **أمماً** ﴾ نعت للأسباط أو بدل منه . والأسباط : جمع سبط ، وهو ولد الولد . صاروا اثنتى عشرة أمة من اثنى عشر ولداً ، وأراد بالأسباط : القبائل ، ولهذا أنث العدد كما فى قول الشاعر :

وإن قريشاً كلها عشر أبطن ... وأنت برىء من قبائلها العشر [٢]

أراد بالبطن : القبيلة . وقد تقدم تحقيق معنى الأسباط فى البقرة [الآية : ٥٨] . وروى المفضل عن عاصم أنه قرأ : « قطعناهم » مخففاً ، وسماهم أمماً ؛ لأن كل سبط كان جماعة كثيرة العدد ، وكانوا مختلفى الآراء ، يؤم بعضهم غير ما يؤمه الآخر .

﴿ **وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه** ﴾ أى وقت استسقائهم له لما أصابهم العطش فى التيه ﴿ **أن اضرب بعصاك الحجر** ﴾ تفسير لفعل الإيحاء ﴿ **فانبجست** ﴾ عطف على مقدر يدل عليه السياق ، أى فضرب فانبجست ، والانبجاس : الانفجار ، أى فانفجرت . ﴿ **منه اثنتا عشرة عيناً** ﴾ بعدد الأسباط لكل سبط عينٌ يشربون منها . ﴿ **قد علم كل أناس مشربهم** ﴾ أى كل سبط منهم العين المختصة به التى يشرب منها . وقد تقدم فى البقرة ما فيه كفاية مغنية عن الإعادة . ﴿ **وظللنا عليهم الغمام** ﴾ أى جعلناه ظللاً عليهم فى التيه ، يسير بسيرهم ويقيم بإقامتهم ﴿ **وأنزلنا عليهم المن والسلوى** ﴾ أى الترنجبين والسمانى كما تقدم تحقيقه فى البقرة . ﴿ **كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ أى وقلنا لهم كلوا من المستلذات التى رزقناكم ﴿ **وما ظلمونا** ﴾ بما وقع منهم من المخالفة وكفران النعم وعدم تقديرها حق قدرها ، ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ أى كان ظلمهم مختصاً بهم مقصوراً عليهم لا يجاوزهم إلى غيرهم .

﴿ **وإذ قيل لهم** ﴾ أى واذكر وقت قيل لهم هذا القول وهو : ﴿ **اسكنوا هذه القرية** ﴾ أى

---

(١) الأسباط : جمع سبط وهو ولد الولد ، والأسباط بنو يعقوب عليه السلام كانوا اثنى عشر رجلاً ، كل واحد منهم ولد سبطاً أمة من الناس ، فإنه يقال للفريق من اليهود : سبط ، والفريق من العرب : قبائل .

(٢) الشاعر هو : النواح الكلابى رجل من بنى كلاب . راجع : سيبويه ٢/ ١٧٤ ومعانى القرآن للفراء ١/ ١٢٦ والإنصاف ٣٢٣ والعينى (هامش الخزانة) ٤/ ٤٨٤ واللسان (بطن) وعند ابن جرير ٩/ ٦٠ (كلاباً) بدلاً من (قريشا) .

بيت المقدس أو أريحاء. وقيل : غير ذلك مما تقدم بيانه ﴿ **وكلوا منها** ﴾ أى من المأكولات الموجودة فيها ﴿ **حيث شئتم** ﴾ أى فى أى مكان شئتم من أمكنتها لا مانع لكم من الأكل فيه . ﴿ **وقولوا حطة** ﴾ قد تقدم تفسيرها فى البقرة [الآية:٥٨]. ﴿**وادخلوا الباب** ﴾ أى باب القرية المتقدمة حال كونكم ﴿ **سجداً** ﴾ أمروا بأن يجمعوا بين قولهم :﴿ **حطة** ﴾ وبين الدخول ساجدين . فلا يقال : كيف قدم الأمر بالقول هنا على الدخول وأخره فى البقرة ؟ وقد تقدم بيان معنى السجود الذى أمروا به. ﴿ **نغفر لكم خطيئاتكم** ﴾ جواب الأمر ،وقرئ :« خطيتكم » ثم وعدهم بقوله : ﴿ **سنزيد المحسنين** ﴾ أى سنزيدهم على المغفرة للخطايا بما يتفضل به عليهم من النعم . والجملة استئنافية ، جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا لهم بعد المغفرة ؟ ﴿ **فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذى قيل لهم** ﴾ قد تقدم بيان ذلك فى البقرة [الآية :٥٩] ﴿ **فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء** ﴾ أى عذاباً كائناً منها ﴿ **بما كانوا يظلمون** ﴾ أى بسبب ظلمهم .

قوله : ﴿ **واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر** ﴾ معطوف على عامل إذ المقدر ، أى اذكر إذ قيل لهم : واسألهم ، وهذا سؤال تقريع وتوبيخ ، والمراد من سؤال القرية : سؤال أهلها ، أى اسألهم عن هذا الحادث الذى حدث لهم فيها المخالف لما أمرهم الله به ، وفى ضمن هذا السؤال فائدة جليلة ، وهى تعريف اليهود بأن ذلك مما يعلمه رسول الله ﷺ ، وأن اطلاعه لا يكون إلا بإخبار له من الله سبحانه ، فيكون دليلاً على صدقه .

واختلف أهل التفسير فى هذه القرية ، أى قرية هى ؟ فقيل : أيلة . وقيل : طبرية . وقيل : مدين . وقيل : إيليا . وقيل : قرية من قرى ساحل الشام التى كانت حاضرة البحر ، أى التى كانت بقرب البحر [(١)] . يقال : كنت بحضرة الدار، أى بقربها ، والمعنى : سل يا محمد هؤلاء اليهود الموجودين عن قصة أهل القرية المذكورة . قرئ : ﴿ **واسألهم** ﴾، وقرئ: « سلهم » .

﴿ **إذ يعدون** ﴾ أى وقت يعدون ، وهو ظرف لمحذوف دل عليه الكلام لأن السؤال هو عن حالهم وقصتهم وقت يعدون . وقيل : إنه ظرف لـ ﴿ **كانت** ﴾ أو لـ ﴿ **حاضرة** ﴾ وقرئ : « يُعدُّون » بضم الياء ، وكسر العين ، وتشديد الدال ، من الإعداد للآلة . وقرأ الجمهور : ﴿ **يَعْدُون** ﴾ بفتح الياء ، وسكون العين ، وضم الدال مخففة ، أى يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت الذى نهوا عن الاصطياد فيه .وقرئ : « يَعَدُّون » بفتح الياء والعين ، وضم

---

(١) وقيل : هى قرية يقال لها (مقناة) بين مدين وعينون . وعينون ذكرها ياقوت فى معجمه فى الباب ، وذكرها البكرى فى معجم ما استعجم فى (حبرى) ولم يفرد لها باباً .

قال ياقوت : من قرى باب المقدس ؛ وقيل : قرية من وراء البثنية من دون القلزم فى طرف الشام . وفى الخبر (ابن سعد ١/ ٢ / ٢١ ، ٢٢) أن رسول الله ﷺ كتب لنعيم بن أوس أخى تميم الدارى أن له (حبرى) و (عينون) بالشام قريتها كلها سهلها وجبلها وماؤها وأنباطها وبقرها .

الدال مشددة بمعنى يعتدون، أدغمت التاء فى الدال. والسبت: هو اليوم المعروف، وأصله السكون. يقال : سبت إذا سكن ، وسبت اليهود : تركوا العمل فى سبتهم ، والجمع أَسْبُت وسُبُوت وأَسْبات ، وقرأ ابن السميقع : « فى الأسبات » على الجمع . ﴿ **إذ تأتيهم حيتانهم** ﴾ ظرف لـ ﴿ **يعدون** ﴾ والحيتان : جمع حوت ، وأضيفت إليهم لمزيد اختصاص لهم بما كان منها على هذه الصفة من الإتيان يوم السبت دون ما عداه . و ﴿ **يوم سبتهم** ﴾ : ظرف لـ ﴿ **تأتيهم** ﴾ وقرئ : « يوم أسباتهم » . و ﴿ **شُرَّعاً** ﴾ حال ، وهو جمع شارع ، أى ظاهرة على الماء . وقيل : رافعة رؤوسها . وقيل : إنها كانت تشرع على أبوابهم كالكباش البيض . قال فى الكشاف : يقال : شرع علينا فلان ، إذا دنى منا وأشرف علينا . وشرعت على فلان فى بيته فرأيته يفعل كذا . انتهى [1] . ﴿ **ويوم لا يسبتون لا تأتيهم** ﴾ أى لا يفعلون السبت . وذلك عند خروج يوم السبت لا تأتيهم الحيتان ، كما كانت تأتيهم فى يوم السبت ﴿ **كذلك نبلوهم** ﴾ أى مثل ذلك البلاء العظيم ، نبلوهم بسبب فسقهم . والابتلاء : الامتحان والاختبار .

﴿ **وإذ قالت أمة** ﴾ معطوف على ﴿ **إذ يعدون** ﴾ معمول لعامله ، داخل فى حكمه. والأمة : الجماعة ، أى قالت جماعة من صلحاء أهل القرية لآخرين ممن كان يجتهد فى وعظ المتعدين فى السبت ، حين أيسوا من قبولهم للموعظة ، وإقلاعهم عن المعصية : ﴿ **لم تعظون قوماً الله مهلكهم** ﴾ أى مستأصل لهم بالعقوبة ﴿ **أو معذبهم عذاباً شديداً** ﴾ بما انتهكوا من الحرمة ، وفعلوا من المعصية ، وقيل : إن الجماعة القائلة : ﴿ **لم تعظون قوماً** ﴾ ؟ هم العصاة الفاعلون للصيد فى يوم السبت ، قالوا ذلك للواعظين لهم حين وعظوهم ، والمعنى : إذا علمتم أن الله مهلكنا ، كما تزعمون، فلم تعظونا ؟ ﴿ **قالوا معذرة إلى ربكم** ﴾ أى قال الواعظون للجماعة القائلين لهم: ﴿ **لم تعظون** ﴾ وهم طائفة من صلحاء القرية على الوجه الأول ، أو الفاعلين على الوجه الثانى، ﴿ **معذرة إلى ربكم** ﴾ قرأ عيسى بن عمر ، وطلحة بن مصرف ﴿ **معذرة** ﴾ بالنصب ، وهى قراءة حفص عن عاصم ، وقرأ الباقون بالرفع . قال الكسائى : ونصبه على وجهين ، أحدهما على المصدر ، والثانى على تقدير: فعلنا ذلك معذرة ، أى لأجل المعذرة ، والرفع على تقدير مبتدأ ، أى موعظتنا معذرة إلى الله ،حتى لا يؤاخذنا بترك الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، اللذين أوجبهما علينا ، ولرجاء أن يتعظوا ، فيتقوا ،ويقلعوا عما هم فيه من المعصية .

قال جمهور المفسرين: إن بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق فرقة عصت وصادت، وكانت نحو سبعين ألفاً، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص، وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص، فقالت الطائفة التى لم تنه، ولم تعص للفرقة الناهية: ﴿**لم تعظون قوماً**﴾ يريدون الفرقة العاصية ﴿ **الله مهلكهم أو معذبهم** ﴾ قالوا ذلك على غلبة الظن ، لما جرت به عادة الله من إهلاك العصاة ، أو تعذيبهم ، من دون استئصال بالهلاك ، فقالت الناهية: موعظتنا معذرة

(١) الكشاف ٢/ ١٧١ .

إلى الله، ولعلهم يتقون، ولو كانوا فرقتين فقط ناهية غير عاصية، وعاصية لقال : لعلكم تتقون .

قوله : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ أى لما ترك العصاة من أهل القرية ، ما ذكرهم به الصالحون الناهون عن المنكر، تـرك الناسى للشىء المعرض عنه كلية الإعراض ﴿ **أنجينا الذين ينهون عن السوء** ﴾ أى الذين فعلـوا النهى ، ولـم يتركوه ﴿ **وأخـذنا الذين ظلموا** ﴾ وهـم العصاة المعتدون فى السبت ﴿ **بعذاب بئيس** ﴾ أى شديد ، من بؤس الشىء يبؤس بأساً، إذا اشتد، وفيه إحدى عشرة قراءة [1] ،للسبعة وغيرهم ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ أى بسبب فسقهم ، والجار والمجرور متعلق بأخذنا ﴿ **فلما عتوا عما نهوا عنه** ﴾ أى تجاوزوا الحد فى معصية الله تمرداً وتكبراً ﴿ **قلنا لهم كونوا قردة** ﴾ أى أمرناهم أمراً كونياً لا أمراً قولياً ، أى مسخناهم قردة . قيل: إنه سبحانه عذبهم أولاً ، بسبب المعصية ، فلما لم يقلعوا ، مسخهم قردة . وقيل : إن قوله : ﴿ **فلما عتوا عما نهوا عنه** ﴾ تكرير لقوله : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به** ﴾ للتأكيد ، والتقرير . وأن المسخ هو العذاب البئيس ، والخاسئ : الصاغر الذليل ، أو المباعد المطرود ، يقال : خسأته فخسئ ، أى باعدته فتباعد .

واعلم أن ظاهر النظم القرآنى هو أنه لم ينج من العذاب ، إلا الفرقة الناهية التى لم تعص لقوله : ﴿ **أنجينا الذين ينهون عن السوء** ﴾ وأنه لم يعذب بالمسخ إلا الطائفة العاصية لقوله : ﴿ **فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين**﴾ فإن كانت الطوائف منهم ثلاثاً كما تقدم ، فالطائفة التى لم تنه ولم تعص ، يحتمل أنها ممسوخة مع الطائفة العاصية ؛ لأنها قد ظلمت نفسها بالسكوت عن النهى ، وعتت عما نهاها الله عنه ، من ترك النهى عن المنكر ، ويحتمل أنها لم تمسخ ؛ لأنها وإن كانت ظالمة لنفسها عاتية عن أمر ربها ونهيه ، لكنها لم تظلم نفسها بهذه المعصية الخاصة ، وهى صيد الحوت فى يوم السبت ، ولا عتت عن نهيه لها عن الصيد . وأما إذا كانت الطائفة الثالثة ناهية كالطائفة الثانية ، وإنما جعلت طائفة مستقلة لكونها قد جرت المقاولة بينها ، وبين الطائفة الأخرى من الناهين المعتزلين ، فهما فى الحقيقة طائفة واحدة لاجتماعهما فى النهى ، والاعتزال ، والنجاة من المسخ .

وقد أخرج الفريابى وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قال موسى : يا رب ، أجد أمة أناجيلهم فى قلوبهم . قال : تلك أمة تكون بعدك ، أمة أحمد . قال : يا رب ، أجد أمة يصلون الخمس تكون كفارات لما بينهن . قال : تلك أمة تكون بعدك ، أمة أحمد . قال : يا رب ، أجد أمة يعطون صدقات أموالهم ، ثم ترجع فيهم فيأكلون . قال : تلك أمة بعدك ، أمة أحمد . قال : يا رب اجعلنى من أمة أحمد . فأنزل الله كهيئة المرضاة لموسى: ﴿ **ومن قوم**

(١) قال أبو جعفر : وأولى هذه القراءات عندى بالصواب : قراءة من قرأ : ﴿ **بئيس** ﴾ بفتح الباء ، وكسر الهمزة ، ومدها على مثال فعيل ، كما قال ذو الأصبع العدوانى :

حنقاً على وما ترى لى فيهم أثرا بئيسا

راجع : الأغانى ٣/ ١٠٢ ، ١٠٣ ومجاز القرآن لأبى عبيدة ١/ ٢٣١ .

موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ومن قوم موسى أمة** ﴾ الآية ، قال : بلغنى أن بنى إسرائيل لماقتلوا أنبيائهم وكفروا، وكانوا اثنى عشر سبطاً ، تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا ، وسألوا الله أن يفرق بينهم وبينهم ، ففتح الله لهم نفقاً فى الأرض ، فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هنالك حنفاء مسلمين ،يستقبلون قبلتنا. قال ابن جريج : قال ابن عباس : فذلك قوله :﴿ وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾ [الإسراء: ١٠٤] ووعد الآخرة عيسى ابن مريم . قال ابن عباس : ساروا فى السَّرَب [١] ، سنة ونصفا . أقول : ومثل هذا الخبر العجيب ، والنبأ الغريب ، محتاج إلى تصحيح النقل .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن على بن أبى طالب قال : افترقت بنو إسرائيل بعد موسى إحدى وسبعين فرقة ، كلها فى النار ، إلا فرقة ، وافترقت النصارى بعد عيسى ، على اثنتين وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا فرقة ، ولتفترقن هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا فرقة ، فأما اليهود فإن الله يقول : ﴿ **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ فهذه التى تنجو . وأما النصارى فإن الله يقول :﴿ منهم أمة مقتصدة ﴾ [المائدة :٦٦] فهذه التى تنجو.وأما نحن فيقول :﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ [الأعراف : ١٨١] فهذه التى تنجو من هذه الأمة ، وقد قدمنا أن زيادة : « كلها فى النار » لم تصح لا مرفوعة ، ولا موقوفة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فانبجست** ﴾ قال: فانفجرت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : دخلت على ابن عباس وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ **واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر** ﴾ قال : يا عكرمة ، هل تدرى أى قرية هذه ؟ قلت : لا. قال : هى أيلة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الزهرى قال : هى طبرية . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إذ يعدون فى السبت** ﴾ قال: يظلمون. وأخرج ابن جرير عنه فى قوله: ﴿ **شرعاً** ﴾، يقول: من كل مكان. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : ظاهرة على الماء . وأخرج ابن المنذر عنه قال : واردة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية ، قال : هى قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة ، يقال لها : أيلة . فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، فكانت تأتيهم يوم سبتهم شرعاً فى ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها . فمكثوا كذلك ما شاء الله ، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم ، فنهتهم طائفة فلم

---

(١) السَّرْبُ ـ بالكسر ـ الجماعة من الناس، والبقر والشاء، والقط، والوحش والجمع (أسراب) والسَّرَبُ: بالفتح: المسلك فى خُفية، وفى التنزيل العزيز: ﴿فاتخذ سبيله فى البحر سربا﴾ [الكهف: ٦١]. حفير فى الأرض لا منفذ له وهو (الوكر) وإن كان له منفذ إلى موضع آخر فهو (النفق).

يزدادوا إلا غياً ، فقالت طائفة من النهاة ، يعلمون أن هؤلاء قوم حق عليهم العذاب: ﴿ **لم تعظون قوماً الله مهلكهم** ﴾ وكانوا أشد غضباً من الطائفة الأخرى ، وكل قد كانوا ينهون ، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا : ﴿ **لم تعظون** ﴾ والذين قالوا : ﴿ **معذرة إلى ربكم** ﴾ وأهلك الله أهل معصيته ، الذين أخذوا الحيتان ، فجعلهم قردة .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أنهم ثلاث فرق : فرقة العصاة وفرقة الناهين (١) وفرقة القائلين(٢): ﴿ **لم تعظون** ﴾ فما نجا إلا الذين نهوا ، وهلك سائرهم . فأصبح الذين نهوا ذات غداة فى مجالسهم، يتفقدون الناس لا يرونهم ، وقد باتوا من ليلتهم ، وغلقوا عليهم دورهم، فجعلوا يقولون: إن للناس لشأناً فانظروا ما شأنهم ؟ فاطلعوا فى دورهم ، فإذا القوم قد مسخوا ، يعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد ، والمرأة بعينها وإنها لقردة. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم، والبيهقى فى سننه عن عكرمة عن ابن عباس . . . فذكر القصة ، وفى آخرها أنه قال : فأرى الذين نهوا قد نجوا ، ولا أرى الآخرين ذكروا . ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها . قال عكرمة : فقلت : جعلنى الله فداك . ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه ، وخالفوهم . وقالوا : ﴿ **لم تعظون قوماً الله مهلكهم** ﴾ . قال : فأمر بى فكُسيت ثوبين غليظين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس أيضاً قال : نجا الناهون، وهلك الفاعلون . ولا أدرى ما صنع بالساكتين . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عنه قال : والله لأن أكون علمت أن القوم الذين قالوا : ﴿ **لم تعظون قوماً** ﴾ نجوا مع الذين نهوا عن السوء ، أحب إلىَّ مما عدل به . وفى لفظ : من حمر النعم ، ولكن أخاف أن تكون العقوبة نزلت بهم جميعا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال: قال ابن عباس : ما أدرى أنجا الذين قالوا : ﴿ **لم تعظون قوماً الله مهلكهم** ﴾ أم لا ؟ قال : فما زلت أبصره ، حتى عرف أنهم قد نجوا ، فكسانى حلة . وأخرج عبد بن حميد عن ليث بن أبى سُلَيم قال : مسخوا حجارة الذين قالوا : ﴿**لم تعظون قوماً الله مهلكهم** ﴾ وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بعذاب بئيس** ﴾ ، قال : أليم وجيع .

﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ** ﴾

(١ ، ٢) فى المخطوطة : « الناهون » و« القائلون » بالرفع ، والصحيح ما أثبتناه من الجر بالإضافة .

عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإذ تأذن ربك** ﴾ معطوفة على ما قبله ، أى واسألهم وقت تأذن ربك ، وتأذن فعل من الإيذان ، وهو الإعلام . قال أبو على الفارسى : آذن بالمد : أعلم . وأذّن بالتشديد : نادى . وقال قوم : كلاهما بمعنى أعلم ، كما يقال : أيقن وتيقن والمعنى فى الآية : واسألهم وقت أن وقع الإعلام لهم من ربك ليبعثن عليهم . قيل : وفى هذا الفعل معنى القسم كعلم الله ، وشهد الله ، ولذلك أجيب بما يجاب به القسم حيث قال : ﴿ **ليبعثن عليهم** ﴾ أى ليرسلن عليهم ، ويسلطن ، كقوله : ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد ﴾ [الإسراء : ٥] ﴿ **إلى يوم القيامة** ﴾ غاية لسومهم سوء العذاب ، ممن يبعثه الله عليهم ، وقد كانوا أقمأهم الله هكذا أذلاء مستضعفين ، معذبين بأيدى أهل الملل ، وهكذا فى هذه الملة الإسلامية ، فى كل قطر من أقطار الأرض ، فى الذلة المضروبة عليهم والعذاب والصغار ، يسلمون الجزية بحقن دمائهم ، ويمتهنهم المسلمون فيما فيه ذلة من الأعمال التى يتنزه عنها غيرهم من طوائف الكفار ، ومعنى ﴿ **يسومهم** ﴾ يذيقهم . وقد تقدم بيان أصل معناه ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إن ربك لسريع العقاب** ﴾ يعاجل به فى الدنيا كما وقع لهؤلاء ﴿ **وإنه لغفور رحيم** ﴾ أى كثير الغفران والرحمة .

﴿ **وقطعناهم فى الأرض** ﴾ أى فرقناهم فى جوانبها ، أو شتتنا أمرهم ، فلم تجتمع لهم كلمة ، و ﴿ **أمماً** ﴾ منتصب على الحال ، أو مفعول ثان لقطعنا ، على تضمينه معنى صيرنا ، وجملة : ﴿ **منهم الصالحون** ﴾ بدل من ﴿ **أمما** ﴾ . قيل : هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ ومن مات قبل البعثة المحمدية غير مبدل . وقيل : هم الذين سكنوا وراء الصين كما تقدم بيانه قبل هذا . ﴿ **ومنهم دون ذلك** ﴾ أى دون هذا الوصف الذى اتصفت به الطائفة الأولى ، وهو الصلاح . ومحل ﴿ **دون ذلك** ﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : ومنهم أناس دون ذلك ، والمراد بهؤلاء : هم من لم يؤمن ، بل انهمك فى المخالفة لما أمره الله به . قال النحاس : ﴿ **دون** ﴾ منصوب على الظرف ، ولا نعلم أحداً رفعه . ﴿ **وبلوناهم بالحسنات والسيئات** ﴾ أى امتحناهم بالخير والشر ، رجاء أن يرجعوا مما هم فيه [1] من الكفر والمعاصى .

﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ المراد بهم : أولاد الذين قطعهم الله فى الأرض . قال أبو حاتم : الخلف بسكون اللام : الأولاد . الواحد والجمع سواء . والخلف بفتح اللام البدل ولداً كان أو غيره . وقال ابن الأعرابى : الخلف بالفتح : الصالح . وبالسكون : الطالح . قال لبيد :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم ... وبقيت فى خلف كجلد الأجرب [2]

---

(١) فى المطبوعة : « مما هم من الكفر » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) راجع ديوانه : القصيدة ٨ واللسان (خلف) يرثى بها أربد صاحبه وابن عمه قال : =

ومنه قيل للردىء من الكلام : خلف بالسكون . وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر ، ومنه قول حسان بن ثابت :

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا ... لأولنا فى طاعة الله تابع (١)

﴿ **ورثوا الكتاب** ﴾ أى : التوراة من أسلافهم يقرؤونها ، ولا يعملون بها . ﴿ **يأخذون عرض هذا الأدنى** ﴾ أخبر الله عنهم بأنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم وقوة نهمتهم ، والأدنى مأخوذ من الدنو، وهو القرب . أى يأخذون عرض هذا الشىء الأدنى ، وهو الدنيا ، يتعجلون مصالحها بالرشاء(٢) ، وما هو مجعول لهم من السحت، فى مقابلة تحريفهم لكلمات الله ، وتهوينهم للعمل بأحكام التوراة ، وكتمهم لما يكتمونه منها . وقيل : إن الأدنى مأخوذ من الدناءة والسقوط ، أى أنهم يأخذون عرض الشىء الدنىء الساقط .

﴿ **ويقولون سيغفر لنا** ﴾ أى يعللون أنفسهم بالمغفرة، مع تماديهم فى الضلالة، وعدم رجوعهم إلى الحق . وجملة : ﴿ **يأخذون** ﴾ يحتمل أن تكون مستأنفة ، لبيان حالهم ، أو فى محل نصب على الحال . وجملة : ﴿ **ويقولون** ﴾ معطوفة عليها . والمراد : بهذا الكلام التقريع والتوبيخ لهم ، وجملة : ﴿ **وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه** ﴾(٣) فى محل نصب على الحال ، أى يتعللون بالمغفرة ، والحال أنهم إذا أتاهم عرض مثل العرض الذى كانوا يأخذونه ، أخذوه غير مبالين بالعقوبة ، ولا خائفين من التبعة . وقيل : الضمير فى ﴿ **يأتهم** ﴾ ليهود المدينة ، أى وإن يأت هؤلاء اليهود الذين هم فى عصر محمد ﷺ عرض مثل العرض الذى كان يأخذه أسلافهم ، أخذوه كما أخذه أسلافهم .

﴿ **ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب** ﴾ أى التوراة ﴿ **أن لا يقولوا على الله إلا الحق** ﴾ والاستفهام للتقريع ، والتوبيخ ، وجملة : ﴿ **ودرسوا ما فيه** ﴾ معطوفة على ﴿ **يؤخذ** ﴾ على المعنى . وقيل : على ﴿ **ورثوا الكتاب** ﴾ والأولى أن تكون فى محل نصب على الحال بتقدير قد. والمعنى: أنهم تركوا العمل بالميثاق المأخوذ عليهم فى الكتاب ، والحال أن قد درسوا ما فى

= قضَّ اللبانة لا أبالك واذهب ... والحق بأسرتك الكرام الغيَّب
ذهب الذين .....

إلى أن قال :

إن الرزية لا رزية مثلها ... فقدان كل أخ كضوء الكوكب

(١) راجع : ديوانه ٢٥٤ وسيرة ابن هشام ٣/ ٢٨٣ واللسان : (خلف) والقدم الأولى : يعنى سابقة الأنصار فى الإسلام ، وفى السيرة « فى ملة الله تابع » .

(٢) الرشاء : الحبل ، أو حبل الدلو ونحوها . ويطلق على الرِّشوة التى تعطى لقضاء مصلحة ، أو ما يعطى لإحقاق باطل ، أو إبطال حق .

(٣) العرض : ما لا يكون له ثبات ، ومنه استعار المتكلمون العرض لما لا ثبات له إلا بالجوهر كاللون والطعم ، وقيل: الدنيا عرض حاضر تنبيها أن لا ثبات لها قال تعالى : ﴿ **تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة** ﴾ [الأنفال : ٦٧] .

الكتاب وعلموه ، فكان الترك منهم عن علم ، لا عن جهل ، وذلك أشد ذنباً ، وأعظم جرماً. وقيل : معنى ﴿ **درسوا ما فيه** ﴾ أى محوه بترك العمل به ، والفهم له ، من قولهم : درست الريح الآثار إذا محتها [١] . ﴿ **والدار الآخرة خير** ﴾ من ذلك العرض الذى أخذوه ، وآثروه عليها ﴿ **للذين يتقون** ﴾ الله ويجتنبون معاصيه ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ فتعلمون بهذا وتفهمونه ، وفى هذا من التوبيخ والتقريع مالا يقادر قدره .

قوله : ﴿ **والذين يمسكون بالكتاب** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **يمسكون** ﴾ بالتشديد من مسك وتمسك ، أى استمسك بالكتاب ، وهو التوراة . وقرأ أبو العالية ، وعاصم فى رواية أبى بكر بالتخفيف ، من أمسك يمسك . وروى عن أُبَىٍّ بن كعب أنه قرأ : « مسكوا » . والمعنى : أن طائفة من أهل الكتاب لا يتمسكون بالكتاب ولا يعملون بما فيه ، مع كونهم قد درسوه وعرفوه، وهم من تقدم ذكره . وطائفة يتمسكون بالكتاب ، أى التوراة ويعملون بما فيه ، ويرجعون إليه فى أمر دينهم ، فهم المحسنون الذين لا يضيع أجرهم عند الله ، والموصول مبتدأ . و ﴿ **إنا لا نضيع أجر المصلحين** ﴾ خبره ، أى لا نضيع أجر المصلحين منهم ، وإنما وقع التنصيص على الصلاة ، مع كونها داخلة فى سائر العبادات التى يفعلها المتمسكون بالتوراة ، لأنها رأس العبادات وأعظمها فكان ذلك وجهاً لتخصيصها بالذكر . وقيل : لأنها تقام فى أوقات مخصوصة ، والتمسك بالكتاب مستمر ، فذكرت لهذا . وفيه نظر . فإن كل عبادة فى الغالب تختص بوقت معين ، ويجوز أن يكون الموصول معطوفاً على الموصول الذى قبله. وهو ﴿ **للذين يتقون** ﴾ وتكون [٢] ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ جملة معترضة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يسومهم سوء العذاب** ﴾ قال : محمد وأمته إلى يوم القيامة . و ﴿ **سوء العذاب** ﴾ الجزية . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه قال : ﴿ **سوء العذاب** ﴾ الخراج . وفى قوله : ﴿ **وقطعناهم** ﴾ قال : هم اليهود ، بسطهم الله فى الأرض ، فليس منها بقعة إلا وفيها عصابة منهم وطائفة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى قوله : ﴿ **ليبعثن عليهم** ﴾ ، قال : على اليهود والنصارى ﴿ **إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب** ﴾ فبعث الله عليهم أمة محمد ﷺ يأخذون منهم الجزية ، وهم صاغرون ﴿ **وقطعناهم فى الأرض أمماً** ﴾ قال : يهود ﴿ **منهم الصالحون** ﴾ ، وهم مسلمة أهل الكتاب . ﴿ **ومنهم دون ذلك** ﴾ قال : اليهود . ﴿ **وبلوناهم بالحسنات** ﴾ قال : الرخاء والعافية ﴿ **والسيئات** ﴾ قال : البلاء ، والعقوبة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **وبلوناهم بالحسنات والسيئات** ﴾ بالخصب والجدب.

---

(١) وقيل : ﴿ **درسوا ما فيه** ﴾ أى قرؤوه ، وقرأ أبو عبد الرحمن : « وادارسوا ما فيه » قال ابن زيد : كان يأتيهم المحق برشوة فيخرجون له كتاب الله فيحكمون له به ، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة ، وأخرجوا له كتابهم الذى كتبوه بأيديهم ، وحكموا له .

(٢) فى المطبوعة : « ولكون » باللام ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

وأخرج أبو الشيخ عنه أنه سئل عن هذه الآية : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى** ﴾ قال : أقوام يقبلون على الدنيا فيأكلونها ، ويتبعون رخص القرآن ﴿ **ويقولون سيغفر لنا** ﴾ ولا يعرض لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ قال : النصارى ﴿ **يأخذون عرض هذا الأدنى** ﴾ قال : ما أشرف لهم من شيء من الدنيا حلالاً أو حراماً يشتهونه أخذوه ، ويتمنون المغفرة ، وإن يجدوا الغد مثله يأخذوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ الآية يقول : يأخذون ما أصابوا ، ويتركون ما شاؤوا من حلال أو حرام . ﴿ **ويقولون سيغفر لنا** ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق** ﴾ فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون إليها ، ولا يتوبون منها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى زيد فى قوله : ﴿ **ودرسوا ما فيه** ﴾ قال: علموا ما فى الكتاب ، لم يأتوه بجهالة .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **والذين يمسكون بالكتاب** ﴾ قال: هى لأهل الإيمان منهم. وأخرج ابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **والذين يمسكون بالكتاب** ﴾ ، قال : من اليهود والنصارى .

﴿ **وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)** ﴾ .

قوله : ﴿ **وإذ** ﴾ منصوب بفعل مقدر معطوف على ما قبله ، أى واسألهم إذ نتقنا الجبل ، أى رفعنا الجبل ﴿ **فوقهم** ﴾ و ﴿ **كأنه ظلة** ﴾ أى كأنه لارتفاعه سحابة تظلهم ، والظلة اسم لكل ما أظل ، وقرئ : « طلة » بالطاء، من أطل عليه إذا أشرف . ﴿ **وظنوا أنه واقع بهم** ﴾ أى ساقط عليهم . قيل : الظن هنا بمعنى العلم . وقيل : هو على بابه . ﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوة** ﴾ هو على تقدير القول ، أى وقلنا لهم : خذوا . والقوة : الجد والعزيمة ، أى أخذاً كائناً بقوة . ﴿ **واذكروا ما فيه** ﴾ من الأحكام التى شرعها الله لكم ولا تنسوه . ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ رجاء أن تتقوا ما نهيتم عنه ، وتعملوا ما أمرتم به ، وقد تقدم تفسير « ما » هنا فى البقرة مستوفى ، فلا نعيده (١) .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل** ﴾ يقول: رفعناه ، وهو قوله : ﴿ ورفعنا فوقهم الطور ﴾ [النساء: ١٥٤] فقال: ﴿ **خذوا**

(١) فى المطبوعة : « فلا نعده » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

ما آتيناكم بقوة ﴾ وإلا أرسلته عليكم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : رفعته الملائكة فوق رؤوسهم ، فقيل لهم : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ ، فكانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا : سمعنا وأطعنا ، وإذا نظروا إلى الكتاب ، قالوا : سمعنا وعصينا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أيضاً قال : إنى لأعلم لم تسجد اليهود على حرف . قال الله : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم ﴾ (١) قال : لتأخذن أمرى أو لأرمينكم به ، فسجدوا وهم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم ، وكانت سجدة رضيها الله سبحانه ، فاتخذوها سنة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ وإذ نتقنا الجبل ﴾ قال : انتزعه الله من أصله ، ثم جعله فوق رؤوسهم ، ثم قال : لتأخذن أمرى ، أو لأرمينكم به .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) ﴾ .

قوله : ﴿ وإذ ﴾ منصوب بفعل مقدر معطوف على ما قبله كما تقدم . قوله : ﴿ من بنى آدم ﴾ استدل بهذا على أن المراد بالمأخوذين هنا ، هم ذرية بنى آدم ، أخرجهم الله من أصلابهم ، نسلاً بعد نسل ، وقد ذهب إلى هذا جماعة من المفسرين ، قالوا : ومعنى ﴿ أشهدهم على أنفسهم ﴾ : دلهم بخلقه على أنه خالقهم ، فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد ، فتكون هذه الآية من باب التمثيل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ [فصلت : ١١] . وقيل : المعنى أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجسام ، وأنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه . وقيل : المراد ببنى آدم هنا آدم نفسه ، كما وقع فى غير هذا الموضع . والمعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذريته ، وأخذ عليهم العهد ، وهؤلاء هم عالم الذر ، وهذا هو الحق الذى لا ينبغى العدول عنه ، ولا المصير إلى غيره ، لثبوته مرفوعاً إلى النبى ﷺ ، وموقوفاً على غيره من الصحابة ، ولا ملجئ للمصير إلى المجاز ، وإذا جاء نهر الله ، بطل نهر مَعْقِل . وسنذكر آخر هذا البحث إن شاء الله بعض ما ورد فى ذلك .

---

(١) قال بعضهم : أصل النتق ، والنتوق كل شىء قلعته من موضعه فرميت به يقال : نتقت نتقا . قال : ولهذا قيل للمرأة الكثيرة الولد : ناتق ، لأنها ترمى بأولادها رميا ، واستشهد ببيت النابغة :

لم يحرموا حسن الغذاء وأمهم ... دحقت عليك بناتق مذكار

راجع : ديوانه ٥٠ واللسان (دحق) و (نتق) من قصيدته التى قالها فى زرعة بن عمرو بن خويلد ، حين لقى النابغة بعكاظ ، فأشار عليه أن يشير على قومه بنى ذبيان بترك حلف بنى أسد فأبى النابغة الغدر ، فتهدده زرعة وتوعده ، فلما بلغه تهديده ، ذمه وهجاه .

قوله : ﴿ **من ظهورهم** ﴾ هو بدل من بنى آدم ، بدل بعض من كل . وقيل : بدل اشتمال . قوله: ﴿ **ذرياتهم** ﴾ قرأ الكوفيون وابن كثير: ﴿ **ذريتهم** ﴾ بالتوحيد ، وهى تقع على الواحد والجمع . وقرأ الباقون « ذرياتهم » بالجمع ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم** ﴾ أى أشهد كل واحد منهم ﴿ **ألست بربكم** ﴾ أى قائلا : ألست بربكم ، فهو على إرادة القول ﴿ **قالوا بلى شهدنا** ﴾ أى على أنفسنا بأنك ربنا .

قوله : ﴿ **أن تقولوا** ﴾ ، قرأ أبو عمرو بالياء التحتية فى هذا ، وفى قوله : ﴿ **أو يقولوا** ﴾ على الغيبة كما كان فيما قبله على الغيبة ، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب ، والمعنى : كراهة أن يقولوا ، أو لئلا يقولوا ، أى فعلنا ذلك الأخذ والإشهاد ، كراهة أن يقولوا ﴿ **يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ أى عن كون الله ربنا وحده لا شريك له .

قوله: ﴿ **أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل** ﴾ معطوف على ﴿ **تقولوا** ﴾ الأول، أى فعلنا ذلك كراهة أن تعتذروا بالغفلة، أو تنسبوا الشرك إلى آبائكم دونكم، و « أو » لمنع الخلو دون الجمع، فقد يعتذرون بمجموع الأمرين ، ﴿ **من قبل** ﴾ أى من قبل زماننا ﴿ **وكنا ذرية من بعدهم** ﴾ لا نهتدى إلى الحق ، ولا نعرف الصواب ﴿ **أفتهلكنا بما فعل المبطلون** ﴾ من آبائنا ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر، واقتفائنا آثار سلفنا ، بين الله سبحانه فى هذه الحكمة التى لأجلها أخرجهم من ظهر آدم، وأشهدهم على أنفسهم، وأنه فعل ذلك بهم، لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة ، ويعتلوا بهذه العلة الباطلة ، ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة: ﴿ **وكذلك** ﴾ أى ومثل ذلك التفصيل ﴿ **نفصل الآيات ولعلهم يرجعون** ﴾ إلى الحق ، ويتركون ما هم عليه من الباطل .

وقد أخرج مالك فى الموطأ، وأحمد فى المسند ، وعبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه ، وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن حبان فى صحيحه ، وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، والضياء فى المختارة ؛ أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ **وإذ أخذ ربك** ﴾ الآية، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال : « إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون » . فقال رجل : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ فقال: « إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار ، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله النار » [1] .

---

(١) مالك فى القدر (٢) وأحمد ١/ ٤٤ ، ٤٥ والبخارى فى التاريخ ٨/ ٩٦ ، ٩٧ وأبو داود فى السنة (٤٧٠٣) والترمذى فى التفسير (٣٠٧٥) وقال : « هذا حديث حسن » والنسائى فى التفسير (٢١٠) وابن جرير ٣/ ٧٧، ٧٨ وابن حبان (٦١٣٣) وصححه الحاكم ١/ ٢٧ على شرط الشيخين ، وقال الذهبى : « فيه إرسال » وصححه ٢/ ٣٢٥ على شرط مسلم ، وسكت عنه الذهبى وصححه ٣/ ٥٤٥ على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبى وأخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ٥٧ وقال : « فيه إرسال » .

وأخرج أحمد وابن جرير [١] والنسائى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس عن النبى ﷺ ، قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان ، يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها [٢] فنثرها [٣] بين يديه ، ثم كلمهم فقال : ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى شهدنا** ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ **المبطلون** ﴾ »[٤] وإسناده لا مطعن فيه. وقد أخرجه ابن أبى حاتم موقوفاً عن ابن عباس .

وأخرج ابن جرير ، وابن منده فى كتاب « الرد على الجهمية » عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم** ﴾ قال : « أخذهم من ظهره كما يأخذ المشط من الرأس ، فقال لهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، قالت الملائكة : ﴿ **شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ » وفى إسناده أحمد بن أبى طيبة [٥] أبو محمد الجرجانى قاضى قومس كان أحد الزهاد ، وأخرج له النسائى فى سننه [٦]. و قال أبو حاتم الرازى : يكتب حديثه . وقال ابن عدى : حدث بأحاديث كثيرة غرائب . وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان الثورى عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمر. وهؤلاء أئمة ثقات.

وأخرج عبد بن حميد ، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، والطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه عن أبى أمامة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لما خلق الله الخلق ، وقضى القضية ، وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء ، فأخذ أهل اليمين بيمينه ، وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى وكلتا يدى الرحمن يمين ، فقال : يا أصحاب اليمين. فاستجابوا له فقالوا : لبيك ربنا وسعديك . قال : ألست بربكم. قالوا بلى . . . » الحديث [٧] . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ، بعضها مقيد بتفسير هذه الآية ، وبعضها مطلق يشتمل على ذكر إخراج ذرية آدم من ظهره ، وأخذ العهد عليهم ، كما فى حديث أنس مرفوعاً فى الصحيحين وغيرهما .

وأما المروى عن الصحابة فى تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من صلبه فى عالم الذر ، وأخذ العهد عليهم ، وإشهادهم على أنفسهم ، فهى كثيرة ، منها عن ابن عباس عند عبد بن

---

(١) فى المطبوعة : « أحمد والنسائى وابن جرير » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) « ذرأها » : ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا إذا خلقهم .

(٣) فى المطبوعة : « فنشرها » والصحيح : « فنثرها » بالثاء ، كما فى مراجع التخريج ، ونثرها : أى رمى بها .

(٤) أحمد ١/ ٢٧٢ والنسائى فى التفسير (٢١١) وابن جرير ٩/ ٧٥ وصححه الحاكم ١/ ٢٧ ، ٢٨ وأقره الذهبى وقال : « احتج مسلم بكلثوم بن جبير » والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ٥٨ وقال الهيثمى عن حديث أحمد فى المجمع ٧/ ٢٨ : « رجاله رجال الصحيح » .

(٥) فى المطبوعة : « ابن أبى ظبية » ، والصواب : « ابن أبى طيبة » كما أثبتناه من المخطوطة ، وانظر : ترجمته فى التهذيب ١/ ٣٩ وفى التقريب ص ٨٠ (٥٢) .

(٦) ابن جرير ٣/ ٧٧ .

(٧) الطبرانى (٨٩٤٠ ، ٨٩٤٣) وعزاه الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٩٢ إليه فى الأوسط أيضا ، وقال : « فيه جعفر ابن الزبير ، وهو ضعيف » .

حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبوالشيخ فى قوله : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم ...** ﴾ الآية ، قال : خلق الله آدم ، وأخذ ميثاقه أنه ربه ، وكتب أجله، ورزقه، ثم أخرج ولده من ظهره ، كهيئة الذر ، فأخذ مواثيقهم أنه ربهم ، وكتب آجالهم ، وأرزاقهم ، ومصيباتهم . وأخرج نحوه عنه ابن جرير ، وابن أبى حاتم . وأخرج نحوه عنه أيضاً ابن جرير، وابن المنذر . وأخرج نحوه عنه عبد الرزاق وابن المنذر . وأخرج نحوه عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن منده . وهذا المعنى مروى عنه من طرق كثيرة غير هذه موقوفة عليه .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن عمر فى قوله : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم** ﴾ الآية ، قال : أخذهم كما يأخذ المشط من الرأس . وأخرج ابن عبد البر فى التمهيد عن ابن مسعود وناس من الصحابة ، فى تفسير الآية نحوه .

وأخرج عبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد [١] المسند ، وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن منده وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، والضياء فى المختارة ، وابن عساكر فى تاريخه عن أبى بن كعب فى قوله : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم** ﴾ الآية ، قال: جمعهم جميعاً ، فجعلهم أرواحاً فى صورهم ، ثم استنطقهم فتكلموا ، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق ، ثم أشهدهم على أنفسهم [٢] .

وقد روى عن جماعة ممن بعد الصحابة تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من ظهره ، وفيما قاله رسول الله ﷺ فى تفسيرها مما قدمنا ذكره ما يغنى عن التطويل .

﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)** ﴾ .

قوله : ﴿ **واتل** ﴾ معطوف على الأفعال المقدرة فى القصص السابقة . وإيراد هذه القصة منه سبحانه ، وتذكير أهل الكتاب بها ؛ لأنها كانت مذكورة عندهم فى التوراة .

وقد اختلف فى هذا الذى أُوتى الآيات ﴿ **فانسلخ منها** ﴾ فقيل : هو بلعم بن باعوراء ،

---

(١) فى المطبوعة : «رواية »، وهو تصحيف ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ٣٥١(١٤٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٨ : « رواه عبد الله بن أحمد عن شيخه محمد بن يعقوب الربالى، وهو مستور ، وبقية رجاله رجال الصحيح » وصحح الحاكم إسناده ٢/ ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ووافقه الذهبى .

وكان قد حفظ بعض الكتب المنزلة . وقيل : كان قد أوتى النبوة ، وكان مجاب الدعوة . بعثه الله إلى مدين يدعوهم إلى الإيمان ، فأعطوه الأعطية الواسعة ، فاتبع دينهم ، وترك ما بعث به . فلما أقبل موسى فى بنى إسرائيل لقتال الجبارين ، سأل الجبارون بلعم بن باعوراء أن يدعو على موسى ، فقام ليدعو عليه ، فتحول لسانه بالدعاء على أصحابه ، فقيل له فى ذلك فقال : لا أقدر على أكثر مما تسمعون . واندلع لسانه على صدره ، فقال : قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة ، فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة ، وسأمكر لكم ، وإنى أرى أن تخرجوا إليهم فتياتكم ، فإن الله يبغض الزنا ، فإن وقعوا فيه هلكوا ، فوقع بنو إسرائيل فى الزنا ، فأرسل الله عليهم الطاعون ، فمات منهم سبعون ألفاً . وقيل : إن هذا الرجل اسمه باعم ، وهو من بنى إسرائيل . وقيل : المراد به أمية بن أبى الصلت الثقفى ، وكان قد قرأ الكتب ، وعلم أن الله مرسل رسولاً فى ذلك ، فلما أرسل الله محمداً ﷺ حسده وكفر به . وقيل : هو أبو عامر بن صيفى ، وكان يلبس المسوح فى الجاهلية ، فكفر بمحمد ﷺ . وقيل :نزلت فى قريش آتاهم الله آياته التى أنزلها على محمد ﷺ فكفروا بها . وقيل : نزلت فى اليهود والنصارى ، انتظروا خروج محمد ﷺ فكفروا به .

قوله : ﴿ **فانسلخ منها** ﴾ أى من هذه الآيات التى أوتيها ، كما تنسلخ الشاة عن جلدها ، فلم يبق له بها اتصال ﴿ **فأتبعه الشيطان** ﴾ عند انسلاخه عن الآيات ، أى لحقه فأدركه ، وصار قريناً له،أو : فأتبعه خطواته ، وقرئ : « فاتّبعه » بالتشديد بمعنى تبعه ﴿ **فكان من الغاوين** ﴾ المتمكنين فى الغواية ، وهم الكفار .

قوله : ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها** ﴾ : الضمير يعود إلى الذى أوتى الآيات، والمعنى :لوشئنا رفعه بما آتيناه من الآيات لرفعناه بها ، أى بسببها ، ولكن لم نشأ ذلك ، لانسلاخه عنها ، وتركه للعمل بها . وقيل : المعنى : ولو شئنا لأمتناه قبل أن يعصى، فرفعناه إلى الجنة بها ، أى بالعمل بها . ﴿ **ولكنه أخلد إلى الأرض** ﴾ أصل الإخلاد اللزوم . يقال : أخلد فلان بالمكان إذا أقام به ولزمه [1] ، والمعنى هنا : أنه مال إلى الدنيا ورغب فيها ، وآثرها على الآخرة . ﴿ **واتبع هواه** ﴾ أى اتبع ما يهواه ، وترك العمل بما يقتضيه العلم الذى علمه الله ، وهو حطام الدنيا . وقيل : كان هواه مع الكفار . وقيل : اتبع رضا زوجته ، وكانت هى التى حملته على الانسلاخ من آيات الله .

قوله : ﴿ **فمثله كمثل الكلب** ﴾ أى فصار لما انسلخ عن الآيات ولم يعمل بها ، منحطاً

---

(١) ومنه قول الشاعر زهير :

لمن الديار غشيتها بالغرقد كالوَحى فى حجر المسيل المخلد

يعنى : المقيم ، ومنه قول مالك بن نويرة :

بأبناء حى من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

راجع : الأصمعيات ٣٢٣ من قصيدة قالها فى يوم مخطط .

إلى أسفل رتبة ، مشابهاً لأخس الحيوانات فى الدناءة ، مماثلاً له فى أقبح أوصافه ، وهو أنه يلهث فى كلا حالتى قصد الإنسان له وتركه . فهو لاهث ، سواء زجر أو ترك ، طرد أو لم يطرد ، شد عليه أو لم يشد عليه ، وليس بعد هذا فى الخسة والدناءة شىء . وجملة: ﴿ **إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى مثله كمثل الكلب ، حال كونه متصفاً بهذه الصفة ، والمعنى : أن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوى عن المعصية فى جميع أحواله ، سواء وعظه الواعظ ، وذكره المذكر ، وزجره الزاجر ، أو لم يقع شىء من ذلك .

قال القتيبى : كل شىء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش ، إلا الكلب فإنه يلهث فى حال الكلال وحال الراحة ، وحال المرض وحال الصحة ، وحال الرى وحال العطش . فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته ، فقال: إن وعظته ضل ، وإن تركته ضل ، فهو كالكلب : إن تركته لهث ، وإن طردته لهث ، كقوله تعالى : ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾ [الأعراف: ١٩٣] واللهث : إخراج اللسان لتعب ، أو عطش، أو غير ذلك . قال الجوهرى : لَهَث الكلب ، بالفتح ، يَلْهَث لَهثاً ولُهاثاً ، بالضم ، إذا أخرج لسانه من التعب ، أو العطش . وكذلك الرجل إذا أعيا . قيل : معنى الآية : إنك إذا حملت على الكلب، نبح وولى هارباً، وإن تركته شد عليك ونبح ، فيتعب نفسه مقبلاً عليك ، ومدبراً عنك ، فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان .

والإشارة بقوله ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من التمثيل بتلك الحالة الخسيسة، وهو مبتدأ وخبره: ﴿ **مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ أى ذلك المثل الخسيس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود، بعد أن علموا بها وعرفوها ، فحرفوا وبدلوا وكتموا صفة رسول الله ﷺ ، وكذبوا بها. ﴿ **فاقصص القصص** ﴾ (١) أى فاقصص عليهم هذا القصص ، الذى هو صفة الرجل المنسلخ عن الآيات ، فإن مثله المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين تقص عليهم ﴿ **لعلهم يتفكرون** ﴾ فى ذلك ويعملون فيه أفهامهم ، فينزجرون عن الضلال ، ويقبلون على الصواب .

قوله: ﴿ **ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ هذه الجملة متضمنة لبيان حال هؤلاء القوم ، البالغة فى القبح إلى الغاية ، يقال : ساء الشىء : قَبُح ، فهو لازم . وساءه يسوؤه مساءة ، فهو مُتَعَدٍّ ، وهو من أفعال الذم كبئس ، وفاعله ضمير مستتر فيه و﴿ **مثلاً** ﴾ تمييز مفسر له ،

(١) القصص : تتبع الأثر ، يقال : قصصت أثره ، والقصص : الأثر قال تعالى : ﴿ **فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾ [الكهف : ٦٤] وقال تعالى: ﴿**وقالت لأخته قصيه** ﴾ [القصص : ١١] والقصص : الأخبار المتتبعة قال تعالى : ﴿ **إن هذا لهو القصص الحق** ﴾[آل عمران : ٦٢] وقال تعالى : ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب**﴾ [يوسف : ١١١] . والقصاص : تتبع الدم بالقود قال تعالى :﴿ **ولكم فى القصاص حياة** ﴾ [البقرة: ١٧٩] والقص : الجص ، ونهى رسول الله ﷺ عن تقصيص القبور .

والمخصوص بالذم هو ﴿ **الذين كذبوا بآياتنا** ﴾. ولابد من تقدير مضاف محذوف لأجل المطابقة ، أى ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا . وقال الأخفش : جعل المثل القوم مجازاً . والقوم مرفوع بالابتداء، أو على إضمار مبتدأ ، التقدير : ساء المثل مثلاً هو مثل القوم ، كذا قال. وقدره أبو على الفارسى: ساء مثلاً مثل القوم، كما قدمنا . وقرأ الجحدرى والأعمش : « ساء مثل القوم » .

قوله : ﴿ **وأنفسهم كانوا يظلمون** ﴾ أى ما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم ، لا يتعداها ظلمهم إلى غيرها ، ولا يتجاوزها . والجملة معطوفة على التى قبلها على معنى أنهم جمعوا بين التكذيب بآيات الله ، وظلم أنفسهم . ﴿ **من يهد الله فهو المهتدى** ﴾ لما أمر به ، وشرعه لعباده. ﴿ **ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون** ﴾ الكاملون فى الخسران، من هداه فلا مضل له ، ومن أضله فلا هادى له ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وقد أخرج الفريابى وعبد الرزاق وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبوالشيخ، وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا** ﴾ قال : هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعم بن أبر [١] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : هو بلعم بن باعوراء . وفى لفظ بلعام بن باعر [٢] الذى أوتى [٣] الاسم كان فى بنى إسرائيل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا** ﴾ قال: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم ، تعلم اسم الله الأكبر ، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمه وقومه فقالوا : إن موسى رجل حديد [٤] ومعه جنود كثيرة ، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا ، فادع الله أن يرد عنا موسى ، ومن معه. قال : إنى إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ، مضت دنياى وآخرتى ، فلم يزالوا به حتى دعا الله ، فسلخ ما كان فيه ، وفى قوله : ﴿ **إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾ قال : إن حمل الحكمة لم يحملها ، وإن ترك لم يهتد لخير ، كالكلب إن كان رابضاً لهث ، وإن يطرد لهث [٥] .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى الآية قال : هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت له امرأة له منها ولد ، فقالت : اجعل لى منها واحدة . قال : فلك واحدة ، فما الذى تريدين . قالت : ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل ،

---

(١) فى المطبوعة « آبز » بالمد وبالزاى ، والصواب « أبر » بالهمز وبالراء ، كما أثبتناه من المخطوطة . والحديث أخرجه النسائى فى التفسير (٢١٣) وابن جرير ٩/ ٨٢ والحاكم ٢/ ٣٢٥ والطبرانى (٩٠٦٤) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٢٨ : « رجاله رجال الصحيح » ، وليس عند النسائى «ابن أبر» .

(٢) انظر: فى تسميته وأدلة كل اسم الخبر (٥٩٤) من كتاب المستفاد من مبهمات المتن والإسناد ، لأبى زرعة بن العراقى . تحقيق الدكتور عبد الرحمن عبد الحميد البر . ط : دار الوفاء .

(٣) فى المطبوعة : « أولى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٤) يقال : فلانٌ حديد : أى كثير الغضب وسريعه ، فيه حدة .

(٥) ابن جرير ٩/ ٨٢ .

فدعا الله ،فجعلها أجمل امرأة فى بنى إسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها،رغبت عنه ، وأرادت شيئاً آخر ، فدعا الله أن يجعلها كلبة ، فصارت كلبة ، فذهبت دعوتان ، فجاء بنوها فقالوا : ليس بنا على هذا قرار ، قد صارت أمنا كلبة ، يعايرنا الناس بها ، فادع الله أن يردها إلى الحال التى كانت عليه ، فدعا الله ، فعادت كما كانت ، فذهبت الدعوات الثلاث ، وسميت البسوس (١) .

وأخرج عبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو فى الآية قال : هو أمية بن أبى الصلت الثقفى . وفى لفظ: نزلت فى صاحبكم أمية بن أبى الصلت (٢). وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عنه نحوه .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن الشعبى فى هذه الآية قال : قال ابن عباس : هو رجل من بنى إسرائيل يقال له: بلعام بن باعوراء . وكانت الأنصار تقول : هو ابن الراهب الذى بنى له مسجد الشقاق . وكانت ثقيف تقول : هو أمية بن أبى الصلت . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : هو صيفى بن الراهب .وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه فى قوله : ﴿ **فانسلخ منها** ﴾ قال : نزع منه العلم . وفى قوله : ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها** ﴾ قال : رفعه الله بعلمه . وأخرج مسلم والنسائى ، وابن ماجة وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ فى خطبته ، يحمد الله ويثنى عليه بما هو أهله ، ثم يقول : « من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له ، أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدث بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » ثم يقول : « بعثت أنا والساعة كهاتين » (٣) .

﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ(١٧٩)** ﴾ .

﴿ **ولقد ذرأنا** ﴾ أى خلقنا . وقد تقدم بيان أصل معناه مستوفى ، وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ، ﴿**لجهنم**﴾ أى للتعذيب بها ﴿ **كثيراً** ﴾ أى خلقاً كثيراً ﴿ **من الجن والإنس** ﴾ أى من طائفتى الجن والإنس ، جعلهم سبحانه للنار بِعَدْلِه ، وبعمل أهلها يعملون . وقد علم

(١) أورده ابن كثير بإسناد ابن أبى حاتم ٣/ ٢٥٢ وقال : « حديث غريب » وأخرجه ابن بشكوال فى غوامض الأسماء المبهمة (٢٣١) .

(٢) النسائى فى التفسير (٢١٢ ، ٢١٤) وابن جرير ٩/ ٨٣ وإسناده صحيح .

(٣) مسلم فى الجمعة (٨٦٧/ ٤٣) والنسائى فى العيدين ٣/ ١٨٨ ،١٨٩ وابن ماجة فى المقدمة (٤٥) والبيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٣٠٩.

ما هم عاملون قبل كونهم ، كما ثبت فى الأحاديث الصحيحة ، ثم وصف هؤلاء فقال : ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها** ﴾ كما يفقه غيرهم بعقولهم. وجملة: ﴿ **لا يفقهون بها** ﴾ فى محل رفع على أنها صفة لقلوب. وجملة: ﴿ **لهم قلوب** ﴾ فى محل نصب صفة لـ ﴿ **كثيراً** ﴾ ، جعل سبحانه قلوبهم لما كانت غير فاقهة لما فيه نفعهم وإرشادهم غير فاقهة مطلقاً ،وإن كانت تفقه فى غير ما فيه النفع والرشاد ،فهو كالعدم. وهكذا معنى: ﴿ **ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها** ﴾ فإن الذى انتفى من الأعين هو إبصار ما فيه الهداية بالتفكر،والاعتبار،وإن كانت مبصرة فى غير ذلك،والذى انتفى من الآذان هو سماع المواعظ النافعة،والشرائع التى اشتملت عليها الكتب المنزلة ، وما جاءت به رسل الله،وإن كانوا يسمعون غير ذلك [١]. والإشارة بقوله: ﴿ **أولئك** ﴾ إلى هؤلاء المتصفين بهذه الأوصاف كالأنعام فى انتفاء انتفاعهم بهذه المشاعر، ثم حكم عليهم بأنهم أضل منها لأنها تدرك بهذه الأمور ما ينفعها ويضرها ،فتنتفع بما ينفع ، وتجتنب ما يضر. وهؤلاء لا يميزون بين ما ينفع وما يضر باعتبار ما طلبه الله منهم وكلفهم به،ثم حكم عليهم بالغفلة الكاملة لما هم عليه من عدم التمييز الذى هو من شأن من له عقل وبصر وسمع.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولقد ذرأنا** ﴾ قال : خلقنا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال : خلقنا لجهنم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن النجار عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لما ذرأ لجهنم من ذرأ كان ولد الزنا ممن ذرأ لجهنم » [٢] . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم** ﴾ قال : لقد خلقنا لجهنم ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها** ﴾ قال: لا يفقهون شيئاً من أمور الآخرة . ﴿ **ولهم أعين لا يبصرون بها** ﴾ الهدى. ﴿ **ولهم آذان لا يسمعون بها** ﴾ الحق . ثم جعلهم كالأنعام ، ثم جعلهم شراً من الأنعام، فقال : ﴿ **بل هم أضل** ﴾ ، ثم أخبر أنهم الغافلون.

﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)** ﴾

(١) ويعرضون عن سماع آيات الله عز وجل ، كما قال الله تعالى حاكيا عنهم : ﴿ **لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾ [فصلت:٢٦] وقال تعالى : ﴿ **وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا . الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا** ﴾ [الكهف : ١٠٠، ١٠١] . والعرب تقول ذلك للتارك بعض جوارحه فيما يصلح له . ومنه قول مسكين الدارمى :

أعمى إذا ما جارتى خرجت حتى يوارى جارتى الستر
وأصم عما كان بينهما سمعى وما بالسمع من وقر

راجع : أمالى المرتضى ١/ ٤٣ ، ٤٤ ثم ٤٧٤ وخزانة الأدب ١/ ٤٦٨ .

(٢) ابن جرير ٩/ ٩٠ وضعفه الشيخ شاكر فى تحقيقه لتفسير ابن جرير (١٥٤٤٦) وأخرجه ابن النجار فى ذيل تاريخ بغداد فى الترجمة رقم (٥٨٧) ١٨ / ٩٣ .

هذه الآية مشتملة على الإخبار من الله سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل والحسنى تأنيث الأحسن ، أى التى هى أحسن الأسماء ، لدلالتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول ، ثم أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة ، فإنه إذا دعى بأحسن أسمائه كان ذلك من أسباب الإجابة ، وقد ثبت فى الصحيح : « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها ، دخل الجنة » (١). وسيأتى ، ويأتى أيضاً بيان عددها ، آخر البحث إن شاء الله .

قوله : ﴿ **وذروا الذين يلحدون فى أسمائه** ﴾ الإلحاد : الميل وترك القصد . يقال : لحد الرجل فى الدين ، وألحد : إذا مال . ومنه اللحد فى القبر ، لأنه فى ناحية ، وقرئ : « يلحدون » وهما لغتان . والإلحاد فى أسمائه سبحانه يكون على ثلاثة أوجه : إما بالتغيير كما فعله المشركون ، فإنهم أخذوا اسم اللات من الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المنان، أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها ، أو بالنقصان منها بأن يدعوه ببعضها دون بعض . ومعنى : ﴿ **وذروا الذين يلحدون** ﴾ : اتركوهم ولا تحاجوهم ، ولا تعرضوا لهم، وعلى هذا المعنى فالآية منسوخة بآيات القتال، وقيل: معناه الوعيد كقوله تعالى: ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً ﴾ [المدثر : ١١] وقوله : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾ [الحجر : ٣] وهذا أولى لقوله : ﴿ **سيجزون ما كانوا يعملون** ﴾ ، فإنه وعيد لهم بنزول العقوبة ، وتحذير للمسلمين أن يفعلوا كفعلهم. وقد ذكر مقاتل وغيره من المفسرين؛ أن هذه الآية نزلت فى رجل من المسلمين ، كان يقول فى صلاته : يارحمن يا رحيم ، فقال رجل من المشركين : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً ، فما بال هذا يدعو ربين اثنين ؟ حكى ذلك القرطبى (٢) .

وقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن خزيمة وأبو عوانة وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة ، إنه وتر يحب الوتر » (٣). وفى لفظ ابن مردويه ، وأبى نعيم : « من دعا بها استجاب الله دعاءه » (٤) . وزاد الترمذى فى سننه بعد قوله : « يحب الوتر » : « هو الله ، الذى لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ،

---

(١) أحمد ٢/ ٢٥٨ ، ٢٦٧ ، ٤٢٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٣ والبخارى فى التوحيد (٧٣٩٢) وفى الشروط (٢٧٣٦) والترمذى فى الدعوات (٣٥٠٦).

(٢) القرطبى ٤/ ٢٧٦١ .

(٣) أحمد ٢/ ٢٥٨ ، ٢٦٧ والبخارى فى الدعوات (٦٤١٠) ومسلم فى الذكر (٢٦٧٧ / ٥ ، ٦) والترمذى (٣٥٠٦ ، ٣٥٠٧) وقال : «حديث غريب » وابن حبان (٨٠٤ ، ٨٠٥) وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٦١) وابن جرير ٩/ ٩١ والحاكم ١/ ١٦ وأبو نعيم فى الحلية ٣/ ١٢٢، ٦/ ٢٧٤ والبيهقى ١٠ / ٢٧ .

(٤) أبو نعيم فى الحلية ١٠/ ٣٨٠ .

العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الأحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعال ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » . هكذا أخرج الترمذى هذه الزيادة عن الجوزجانى ، عن صفوان ابن صالح ، عن الوليد بن مسلم ، عن شعيب بن أبى حمزة ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة مرفوعة وقال : هذا حديث غريب (١). وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ، ولا يعلم فى كثير شىء من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث . ورواه ابن حبان فى صحيحه ، وابن خزيمة والحاكم من طريق صفوان بإسناده السابق . ورواه ابن ماجة فى سننه من طريق أخرى عن موسى بن عقبة ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة مرفوعاً فسرد الأسماء المتقدمة بزيادة ونقصان .

قال ابن كثير فى تفسيره : والذى عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه . وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم ، وعبد الملك بن محمد الصنعانى عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك ، أى أنهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد ، وسفيان بن عيينة ، وأبى زيد اللغوى (٢).

قال : ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة فى التسعة والتسعين ، بدليل ما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبى سلمة الجهنى عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ ؛ أنه قال : « ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن ، فقال : اللهم إنى عبدك ابن عبدك وأمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فىَّ حكمك ، عدل فىَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرجاً » . فقيل : يا رسول الله ، ألا نتعلمها ؟ فقال : « بلى ،

(١) الرواية بذكر الأسامى عند الترمذى وابن ماجة وابن حبان والحاكم ، وقال البوصيرى فى زوائد ابن ماجة ٣/ ٢٠٧ ، ٢٠٨ : « وطريق الترمذى أصح شىء فى هذا الباب . . . وإسناد طريق ابن ماجة ضعيف ، لضعف عبد الملك بن محمد الصنعانى » . وقد انتصر الحاكم لتصحيحه ووافقه الذهبى .

(٢) ابن كثير ٣/ ٢٥٧ .

ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » [١] . وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان فى صحيحه بمثله[٢] انتهى . أخرجه البيهقى أيضاً فى الأسماء والصفات [٣] .

قال ابن حزم : جاءت فى إحصائها ، يعنى الأسماء الحسنى أحاديث مضطربة لا يصح منها شىء أصلاً ، وقد أخرجها بهذا العدد الذى أخرجه الترمذى وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله ﷺ . . . فذكراه . ولا أدرى كيف إسناده .

وأخرج ابن أبى الدنيا والطبرانى كلاهما فى الدعاء ، وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن أبى هريرة : إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها ، دخل الجنة : أسأل الله ، الرحمن ، الرحيم ، الإله ، الرب ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الحليم ، العليم ، السميع ، البصير ، الحى ، القيوم ، الواسع ، اللطيف ، الخبير ، الحنان ، المنان ، البديع ، الغفور ، الودود ، الشكور ، المجيد ، المبدئ ، المعيد ، النور ، البارئ ــ وفى لفظ : القائم ــ الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، العفو ، الغفار ، الوهاب ، الفرد ــ وفى لفظ : القادر ــ الأحد ، الصمد ، الوكيل ، الكافى ، الباقى ، المغيث ، الدائم ، المتعالى ، ذا الجلال والإكرام ، المولى ، البصير ، الحق ، المتين ، الوارث ، المنير ، الباعث ، القدير ــ وفى لفظ : المجيب ــ المحيى ، المميت ، الحميد ــ وفى لفظ : الجميل ــ الصادق ، الحفيظ ، المحيط ، الكبير ، القريب ، الرقيب ، الفتاح ، التواب ، القديم ، الوتر ، الفاطر ، الرزاق ، العلام ، العلى ، العظيم ، الغنى ، الملك ، المقتدر ، الأكرم ، الرؤوف ، المدبر ، المالك ، القاهر ، الهادى ، الشاكر ، الكريم ، الرفيع ، الشهيد ، الواحد ، ذا الطول ، ذا المعارج ، ذا الفضل ، الخلاق ، الكفيل ، الجليل .

وأخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر ، قال : سألت أبى جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء التسعة والتسعين التى من أحصاها دخل الجنة ؟ فقال : هى فى القرآن . ففى الفاتحة خمسة أسماء : يا الله ، يا رب ، يا رحمن ، يا رحيم ، ياملك . وفى البقرة ثلاثة وثلاثون اسماً : يا محيط ، يا قدير ، يا عليم ، يا حكيم ، يا على ، يا عظيم ، يا تواب ، يا بصير ، يا ولى ، يا واسع ، يا كافى ، يا رؤوف ، يا بديع ، يا شاكر ، يا واحد ، يا سميع ، ياقابض ، يا باسط ، يا حى ، يا قيوم ، يا غنى ، يا حميد ، يا غفور ، يا حليم ، يا إله ، يا قريب ، يا مجيب ، يا عزيز ، يا نصير ، يا قوى ، يا شديد ، يا سريع ، ياخبير . وفى آل عمران : يا وهاب ، يا قائم ، يا صادق ، يا باعث ، يامنعم ، يا متفضل . وفى النساء :

---

(١) أحمد ١/ ١٩٣وعزاه الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٨٩ لأبى يعلى والطبرانى أيضاً وقال : « ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبى سلمة الجهنى ، وقد وثقه ابن حبان » .

(٢) ابن حبان (٨٠٥) .

(٣) البيهقى فى الأسماء والصفات ١/ ٢٩ .

يا رقيب، يا حسيب ، يا شهيد ، يا مقيت ، يا وكيل ، يا على ، يا كبير . وفى الأنعام : يا فاطر ، يا قاهر ، يا لطيف ، يا برهان . وفى الأعراف : يا محيى ، يا مميت . وفى الأنفال : يا نعم المولى ، ويا نعم النصير . وفى هود: يا حفيظ ، يا مجيد ، ياودود ، يا فعال لما تريد . وفى الرعد : يا كبير، يا متعالى . وفى إبراهيم : يا منان ، يا وارث . وفى الحجر : يا خلاَّق . وفى مريم : يا فرد . وفى طه : ياغفار . وفى قد أفلح : يا كريم . وفى النور : يا حق ، يا مبين . وفى الفرقان : يا هادى . وفى سبأ : يا فتاح . وفى الزمر : يا عالم . وفى غافر : يا قابل التوب ، ياذا الطول ، يا رفيع . وفى الذاريات: يا رزاق ، ياذا القوة ، يا متين . وفى الطور: يا بر . وفى اقتربت: يا مقتدر ، يا مليك . وفى الرحمن : ياذا الجلال والإكرام ، يا رب المشرقين، يا رب المغربين ، يا باقى ، يا معين ، وفى الحديد : يا أول ، يا آخر ، يا ظاهر ، ياباطن . وفى الحشر : يا ملك ، يا قدوس ، يا سلام ، يا مؤمن ، يا مهيمن ، يا عزيز ، يا جبار ، يا متكبر، يا خالق ، يا بارئ، يا مصور . وفى البروج : يا مبدئ ، يا معيد . وفى الفجر : يا وتر . وفى الإخلاص : يا أحد ، يا صمد . انتهى .

وقد ذكر ابن حجر فى التلخيص أنه تتبعها من الكتاب العزيز إلى أن حررها منه تسعة وتسعين ، ثم سردها فابحثه . ويؤيد هذا ما أخرجه أبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا : قال رسول الله ﷺ : «لله تسعة وتسعون اسماً من أحصاها، دخل الجنة ، وهى فى القرآن» .

وأخرج البيهقى عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله ، علمنى اسم الله الذى إذا دعى به أجاب . قال لها: «قومى فتوضئى وادخلى المسجد فصلِّى ركعتين، ثم ادعى حتى أسمع » . ففعلت ؛ فلما جلست للدعاء ، قال النبى ﷺ : «اللهم وفقها » . فقالت : اللهم إنى أسألك بجميع أسمائك الحسنى كلها ما علمنا منها وما لم نعلم ، وأسألك باسمك العظيم الأعظم ، الكبير ، الأكبر ، الذى من دعاك به أجبته ، ومن سألك به أعطيته . قال النبى ﷺ : «أصبتيه أصبتيه» .

وقد أطال أهل العلم الكلام على الأسماء الحسنى ، حتى أن ابن العربى فى شرح الترمذى حكى عن بعض أهل العلم أنه جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وذروا الذين يلحدون فى أسمائه** ﴾ قال : الإلحاد : أن يدعو اللات والعزى فى أسماء الله . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : الإلحاد : التكذيب . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى الآية ، قال : اشتقوا العزى من العزيز ، واشتقوا اللات من الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى الآية قال : الإلحاد : المضاهاة [1] . وأخرج ابن أبى حاتم عن الأعمش أنه قرأ :

(١) وأصل الإلحاد فى كلام العرب : العدول عن القصد، والجور عنه والإعراض، ثم يستعمل فى كل معوج غير مستقيم ؛ ولذلك قيل للَّحْد : القبر (لحد) لأنه فى ناحية منه ، وليس فى وسطه يقال منه : (ألحد فلان يلحد إلحادا) ولحد يلحد لحداً ولحوداً .

﴿ **يلحدون** ﴾ من لحد . وقال : تفسيرها : يدخلون فيها ما ليس منها . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى الآية قال : يشركون .

﴿ **وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)** ﴾ .

قوله : ﴿ **وممن خلقنا** ﴾ خبر مقدم ، و ﴿ **أمة** ﴾ مبتدأ مؤخر ، و ﴿ **يهدون** ﴾ وما بعده صفة له . ويجوز أن يكون ﴿**وممن خلقنا** ﴾ هو المبتدأ كما تقدم فى قوله : ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ [البقرة : ٨] . والمعنى أن من جملة من خلقه الله أمة يهدون الناس متلبسين بالحق ، أو يهدونهم بما عرفوه من الحق . « و » بالحق ﴿ **يعدلون** ﴾ بينهم. قيل : هم من هذه الأمة . وإنهم الفرقة الذين لا يزالون على الحق ظاهرين ، كما ورد فى الحديث الصحيح (١) .

ثم لما بين حال هذه الأمة الصالحة ، بين حال من يخالفهم فقال : ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون** ﴾ والاستدراج: هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة. والدرج : كف الشيء . يقال : أدرجته ودرجته . ومنه : إدراج الميت فى أكفانه . وقيل : هو من الدرجة. فالاستدراج أن يخطو درجة بعد درجة إلى المقصود . ومنه : درج الصبى : إذا قارب بين خطاه . وأدرج الكتاب : طواه شيئاً بعد شيء . ودرج القوم : مات بعضهم فى إثر بعض(٢). والمعنى : سنستدرجهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم . وذلك بإدرار النعم عليهم ، وإنسائهم شكرها ، فينهمكون فى الغواية ، ويتنكبون طرق الهداية ، لاغترارهم بذلك ، وأنه لم يحصل لهم إلا بما لهم عند الله من المنزلة والزلفة .

---

(١) أحمد ٤/ ٩٣ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ ، ٥/ ٢٦٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ والبخارى فى الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣١١) وفى المناقب (٣٦٤٠ ، ٣٦٤١) ومسلم فى الإيمان (١٥٦/ ٢٤٧) وفى الإمارة (١٩٢٠/ ١٧٠)، (١٩٢١/ ١٧١)، (١٩٢٢/ ١٧٢)، (١٩٢٣/ ١٧٣)، (١٩٢٤/ ١٧٤) ، (١٩٢٥/ ١٧٥) .

(٢) وقال صاحب الكشاف ٢/ ١٨٢ : الاستدراج : استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد ، أو الاستنزال درجة بعد درجة قال الأعشى :

فَلَوْ كُنتَ فى جُبٍّ ثمانين قامة ... ورقيت أسباب السماء بسلَّم

لَيَسْتَدْرِجنك القولُ حتى تهرَّه ... وتعلم أنى عنكم غير مُفْحِم

قوله : ﴿ **وأملى لهم** ﴾ معطوف على سنستدرجهم ، أى أطيل لهم المدة وأمهلهم ، وأؤخر عنهم العقوبة . وجملة : ﴿**إن كيدى متين** ﴾ مقررة لما قبلها من الاستدراج والإملاء ، ومؤكدة له . والكيد : المكر . والمتين : الشديد القوى . وأصله من المتن ، وهو اللحم الغليظ الذى على جانب الصلب قال فى الكشاف : سماه [١] كيدا ، لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه فى الظاهر إحسان ، وفى الحقيقة خذلان .

والاستفهام فى﴿ **أو لم يتفكروا** ﴾ للإنكار عليهم،حيث لم يتفكروا فى شأن رسول الله ﷺ وفيما جاء به . و«ما» فى ﴿ **ما بصاحبهم** ﴾ للاستفهام الإنكارى،وهى فى محل رفع بالابتداء والخبر ﴿**بصاحبهم**﴾ والجنة مصدر،أى وقع منهم التكذيب،ولم يتفكروا أى شىء من جنون كائن بصاحبهم كما يزعمون،فإنهم لو تفكروا لوجدوا زعمهم باطلا،وقولهم زوراً وبهتاً. وقيل : إن «ما» نافية،واسمها ﴿ **من جنة** ﴾ وخبرها بصاحبهم ، أى ليس بصاحبهم شىء مما يدّعونه من الجنون ، فيكون هذا رداً لقولهم:﴿ يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ [الحجر: ٦] ويكون الكلام قد تم عند قوله:﴿ **أو لم يتفكروا** ﴾.والوقف عليه من الأوقاف الحسنة.وجملة: ﴿ **إن هو إلا نذير مبين** ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها ،ومبينة لحقيقة حال رسول الله ﷺ . والاستفهام فى:﴿ **أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض** ﴾ للإنكار والتقريع والتوبيخ، ولقصد التعجيب من إعراضهم عن النظر فى الآيات البينة،الدالة على كمال قدرته،وتفرده بالإلهية، والملكوت من أبنية المبالغة ، ومعناه الملك العظيم وقد تقدم بيانه . والمعنى : إن هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا بالتفكر ولا نظروا فى مخلوقات الله حتى يهتدوا بذلك إلى الإيمان به ، بل هم سادرون فى ضلالتهم، خائضون فى غوايتهم ، لا يعملون فكراً ، ولا يمعنون نظراً .

قوله : ﴿ **وما خلق الله من شىء** ﴾ أى لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، ولا فيما خلق الله من شىء من الأشياء كائناً ما كان ، فإن فى كل مخلوقاته عبرة للمعتبرين ، وموعظة للمتفكرين ، سواء كانت من جلائل مصنوعاته كملكوت السموات والأرض ، أو من دقائقها من سائر مخلوقاته .

قوله : ﴿ **وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم** ﴾ معطوف على ملكوت . و« **أن** » هى المخففة من الثقيلة . واسمها ضمير الشأن ، وخبرها ﴿ **عسى** ﴾ وما بعدها ، أى أو لم ينظروا فى أن الشأن والحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فيموتون عن قريب . والمعنى :أنهم إذا كانوا يجوزون قرب آجالهم ،فما لهم لا ينظرون فيما يهتدون به، وينتفعون بالتفكر فيه والاعتبار به .﴿ **فبأى حديث بعده يؤمنون** ﴾ الضمير يرجع إلى ما تقدم من التفكر والنظر فى الأمور المذكورة ، أى فبأى حديث بعد هذا الحديث المتقدم بيانه يؤمنون ؟ وفى هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ مالا يقادر قدره . وقيل : الضمير للقرآن . وقيل : لمحمد ﷺ . وقيل :

---

(١) فى المطبوعة : « سماء » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ومن الكشاف ٢/ ١٨٢ .

للأجل المذكور قبله .

وجملة : ﴿ **من يضلل الله فلا هادى له** ﴾ مقررة لما قبلها ، أى إن هذه الغفلة منهم عن هذه الأمور الواضحة البينة ليس إلا لكونهم ممن أضله الله ، ومن يضلله فلا هادى له ، أى فلا يوجد من يهديه إلى الحق ، وينزعه عن الضلالة البتة ﴿ **ويذرهم فى طغيانهم يعمهون** ﴾ . قرئ بالرفع على الاستئناف ، وبالجزم عطفاً على محل الجزاء . وقرئ بالنون. ومعنى يعمهون : يتحيرون . وقيل : يترددون ، وهو فى محل نصب على الحال .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **وممن خلقنا أمة يهدون بالحق** ﴾ قال: ذكر لنا أن النبى ﷺ قال : « هذه أمتى بالحق يحكمون ويقضون ويأخذون ويعطون » (١) وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : بلغنا أن نبى الله ﷺ كان يقول إذا قرأها : « هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ، ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ [الأعراف : ١٥٩] » (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع فى الآية قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أمتى قوماً على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى نزل » .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون** ﴾ يقول : سنأخذهم من حيث لا يعلمون . قال : عذاب بدر . وأخرج أبو الشيخ عن يحيى بن المثنى فى الآية قال : كلما أحدثوا ذنباً ، جددنا لهم نعمة تنسيهم الاستغفار . وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن سفيان فى الآية ، قال : نسبغ عليهم النعمة ونمنعهم شكرها . وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى عن ثابت البنانى ؛ أنه سئل عن الاستدراج فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيعين .

وأخرج أبو الشيخ فى قوله : ﴿ **وأملى لهم** ﴾ يقول : أكف عنهم . ﴿ **إن كيدى متين** ﴾ إن مكرى شديد . ثم نسخها الله فأنزل:﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كيد الله العذاب والنقمة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ قام على الصفا ، فدعا قريشاً فخذا فخذا ، يا بنى فلان ،يا بنى فلان ، يحذرهم بأس الله ، ووقائع الله ، حتى قال قائل : إن صاحبكم هذا لمجنون ، بات يصوت حتى أصبح ، فأنزل الله: ﴿ **أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين** ﴾ (٣) .

﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ**

(١ ، ٢) ابن جرير ٩/ ٩٢ .

(٣) ابن جرير : ٩/ ٩٣ .

اللَّه ولَكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُل لاَّ أَمْلكُ لنَفْسِي نَفْعًا ولا ضرًّا إلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ولَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ منَ الْخَيْرِ ومَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إنْ أَنَا إلاَّ نَذيرٌ وبَشيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمنُونَ (١٨٨) هُوَ الَّذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ واحدَةٍ وجَعَلَ منْهَا زَوْجَهَا ليَسْكُنَ إلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفيفًا فَمَرَّتْ به فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ ربَّهُمَا لَئنْ آتَيْتَنَا صَالحًا لَّنَكُونَنَّ منَ الشَّاكرينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) ولا يَسْتَطيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ولا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢)

قوله : ﴿ **يسألونك عن الساعة** ﴾ السائلون : هم اليهود . وقيل : قريش . والساعة : القيامة . وهى من الأسماء الغالبة ، وإطلاقها على القيامة لوقوعها بغتة ، أو لسرعة حسابها . و ﴿ **أيّان** ﴾ ظرف زمان مبنى على الفتح . قال الراجز :

أيان تقضى حاجتى أيّان أما ترى لنجحها أوانا (١)

ومعناه معنى متى . واشتقاقه من أى . وقيل : من أين . وقرأ السلمى : « إيان » بكسر الهمزة ، وهو فى موضع رفع على الخبر . و ﴿ **مرساها** ﴾ المبتدأ عند سيبويه . و ﴿ **مرساها** ﴾ بضم الميم ، أى وقت إرسائها من أرساها الله ، أى أثبتها ، وبفتح الميم من رست ، أى ثبتت . ومنه : ﴿ وقدور راسيات ﴾ [سبأ : ١٣] ومنه رسا الجبل . والمعنى : متى يرسيها الله ، أى يثبتها ويوقعها . وظاهر ﴿ **يسألونك عن الساعة** ﴾ أن السؤال عن نفس الساعة . وظاهر ﴿ **أيان مرساها** ﴾ أن السؤال عن وقتها ، فحصل من الجميع أن السؤال المذكور هو عن الساعة باعتبار وقوعها فى الوقت المعين لذلك ، ثم أمره الله سبحانه بأن يجيب عنهم بقوله : ﴿ **قل إنما علمها عند ربى** ﴾ أى علمها باعتبار وقوعها عند الله ، لا يعلمها غيره ولا يهتدى إليها سواه . ﴿ **لا يجليها لوقتها إلا هو** ﴾ أى لا يظهرها لوقتها ولا يكشف عنها إلا الله سبحانه . والتجلية : إظهار الشىء ، يقال : جلى لى فلان الخبر : إذا أظهره وأوضحه . وفى استئثار الله سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة ، وتدبير بليغ ، كسائر الأشياء التى أخفاها الله واستأثر بعلمها . وهذه الجملة مقررة لمضمون التى قبلها .

قوله : ﴿ **ثقلت فى السموات والأرض** ﴾ قيل : معنى ذلك أنه لما خفى علمها على أهل السموات والأرض كانت ثقيلة ؛ لأن كل ما خفى علمه ثقيل على القلوب . وقيل : المعنى : لا تطيقها السموات والأرض لعظمها ، لأن السماء تنشق ، والنجوم تتناثر ، والبحار تنضب . وقيل : عظم وصفها عليهم . وقيل : ثقلت المسألة عنها . وهذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها أيضاً .

---

(١) عند الطبرى (إيّانا) بدلا من (أوانا) . وراجع مجاز القرآن لأبى عبيدة ١/ ٢٣٤ واللسان (أين) و إياناً هو : زمن الشىء ووقته الذى يصلح فيه ، أو يكون فيه .

﴿ **لا تأتيكم إلا بغتة** ﴾ إلا فجأة على غفلة . والبغتة مصدر فى موضع الحال . وهذه الجملة كالتى قبلها فى التقرير .

قوله : ﴿ **يسألونك كأنك حفى عنها** ﴾ قال ابن فارس : الحفى : العالم بالشىء . والحفى : المستقصى فى السؤال . ومنه قول الأعشى :

فإن تسألى عنى فيا رب سائل حفى عن الأعشى به حيث أصعدا (١)

يقال : أحفى فى المسألة وفى الطلب ، فهو محف . وحَفِى على التكثير مثل مُخصب وخصيب . والمعنى : يسألونك عن الساعة كأنك عالم بها ، أو كأنك (٢) مستقص للسؤال عنها ، ومستكثر منه . والجملة التشبيهية فى محل نصب على الحال ، أى يسألونك مشبهاً حالك حال من هو حفى عنها . وقيل : المعنى : يسألونك عنها كأنك حفى بهم ، أى حفى ببرهم ، وفرح بسؤالهم . والأول هو معنى النظم القرآنى على مقتضى المسلك العربى .

قوله : ﴿ **قل إنما علمها عند ربى** ﴾ أمره الله سبحانه بأن يكرر ما أجاب به عليهم سابقاً ، لتقرير الحكم وتأكيده . وقيل : ليس التكرير . بل أحدهما معناه الاستئثار بوقوعها ، والآخر الاستئثار بكنهها نفسها . ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ باستئثار الله بهذا ، وعدم علم خلقه به ، لم يعلمه ملك مقرب ، ولا نبى مرسل .

قوله : ﴿ **قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله** ﴾ هذه الجملة متضمنة لتأكيد ما تقدم من عدم علمه بالساعة أيان تكون ، ومتى تقع ، لأنه إذا كان لا يقدر على جلب نفع له ، أو دفع ضر عنه إلا ما شاء الله ـ سبحانه من النفع له ، والدفع عنه ، فبالأولى ألا يقدر على علم ما استأثر الله بعلمه ، وفى هذا من إظهار العبودية والإقرار بالعجز عن الأمور التى ليست من شأن العبيد ، والاعتراف بالضعف عن انتحال ما ليس له ﷺ ما فيه أعظم زاجر ، وأبلغ واعظ ، لمن يدعى لنفسه ما ليس من شأنها ، وينتحل علم الغيب بالنجامة ، أو الرمل ، أو الطرق بالحصا ، أو الزجر . ثم أكد هذا وقرره بقوله : ﴿ **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير** ﴾ أى لو كنت أعلم جنس الغيب لتعرضت لما فيه الخير فجلبته إلى نفسى ، وتوقيت ما فيه السوء حتى لا يمسنى ، ولكنى عبد لا أدرى ما عند ربى ، ولا ما قضاه فىَّ ، وقدره لى ، فكيف أدرى غير ذلك وأتكلف علمه؟ وقيل : المعنى : لوكنت أعلم ما يريد الله عز وجل منى من قبل أن يعرفنيه لفعلته . وقيل : لو كنت أعلم متى يكون لى النصر فى الحرب ، لقاتلت فلم أغلب . وقيل : لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ما أسأل عنه . والأولى حمل الآية على العموم فتندرج هذه الأمور وغيرها تحتها . وقد قيل : إن ﴿ **وما مسنى السوء** ﴾ كلام مستأنف ، أى

(١) راجع : الصحاح ٦/ ٢٣١٦ وفيه : الإحفاء : الاستقصاء فى الكلام والمنازعة ، ومنه قول الحارث بن حلزة اليشكرى :

إن إخواننا الأراقم يغلو ن علينا فى قيلهم إحفاء

(٢) فى المخطوطة : « كأنه » ، و الصواب ما أثبتناه من سياق المعنى .

ليس بى ما تزعمون من الجنون. والأولى أنه متصل بما قبله. والمعنى: لو علمت الغيب ما مسنى السوء ، ولحذرت عنه، كما قدمنا ذلك .

قوله : ﴿ **إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون** ﴾ أى ما أنا إلا مبلغ عن الله لأحكامه أنذر بها قوماً ، وأبشر بها آخرين ، ولست أعلم بغيب الله سبحانه . واللام فى ﴿ **لقوم** ﴾ متعلق بكلا الصفتين ، أى بشير لقوم ، ونذير لقوم . وقيل: هو متعلق ببشير ، والمتعلق بنذير محذوف، أى نذير لقوم يكفرون ، وبشير لقوم يؤمنون .

قوله : ﴿ **هو الذى خلقكم من نفس واحدة** ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نعم الله على عباده ، وعدم مكافأتهم لها ، مما يجب من الشكر، والاعتراف بالعبودية ، وأنه المنفرد بالإلهية . قال جمهور المفسرين : المراد بالنفس الواحدة آدم . وقوله : ﴿ **وجعل منها زوجها** ﴾ معطوف على ﴿ **خلقكم** ﴾ أى هو الذى خلقكم من نفس آدم ، وجعل من هذه النفس زوجها . وهى حواء ، خلقها من ضلع من أضلاعه. وقيل : المعنى ﴿ **جعل منها** ﴾ من جنسها كما فى قوله : ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ [النحل : ٧٢] والأول أولى . ﴿ **ليسكن إليها** ﴾ علة للجعل ، أى جعله منها لأجل ﴿ **يسكن إليها** ﴾ ، يأنس إليها ، ويطمئن بها ، فإن الجنس بجنسه أسكن ، وإليه آنس . وكان هذا فى الجنة ، كما وردت بذلك الأخبار . ثم ابتدأ سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما فى الدنيا بعد هبوطهما ، فقال : ﴿ **فلما تغشاها** ﴾ والتغشى كناية عن الوقاع ، أى فلما جامعها ، ﴿ **حملت حملاً خفيفاً** ﴾ علقت به بعد الجماع ، ووصفه بالخفة لأنه عند إلقاء النطفة أخف منه عند كونه علقة ، وعند كونه علقة أخف منه عند كونه مضغة ، وعند كونه مضغة أخف مما بعده . وقيل : إنه خف عليها هذا الحمل من ابتدائه إلى انتهائه ، ولم تجد منه ثقلاً كما تجده الحوامل من النساء لقوله: ﴿ **فمرت به** ﴾ أى استمرت بذلك الحمل تقوم وتقعد وتمضى فى حوائجها لا تجد به ثقلاً . والوجه الأول أولى لقوله : ﴿ **فلما أثقلت** ﴾ فإن معناه : فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد فى بطنها . وقرئ « فمرت به » بالتخفيف ، أى فجزعت لذلك . وقرئ : « فمارت به » من المور ، وهو المجىء والذهاب . وقيل : المعنى : فاستمرت به . وقد رويت قراءة التخفيف عن ابن عباس ، ويحيى ابن يعمر. ورويت قراءة « فمارت » عن عبد الله بن عمر . وروى عن ابن عباس أنه قرأ « فاستمرت به » .

قوله : ﴿ **دعوا الله ربهما** ﴾ جواب لما، أى دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما . ﴿ **لئن آتيتنا صالحاً** ﴾ أى ولداً صالحا واللام جواب قسم محذوف ، و ﴿ **لنكونن من الشاكرين** ﴾ جواب القسم ساد مسد جواب الشرط ، أى من الشاكرين لك على هذه النعمة. وفى هذا الدعاء دليل على أنهما قد علما أن ما حدث فى بطن حواء من أثر ذلك الجماع هو من جنسهما ،

وعلما بثبوت النسل المتأثر عن ذلك السبب . ﴿ **فلما آتاهما** ﴾ ما طلباه من الولد الصالح ، وأجاب دعاءهما ﴿ **جعلا له شركاء فيما آتاهما** ﴾ قال كثير من المفسرين : إنه جاء إبليس إلى حواء وقال لها : إن ولدت ولدًا فسميه باسمى فقالت : وما اسمك ؟ قال : الحارث [١] . ولو سمى لها نفسه لعرفته، فسمته عبد الحارث [٢] ، فكان هذا شركًا فى التسمية ، ولم يكن شركًا فى العبادة ، وإنما قصدا أن الحارث [٣] كان سبب نجاة الولد ، كما يسمى الرجل نفسه عبد ضيفه، كما قال حاتم الطائى :

وإنى لعبد الضيف ما دام ثاويا وما فىَّ إلا تِيكَ من شيمة العبد [٤]

وقال جماعة من المفسرين : إن الجاعل شركًا فيما آتاهما هم جنس بنى آدم ، كما وقع من المشركين منهم ، ولم يكن ذلك من آدم وحواء ، ويدل على هذا جمع الضمير فى قوله : ﴿ **فتعالى الله عما يشركون** ﴾ وذهب جماعة من المفسرين إلى أن معنى ﴿ **من نفس واحدة** ﴾ من هيئة واحدة ، وشكل واحد . ﴿ **وجعل منها زوجها** ﴾ أى من جنسها ﴿ **فلما تغشاها** ﴾ يعنى جنس الذكر جنس الأنثى . وعلى هذا لا يكون لآدم وحواء ذكر فى الآية ، وتكون ضمائر التثنية راجعة إلى الجنسين . وقد قدمنا الإشارة إلى نحو هذا وذكرناه أنه خلاف الأولى لأمور منها : ﴿ **وجعل منها زوجها** ﴾ بأن هذا إنما هو لحواء . ومنها : ﴿ **دعوا الله ربهما** ﴾ فإن كل مولود يولد بين الجنسين لا يكون منهما عند مقاربة وضعه هذا الدعاء. وقد قرأ أهل المدينة وعاصم : « شركا » على التوحيد ، وقرأ أبو عمرو وسائر أهل الكوفة بالجمع ، وأنكر الأخفش سعيد القراءة الأولى . وأجيب عنه بأنها صحيحة على حذف المضاف ، أى جعلا له ذا شرك، أو ذوى شرك .

والاستفهام فى ﴿ **أيشركون مالا يخلق شيئا** ﴾ للتقريع والتوبيخ ، أى كيف يجعلون لله شريكا لا يخلق شيئا ولا يقدر على نفع لهم ، ولا دفع عنهم . قوله : ﴿ **وهم يخلقون** ﴾ عطف على ﴿ **ما لا يخلق** ﴾ والضمير راجع إلى الشركاء الذين لا يخلقون شيئا ، أى وهؤلاء الذين جعلوهم شركاء من الأصنام أو الشياطين مخلوقون . وجمعهم جمع العقلاء لاعتقاد من جعلهم شركاء أنهم كذلك . ﴿ **ولا يستطيعون لهم** ﴾ أى لمن جعلهم شركاء ﴿**نصرًا** ﴾ إن طلبه منهم ﴿ **ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ إن حصل عليهم شىء من جهة غيرهم ، ومن عجز عن نصر نفسه ، فهو عن نصر غيره أعجز .

(١ــ ٣) فى المطبوعة : « الخرث » بغير مد وفى المخطوطة بالمد ولعل المطبوعة على قاعدة عدم إثبات الألف ،كما فى مخطوطات السابقين من الكتّاب.

(٤) ويقال : إن البيت للمقنع الكندى كما فى ديوان الحماسة ٣/ ١١٨ والأمالى ١/ ٢٧٧، ورواية الشطر الثانى : وما شيمة لى غيرها تشبه العبدا

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : قال حمل بن أبى قيس وشمول بن زيد لرسول الله ﷺ : أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا كما تقول . فإنا نعلم ما هى ؟ فأنزل الله : ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمهاعند ربى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ (١) وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ **أيان مرساها** ﴾ أى متى قيامها ؟ ﴿ **قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو** ﴾ قال : قالت قريش : يا محمد ، أسر إلينا الساعة لما بيننا وبينك من القرابة ؟ قال : ﴿ **يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله** ﴾ وذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول : « تهيج الساعة بالناس ، والرجل يسقى على ماشيته ، والرجل يصلح حوضه،والرجل يخفض ميزانه ويرفعه ، والرجل يقيم سلعته فى السوق ، قضاء الله لا تأتيكم إلا بغتة » (٢) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أيان مرساها** ﴾ قال : ﴿ **منتهاها** ﴾ وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **لا يجليها لوقتها إلا هو** ﴾ يقول : لا يأتى بها إلا الله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : هو يجليها لوقتها لا يعلم ذلك إلا الله .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثقلت فى السموات والأرض** ﴾ قال : ليس شىء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ثقلت فى السموات والأرض** ﴾ قال: ثقل علمها على أهل السموات والأرض . يقول : كبرت عليهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ثقلت فى السموات والأرض** ﴾ قال : إذا جاءت انشقت السماء وانتثرت النجوم ، وكورت الشمس ، وسيرت الجبال ، وما يصيب الأرض . وكان ما قال الله سبحانه ، فذلك ثقلها فيهما . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لا تأتيكم إلا بغتة** ﴾ قال : فجأة آمنين .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والبيهقى فى البعث عن مجاهد فى قوله : ﴿ **كأنك حفى عنها** ﴾ قال : استحفيت عنها السؤال حتى علمتها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كأنك حفى عنها** ﴾ يقول : كأنك عالم بها ، أى لست تعلمها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عنه ﴿ **كأنك حفى عنها** ﴾ قال : لطيف بها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عنه أيضا ﴿ **كأنك حفى عنها** ﴾ يقول : كأن بينك وبينهم مودة ،

---

(١) ابن هشام ٢/ ٢١٠ وابن جرير ٩/ ٩٤ .

(٢) ابن جرير ٩/ ٩٥ ، وهذا مرسل .

كأنك صديق لهم . قال : لما سأل الناس محمدًا ﷺ عن الساعة ، سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدًا حفى بهم ، فأوحى الله إليه ﴿ **إنما علمها عند الله** ﴾ استأثر بعلمها فلم يُطلع ملكا ولا رسولا . وأخرج عبد بن حميد عن عمرو بن دينار قال : كان ابن عباس يقرأ : «كأنك حفى بها » .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج ﴿ **قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا** ﴾ قال : الهدى والضلالة ، ﴿ **ولو كنت أعلم الغيب** ﴾ متى أموت . ﴿ **لاستكثرت من الخير** ﴾ قال : العمل الصالح . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير** ﴾ قال : لعلمت إذا اشتريت شيئا ما أربح فيه ، فلا أبيع شيئا لا ربح فيه . ﴿ **وما مسنى السوء** ﴾ قال : ولا يصيبنى الفقر. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **وما مسنى السوء** ﴾ قال : لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون.

وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم والرويانى والطبرانى وأبو الشيخ ، والحاكم صححه ، وابن مردويه عن سمرة عن النبى ﷺ قال : « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث ، فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث ، فعاش ، فكان ذلك من وحى الشيطان وأمره »[1] وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن سمرة فى قوله : ﴿ **فلما آتاهما صالحًا جعلا له شركاء** ﴾ قال : سمياه عبد الحارث. وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبى بن كعب نحو حديث سمرة المرفوع موقوفًا عليه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : حملت حواء ، فأتاها إبليس فقال : إنى صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة ، لتطيعننى أو لأجعلن له قرنى أيل[2] ، فيخرج من بطنك فيشقه ، ولأفعلن ، ولأفعلن ، يخوفهما ، سمياه

(١) أحمد ٥/ ١١ والترمذى فى التفسير (٣٠٧٧) وقال : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة. رواه بعضهم عن عبد الصمد ، ولم يرفعه ، عمر بن إبراهيم شيخ بصرى » وابن جرير ٩/ ٩٩ والحاكم فى المستدرك ٢/ ٥٤٥ وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى، وقال ابن كثير ٣/ ٢٦٤ هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصرى ، وقد وثقه ابن معين ، ولكن قال أبو حاتم الرازى : لا يحتج به ، ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمرعن أبيه عن سمرة عن الحسن مرفوعا ، فالله أعلم .

الثانى : أنه قد روى من قول سمرة نفسه ليس مرفوعا كما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر عن أبيه ، حدثنا بكر بن عبد الله عن سليمان التيمى عن أبى العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب قال : سمى آدم ابنه عبد الحارث .

الثالث : أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا ، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه .

(٢) الأَيْل : التَّيس الجبلى . (مجمل اللغة ص ١٠٨) .

عبدالحارث . فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتًا ، ثم حملت فأتاهما أيضا فقال مثل ذلك ، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا ، ثم حملت فأتاهما ، فذكر لهما فأدركهما حب الولد ، فسمياه عبد الحارث . فذلك قوله : ﴿ **جعلا له شركاء فيما آتاهما** ﴾. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال : كان هذا فى بعض أهل الملل وليس بآدم .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه عن سمرة فى قوله : ﴿ **حملت حملا خفيفًا** ﴾ لم يستبن ﴿ **فمرت به** ﴾ لما استبان حملها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فمرت به** ﴾ قال : فشكت أحملت أم لا ؟ وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن أيوب قال : سئل الحسن عن قوله : ﴿ **فمرت به** ﴾ قال : لو كنت عربيا لعرفتها ، إنما هى استمرت بالحمل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **حملت حملا خفيفًا** ﴾ قال : هى النطفة ﴿ **فمرت به** ﴾ يقول : استمرت به . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فمرت به** ﴾ قال : فاستمرت به . وأخرج ابن أبى حاتم عن ميمون بن مهران ﴿ **فمرت به** ﴾ يقول : استخفته . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى صالح فى قوله : ﴿ **لئن آتيتنا صالحًا** ﴾ فقال: أشفق أن يكون بهيمة ، فقالا : لئن آتيتنا بشرًا سويا . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية ، قال : غلامًا سويا .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **جعلا له شركاء** ﴾ قال : كان شريكا فى طاعة ، ولم يكن شريكا فى عبادة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : ما أشرك آدم ، إن أولها شكر ، وآخرها مثل ضربه لمن بعده . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **فتعالى الله عما يشركون** ﴾ هذا فصل من آية آدم،خاصة فى آلهة العرب . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك نحوه . وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الحسن فى الآية قال:هذا فى الكفار يدعون الله ، فإذا أتاهما صالحًا هودًا أو نصرا ، ثم قال : ﴿ **أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون** ﴾ يقول : يطيعون مالا يخلق شيئا ، وهى الشياطين لا تخلق شيئا وهى تخلق . ﴿ **ولا يستطيعون لهم نصرا** ﴾ يقول لمن يدعوهم .

﴿ **وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ** (١٩٣) **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (١٩٤) **أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ** (١٩٥) **إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** (١٩٦) **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا**

أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم** ﴾ هذا خطاب للمشركين ، أى وإن تدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى والرشاد بأن تطلبوا منهم أن يهدوكم ويرشدوكم لا يتبعوكم ولا يجيبوكم إلى ذلك ، وهو دون ما تطلبونه منهم من جلب النفع ، ودفع الضر ، والنصر على الأعداء . قال الأخفش : معناه وإن تدعوهم ، أى الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم . وقيل : المراد من سبق فى علم الله أنه لا يؤمن وقرئ : ﴿ **لا يتبعوكم** ﴾ مشددًا ومخففًا . وهما لغتان. وقال بعض أهل اللغة : اتبعه مخففا : إذا مضى خلفه ولم يدركه ، واتبعه مشددًا : إذا مضى خلفه فأدركه . وجملة ﴿ **سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون** ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها . أى دعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه سواء ، لا فرق بينهما لأنهم لا ينفعون ولا يضرون ، ولا يسمعون ، ولا يجيبون . وقال : ﴿ **أم أنتم صامتون** ﴾ مكان أصمتم لما فى الجملة الإسمية من المبالغة [1] وقال محمد بن يحيى : إنما جاء بالجملة الإسمية لكونها رأس آية ، يعنى : لمطابقة ﴿ **ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ وما قبله .

قوله : ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم** ﴾ أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عباد لله كما أنتم عباد له ، مع أنكم أكمل منهم ، لأنكم أحياء تنطقون وتمشون ، وتسمعون ، وتبصرون . وهذه الأصنام ليست كذلك ، ولكنها مثلكم فى كونها مملوكة لله ، مسخرة لأمره .وفى هذا تقريع لهم بالغ ، وتوبيخ لهم عظيم.وجملة :﴿ **فادعوهم فليستجيبوا لكم** ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها من أنهم إن دعوهم إلى الهدى لا يتبعوهم ، وأنهم لا يستطيعون شيئا ، أى ادعوا هؤلاء الشركاء ، فإن كانوا كما تزعمون ﴿ **فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين** ﴾ فيما تدعونه لهم من قدرتهم على النفع والضر .

والاستفهام فى قوله : ﴿ **ألهم أرجل** ﴾ ؟ وما بعده للتقريع والتوبيخ ، أى هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شىء من الآلات التى هى ثابتة لكم فضلا عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم . فإنهم كما ترون هذه الأصنام التى تعكفون على عبادتها ليست لهم ﴿ **أرجل** ﴾ يمشون بها فى نفع أنفسهم فضلا عن أن يمشوا فى نفعكم ، وليس ﴿ **لهم أيد يبطشون بها** ﴾ كما يبطش غيرهم من الأحياء،وليس ﴿ **لهم أعين يبصرون بها** ﴾ كما تبصرون، وليس ﴿ **لهم آذان يسمعون بها** ﴾ كما تسمعون . فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات ، وبهذه المنزلة من العجز و« أم » فى هذه المواضع هى المنقطعة التى بمعنى بل

---

(١) قال ابن جرير : عطف بقوله : ﴿ **صامتون** ﴾ وهو اسم على قوله : ﴿ **أدعوتموهم** ﴾ : وهو فعل ماض ولم يقل : « أم صمتم » كما قال الشاعر :

سواء عليكم النفر أم بت ليلة ... بأهل القباب من نمير بن عامر

والهمزة كما ذكره أئمة النحو . وقرأ سعيد بن جبير : « إن الذين تدعون » بتخفيف « إن » ونصب « عبادًا » أى ما الذين تدعون ﴿ **من دون اللّه عبادا أمثالكم** ﴾ أى إعمال إن النافية عمل ما الحجازية . وقد ضعفت هذه القراءة بأنها خلاف ما رجحه سيبويه وغيره من اختيار الرفع فى خبرها . وبأن الكسائى قال : إنها لا تكاد تأتى فى كلام العرب بمعنى « ما » إلا أن يكون بعدها إيجاب كما فى قوله : ﴿ إن الكافرون إلا فى غرور ﴾ [الملك : ٢٠] والبطش : الأخذ بقوة . وقرأ أبو جعفر « يبطشون » بضم الطاء . وهى لغة . ثم لما بين لهم حال هذه الأصنام وتعاور [١] وجوه النقص والعجز لها من كل باب ، أمره اللّه بأن يقول لهم : ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضر . ﴿ **ثم كيدون** ﴾ أنتم وهم جميعًا بما شئتم من وجوه الكيد ﴿ **فلا تنظرون** ﴾ أى فلا تمهلونى ، ولا تؤخروا [٢] إنزال الضرر بى من جهتها . والكيد : المكر . وليس بعد هذا التحدى لهم ، والتعجيز لأصنامهم شىء.

ثم قال لهم : ﴿ **إن وليى اللّه الذى نزل الكتاب** ﴾ أى كيف أخاف هذه الأصنام التى هذه صفتها وَلى وَلِىٌّ ألجأ إليه وأستنصر به وهو اللّه عز وجل ﴿ **الذى نزل الكتاب** ﴾ وهذه الجملة تعليل لعدم المبالاة بها . وولى الشىء وهو الذى يحفظه ويقوم بنصرته ويمنع منه الضرر ﴿ **وهو يتولى الصالحين** ﴾ أى يحفظهم وينصرهم ، ويحول ما بينهم وبين أعدائهم. قال الأخفش : وقرئ: « إن ولى اللّه الذى نزل الكتاب » يعنى جبرائيل . قال النحاس : هى قراءة عاصم الجحدرى. والقراءة الأولى أبين لقوله : ﴿ **وهو يتولى الصالحين** ﴾ [٣] .

قوله : ﴿ **والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ كرر سبحانه هذا لمزيد التأكيد والتقرير ، ولما فى تكرار التوبيخ ، والتقريع من الإهانة للمشركين ، والتنقيص بهم ، وإظهار سخف عقولهم ، وركاكة أحلامهم ، ﴿ **وتراهم ينظرون إليك** ﴾ جملة مبتدأة لبيان عجزهم ،أو حالية،أى والحال أنك تراهم ينظرون إليك حال كونهم لا يبصرون . والمراد الأصنام أنهم يشبهون الناظرين ، ولا أعين لهم يبصرون بها . قيل : كانوا يجعلون للأصنام أعينا من جواهر مصنوعة ، فكانوا بذلك فى هيئة الناظرين ولا يبصرون . وقيل : المراد بذلك المشركون . أخبر اللّه عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم ، وإن أبصروا بها غير ما فيه نفعهم.

وقد أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : يجاء بالشمس والقمر حتى يلقيا بين يدى اللّه تعالى ، ويجاء بمن كان يعبدهما ، فيقال : ﴿ **ادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين** ﴾

---

(١) تعاور وجوه النقص : يعنى تداولها وجها بعد وجه .

(٢) فى المخطوطة : « ولا تؤخرون » بالرفع ، والصحيح ما أثبتناه على الجزم بلا الناهية .

(٣) عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ جهارا غير سر يقول: «إن آل أبى ـ يعنى فلانا ـ ليسوا بأوليائى إنما وليى الله وصالح المؤمنين » البخارى فى الأدب (٥٩٩٠) ومسلم فى الإيمان (٢١٥ / ٣٦٦) وأحمد ٤ / ٢٠٣ .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وتراهم ينظرون إليك** ﴾ قال : هؤلاء المشركون .

وأخرج هؤلاء أيضا عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون** ﴾ ما يدعوهم إليه من الهدى .

﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)** ﴾ .

قوله : ﴿ **خذ العفو** ﴾ لما عدد الله ما عدده من أحوال المشركين ، وتسفيه رأيهم ، وضلال سعيهم ، أمر رسوله ﷺ بأن يأخذ العفو من أخلاقهم . يقال : أخذت حقى عفوًا ، أى سهلا . وهذا نوع من التيسير الذى كان يأمر به رسول الله ﷺ كما ثبت فى الصحيح أنه كان يقول : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » [1] والمراد بالعفو هنا ضد الجهد . وقيل : المراد : خذ العفو من صدقاتهم ، ولا تشدد عليهم فيها وتأخذ ما يشق عليهم . وكان هذا قبل نزول فريضة الزكاة . ﴿ **وأمر بالعرف** ﴾ أى بالمعروف . وقرأ عيسى بن عمر « بالعُرف » بضمتين . وهما لغتان . والعرف والمعروف والعارفة : كل خصلة حسنة ترتضيها العقول ، وتطمئن إليها النفوس ، ومنه قول الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

﴿ **وأعرض عن الجاهلين** ﴾ أى إذا أقمت الحجة فى أمرهم بالمعروف فلم يفعلوا فأعرض عنهم ، ولا تمارهم ، ولا تسافههم مكافأة لما يصدر منهم من المراء والسفاهة . قيل : وهذه الآية هى جملة ما نسخ بآية السيف قاله عبد الرحمن بن زيد وعطاء . وقيل : هى محكمة . قاله مجاهد وقتادة .

قوله : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ** ﴾ النزغ [2] : الوسوسة . وكذا النغز ، والنخس .

---

(١) أحمد ١/ ٢٦٥ عن ابن عباس ٣/ ١٣١ عن أنس والبخارى فى العلم (٦٩) عن أنس وفى الأدب (٦١٢٥) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٣٢ / ٦) عن أبى موسى .

(٢) نزغ بين القوم نزغا : أفسد وحمل بعضهم على بعض وفى التنزيل العزيز : ﴿ **من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى** ﴾ [يوسف : ١٠٠] . ويقال : نزغ فلانا : اغتابه وذكره بقبيح ، ونزغه إلى المعاصى : حثه .

قال الزجاج : النزغ : أدنى حركة تكون. ومن الشيطان : أدنى وسوسة . وأصل النزغ الفساد . يقال : نزغ بينتا ، أى أفسد . وقيل : النزغ : الإغواء . والمعنى متقارب . أمر الله سبحانه نبيه ﷺ إذا أدرك شيئا من وسوسة الشيطان أن يستعيذ بالله . وقيل : إنه لما نزل قوله : ﴿ **خذ العفو** ﴾ قال النبى ﷺ : « كيف يارب بالغضب ؟ » فنزلت[1] ، وجملة ﴿ **إنه سميع عليم** ﴾ علة لأمره بالاستعاذة ، أى استعذ به والتجئ إليه ، فإنه يسمع ذلك منك، ويعلم به .

وجملة : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا** ﴾ مقررة لمضمون ما قبلها ، أى : إن شأن الذين يتقون الله ، وحالهم هو التذكر لما أمر الله به من الاستعاذة به ، والالتجاء إليه عند أن يمسهم طائف من الشيطان وإن كان يسيرا . قرأ أهل البصرة « طيف » وكذا أهل مكة، وقرأ أهل المدينة والكوفة ﴿ **طائف** ﴾ وقرأ سعيد بن جبير « طيف » بالتشديد . قال النحاس: كلام العرب [2] فى مثل هذا « طيف » بالتخفيف على أنه مصدر من طاف يطيف[3] . قال الكسائى : هو مخفف مثل : ميت وميت .

قال النحاس : ومعناه فى اللغة : ما يتخيل فى القلب ، أو يرى فى النوم . وكذا معنى طائف . قال أبو حاتم : سألت الأصمعى عن طيف فقال : ليس فى المصادر فيعل . قال النحاس : ليس هو مصدرا ، ولكن يكون بمعنى طائف . وقيل : الطيف والطائف معنيان مختلفان. فالأول : التخيل . والثانى : الشيطان نفسه . فالأول من طاف الخيال يطوف طيفا ، ولم يقولوا من هذا طائف . قال السهيلى: لأنه تخيل لا حقيقة له . فأما قوله : ﴿ فطاف عليهم طائف من ربك ﴾ [القلم : ١٩] فلا يقال فيه طيف ؛ لأنه اسم فاعل حقيقة . قال الزجاج : طفت عليهم أطوف ، فطاف الخيال يطيف قال حسان :

فدع هذا ولكن مَنْ لطيف يؤرقنى إذا ذهب العشاء [4]

وسميت الوسوسة طيفا ، لأنها لَمةٌ من الشيطان تشبه لمة الخيال . ﴿ **فإذا هم مبصرون** ﴾ بسبب التذكر ، أى منتبهون . وقيل : على بصيرة . قرأ سعيد بن جبير « تذكروا » بتشديد الذال . قال النحاس : ولا وجه له فى العربية . قوله: ﴿ **وإخوانهم يمدونهم فى الغى** ﴾ قيل :

---

(١) ابن جرير ٩/ ١٠٦ . (٢) هذا نص كلام أبى عبيدة فى مجاز القرآن ١/ ٢٣٧ .

(٣) قال كعب بن زهير :

أنى ألم بك الخيال يطيف ومطافه لك ذكرة وشعوف

راجع : ديوانه ١١٣ ، ومجاز القرآن الكريم لأبى عبيدة ١/ ٢٣٧ واللسان (طيف) .

(٤) البيت فى قصيدته التى يمدح فيها رسول الله ﷺ ويهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب . والطيف : الخيال يلم فى النوم ، ويؤرقنى : أى يسهرنى ويذهب بلبى . وقوله : إذا ذهب العشاء : إذا آن النوم ، والعشاء : أول الليل عند ما يخيم الظلام وبعد هذا البيت :

لشعثاء التى قد تيمته فليس لقلبه منها شفاء

راجع ديوانه : ص ٥٨ ، ٥٩ .

المعنى : وإخوان الشياطين ، وهم الفجار من ضلال الإنس ، على أن الضمير فى إخوانهم يعود إلى الشيطان المذكور سابقا . والمراد به الجنس . فجاز إرجاع ضمير الجمع إليه . ﴿ **يمدونهم فى الغى** ﴾ أى تمدهم الشياطين فى الغى ، وتكون مددًا لهم . وسميت الفجار من الإنس إخوان الشياطين ، لأنهم يقبلون منهم ويقتدون بهم. وقيل : إن المراد: بالإخوان: الشياطين ، وبالضمير: الفجار من الإنس ، فيكون الخبر جاريا على من هو له . وقال الزجاج : فى الكلام تقديم وتأخير . والمعنى : ﴿ **والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصرًا ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ ﴿ **وإخوانهم يمدونهم فى الغى**﴾ [1] لأن الكفار إخوان الشياطين ﴿ **ثم لا يقصرون** ﴾ الإقصار : الانتهاء عن الشيء ، أى لا تقصر الشياطين فى مد الكفار فى الغى . قيل : إن ﴿ **فى الغى** ﴾ متصلا بقوله : ﴿ **يمدونهم** ﴾ وقيل : بالإخوان . والغى : الجهل . قرأ نافع « يمدونهم » بضم حرف المضارعة وكسر الميم . وقرأ الباقون بفتح حرف المضارعة وضم الميم ، وهما لغتان . يقال : مد وأمد . قال مكى : ومد : أكثر. وقال أبو عبيد وجماعة من أهل اللغة: فإنه يقال إذا كثر شيء شيئا بنفسه مده .وإذا كثره بغيره ، قيل : أمده ، نحو ﴿ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة ﴾ [آل عمران: ١٢٥] وقيل : يقال : مددت في الشر . وأمددت فى الخير . وقرأ عاصم الجحدرى « يمادونهم فى الغى » . وقرأ عيسى بن عمر « ثم لا يقصرون » بفتح الياء وضم الصاد وتخفيف القاف .

قوله : ﴿ **وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها** ﴾ : اجتبى الشيء بمعنى جباه لنفسه ، أى جمعه ، أى هلا اجتمعتها افتعالا لها من عند نفسك [2] . وقيل : المعنى اختلقتها . يقال : اجتبيت الكلام : انتحلته واختلقته واخترعته إذا جئت به من عند نفسك . كانوا يقولون لرسول الله ﷺ إذا تراخى الوحى هذه المقالة ، فأمره الله بأن يجيب عليهم بقوله : ﴿ **إنما أتبع ما يوحى إلى** ﴾ أى لست ممن يأتى بالآيات من قبل نفسه كما تزعمون ، بل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى فما أوحاه إلى وأنزله على أبلغته إليكم . وبصائر جمع بصيرة ، أى هذا القرآن المنزل علىَّ هو ﴿ **بصائر من ربكم** ﴾ يتبصر بها من قبلها .وقيل: البصائر: الحجج ، والبراهين [3] . وقال الزجاج: البصائر : الطرق . ﴿ **وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ معطوف على بصائر ، أى هذا القرآن هو بصائر وهدى ، يهتدى به المؤمنون ورحمة لهم .

---

(١) غوى : غيا ، وغواية : انهمك فى الجهل وأمعن فى الضلال وهو خلاف الرشد، وفى التنزيل العزيز: ﴿ **ما ضل صاحبكم وما غوى** ﴾ [النجم:٢] أغواه: أضله وأغراه ، وفى التنزيل العزيز : ﴿ **ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا** ﴾ [القصص : ٦٣] تغاوى القوم : تجمعوا وتعاونوا على الشر .

(٢) وقيل : لولا اجتبيتها : اخترتها واصطفيتها، وفى التنزيل العزيز: ﴿ **ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء** ﴾ [آل عمران :١٧٩] يعنى يختار ويصطفى .

(٣) كما قال جل ثناؤه : ﴿ **هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون** ﴾ [الجاثية : ٢٠] .

قوله : ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ أمرهم اللّه سبحانه بالاستماع للقرآن والإنصات له [١] عند قراءته ، لينتفعوا به ، ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح . قيل : هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الإمام . ولا يخفاك أن اللفظ أوسع من هذا . والعام لا يقصر على سببه ، فيكون الاستماع ، والإنصات عند قراءة القرآن فى كل حالة وعلى أى صفة مما يجب على السامع . وقيل : هذا خاص بقراءة رسول اللّه ﷺ للقرآن دون غيره ، ولا وجه لذلك .

﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ أى تنالون الرحمة وتفوزون بها ،بامتثال أمر اللّه سبحانه ، ثم أمره اللّه سبحانه أن يذكره فى نفسه . فإن الإخفاء أدخل فى الإخلاص ، وأدعى للقبول . قيل : المراد بالذكر هنا ما هو أعم من القرآن ، وغيره من الأذكار التى يذكر اللّه بها . وقال النحاس : لم يختلف فى معنى : ﴿ **واذكر ربك فى نفسك** ﴾ أنه الدعاء . وقيل : هو خاص بالقرآن ، أى اقرأ القرآن بتأمل وتدبر ، و ﴿ **تضرعًا وخيفة** ﴾ منتصبان على الحال ، أى متضرعًا ، وخائفًا . والخيفة : الخوف . وأصلها خوفة ، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها . وحكى الفراء أنه يقال فى جمع خيفة : خيف . قال الجوهرى: والخيفة : الخوف . والجمع : خيف . وأصله : الواو ، أى خوف .

﴿ **ودون الجهر من القول** ﴾ أى دون المجهور به من القول [٢] ،وهو معطوف على ما قبله ، أى متضرعا وخائفا ، ومتكلمًا بكلام هو دون الجهر من القول . و ﴿ **بالغدو والآصال** ﴾ متعلق بـ ﴿ **اذكر** ﴾ أى أوقات الغدوات وأوقات الأصائل . والغدو: جمع غدوة [٣] . والآصال : جمع أُصيل .قاله الزجاج والأخفش ، مثل يمين وأيمان . وقيل :الآصال : جمع أُصل . والأُصُل : جمع أصيل فهو على هذا جمع الجمع . قاله الفراء . قال الجوهرى : الأصيل : الوقت من بعد العصر إلى المغرب . وجمعه أُصل وآصال ، وأصائل . كأنه جمع أصيلة ، قال الشاعر :

لعمرى لأنت البيت أكرم أهله وأقعد فى أفنائه بالأصائل [٤]

ويجمع أيضا على أصلان ، مثل : بعير وبعران . وقرأ أبو مجلز : « والإيصال » . وهو

---

(١) الإنصات : السكوت للاستماع ، والإصغاء والمراعاة ، قال الشاعر :

قال الإمام عليكم أمر سيدكم فلم نخالف وأنصتنا كما قالا

القرطبى ٤/ ٢٧٩٠ .

(٢) أى اسمع نفسك كما قال تعالى : ﴿ **وابتغ بين ذلك سبيلا** ﴾ [الإسراء : ١١٠] .

(٣) غدا غُدُوا : ذهب وانطلق ، وغدوة : ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس وجمع الغدوة (غدى) مثل مُدْيَة ومُدى . هذا أصله ، ثم كثر حتى استعمل فى الذهاب والانطلاق أى وقت كان ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « واغد يا أنيس» أى وانطلق .

(٤) البيت لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوان الهذليين ١/ ١٤١ ومجاز القرآن الكريم ١/ ٢٣٩ والأغانى ٦/ ٥٧ والخزانة ٢/ ٤٧٩، ٥٦٤ .

مصدر . وخص هذين الوقتين لشرفهما . والمراد : دوام الذكر لله . ﴿ **ولا تكن من الغافلين** ﴾ أى عن ذكر الله .

﴿ **إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته** ﴾ المراد بهم : الملائكة . قال القرطبى : بالإجماع [١] . قال الزجاج : وقال ﴿ **عند ربك** ﴾ والله عز وجل بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته ، وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنده . وقال غيره : لأنهم فى موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله . وقيل : إنهم رسل الله ، كما يقال : عند الخليفة جيش كثير . وقيل : هذا على جهة التشريف والتكريم لهم ومعنى ﴿ **يسبحونه** ﴾ :يعظمونه ، وينزهونه عن كل شين . ﴿ **وله يسجدون** ﴾ أى يخصونه بعبادة السجود التى هى أشرف عبادة . وقيل : المراد بالسجود : الخضوع والذلة . وفى ذكر الملأ الأعلى تعريض لبنى آدم .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة والبخارى وأبو داود والنسائى ، والنحاس فى ناسخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن عبد الله بن الزبير فى قوله : ﴿**خذ العفو**﴾ الآية ، قال : ما نزلت هذه الآية إلا فى اختلاف الناس . وفى لفظة أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس[٢] . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عمر فى قوله : ﴿ **خذ العفو** ﴾ قال : أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس [٣] .

وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الشعبى ، قال : لما أنزل الله ﴿ **خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ قال رسول الله ﷺ :« ما هذا يا جبريل ؟ قال : لا أدرى حتى أسأل العالم . فذهب ثم رجع فقال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك »[٤]. وأخرج ابن مردويه عن جابر نحوه [٥] . وأخرج ابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة قال : لما نظر رسول الله ﷺ إلى حمزة بن عبد المطلب قال : « والله لأمثلن بسبعين منهم » ، فجاءه جبريل بهذه الآية .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة فى قوله : ﴿ **خذ العفو** ﴾ قال : ما عفا لك من مكارم الأخلاق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **خذ العفو** ﴾ قال : خذ ما عفا من أموالهم ، ما أتوك به من شىء فخذه . وهذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقة وتفصيلها [٦] . وأخرج ابن جرير ، والنحاس فى ناسخه عن السدى فى الآية قال : الفضل من

(١) القرطبى ٤/ ٢٧٩٢ وقال :« فهو عبارة عن قربهم فى الكرامة لا المسافة » .
(٢) ابن أبى شيبة فى الزهد (١٦٦٧٦) والبخارى فى التفسير (٤٦٤٣) وأبو داود فى الأدب (٤٧٨٧) والنسائى فى التفسير (٢١٥) وابن جرير ٩/ ١٠٤ .
(٣) قال الهيثمى ٧/ ٢٨ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، ورجاله ثقات » .
(٤) ابن جرير ٩/ ١٠٥ وأورد ابن كثير رواية ابن أبى حاتم ٣/ ٢٦٧ وقال : « وهذا مرسل على كل حال » .
(٥) أورد ابن كثير رواية ابن مردويه وقال : « روى مرفوعا » .
(٦) ابن جرير ٩/ ١٠٤ .

المال نسخته الزكاة .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : لما نزلت : ﴿ **خذ العفو** ﴾ الآية ، قال رسول الله ﷺ : « كيف بالغضب يارب؟ » فنزل : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ** ﴾ (١) .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **إن الذين اتقوا** ﴾ قال : هم المؤمنون . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : « إذا مسهم طيف من الشيطان» قال : الغضب . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الطيف : الغضب . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **تذكروا** ﴾ قال : إذا زلوا تابوا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : الطائف : اللمة من الشيطان . ﴿ **تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾ يقول : فإذا هم منتهون عن المعصية، آخذون بأمر الله ، عاصون للشيطان ﴿**وإخوانهم**﴾ قال : إخوان الشياطين ﴿ **يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون** ﴾ قال : لا الإنس يمسكون عما يعملون من السيئات ، ولا الشياطين تمسك عنهم . ﴿ **وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها** ﴾ يقول : لولا أحدثتها ، لولا تلقيتها فأنشأتها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه :﴿ **وإخوانهم يمدونهم فى الغى**﴾ قال : هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ **ثم لا يقصرون** ﴾ يقول : لا يسأمون ﴿**وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها** ﴾ يقول : هلا افتعلتها من تلقاء نفسك .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أبى هريرة فى قوله : ﴿ **وإذا قرئ القرآن** ﴾ الآية ، قال : نزلت فى رفع الأصوات ، وهم خلف رسول الله ﷺ فى الصلاة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس فى الآية قال : يعنى فى الصلاة المفروضة . وأخرج ابن مردويه والبيهقى عنه قال :صلى النبى ﷺ فقرأ خلفه قوم فخلطوا ، فنزلت : ﴿ **وإذا قرئ القرآن** ﴾ الآية . فهذه فى المكتوبة . قال : وإن كنا لم نستمع لمن يقرأ بالأخفى من الجهر . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى حاتم والبيهقى عن محمد بن كعب القرظى نحوه وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى عن عبد الله بن مغفل نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن ابن مسعود نحوه أيضا.

وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف ، وصرحوا بأن هذه الآية نزلت فى قراءة الصلاة من الإمام . وأخرج ابن أبى شيبة عن الحسن فى الآية قال : عند الصلاة المكتوبة وعند الذكر . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال : فى الصلاة

---

(١) ابن جرير ٩/١٠٦ .

وحين ينزل الوحى . وأخرج البيهقى عنه فى الآية أنه قال : هذا فى الصلاة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **واذكر ربك فى نفسك** ﴾ الآية ، قال : أمره الله أن يذكره ، ونهاه عن الغفلة ، أما بالغدو: فصلاة الصبح ،والآصال : بالعشى. وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى صخر ، قال : الآصال ما بين الظهر والعصر . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال: لا تجهر بذاك ﴿ **بالغدو والآصال** ﴾ بالبكر ، والعشى . وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **بالغدو** ﴾ قال: آخر الفجر صلاة الصبح. والآصال : آخر العشى صلاة العصر[1] .

والأحاديث والآثار عن الصحابة فى سجود التلاوة ، وعدد المواضع التى يسجد فيها ، وكيفية السجود، وما يقال فيه مستوفاة فى كتب الحديث والفقه ، فلا نطول بإيراد ذلك ها هنا.

---

(١) وفيه زيادة : « قال : كل ذلك لها وقت ، أول الفجر وآخره . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ **واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار** ﴾ [آل عمران: ٤١] . وقيل . العشى : ميل الشمس إلى المغيب ، والإبكار : أول الفجر » .